أكستازوس

مجموعة قصصية

أكستازوس

آكسيل. م. روميوس

طبعة أولى أكتوبر 2024
إصدارات إيكوزيوم آفولاي 2024
ردمك: 978-9931-815-57-0

الكاتب: آكسيل. م. روميوس
عنوان الكتاب: أكستازوس
تصميم الغلاف والإخراج الفني: أحمد الشافعي ملكي

الناشر: دار إيكوزيوم آفولاي للنشر والتوزيع
إمييل: Editionicosium@hotmail.com
هاتف: 037832786-0673222537
16 إيكوزيوم آفولاي للنشر والتوزيع والترجمة - الطريق الوطني رقم -مداوروش سوق أهراس

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

ICOSIUM

الإهداء

إلى كلٍّ من سفيان، هُدى، نبيل، معتز، سليم، شُرحبيل، راما، ماهر، وِسام، عبد المنتقم، ريم... أُهدي هذا الكتاب إلى كلّ الأبطال الرّئيسيين والثّانويين في قِصصي هذه، فلا يسعُني ذِكرهم جميعًا هنا. كما أنّي أعتذر منهم بسببِ ما جعلتهُم يمُرّون به، أعرف أنّه لم يكُن بالسّهل أبدًا. لكنّه قَلمي اللّعين!

كلمة إلى كلّ من قد يقرأ كِتابي هذا: كلّ الشّخصيات في هذه القِصص الجميلة هي شخصياتٌ عاشت وماتت في مُخيلتي، أي أنّهم مخلوقات من حِبرٍ ووَرق ولا وجود لهم في عالم الواقع البائس، أقول هذا حتى لا يخطُر لأحدهم في مكانٍ ما هناك أنّه أو أنّها المَعني(ة). فمن أنتَ حتّى أكتب عنكَ أو آتي على ذكركَ في كتابي؟! لا أحدْ!

قراءة مُمتعة.

~ آكسيل.

لعنةُ سِخمتْ

... كانت عقارب الساعة المُعلّقة على الحائط تُشير إلى الثّالثة والرُّبع مساءً حين كانت وِسام تقوم بالتقاط صور سيلفي بواسطة جوّالها الذي اشترته مؤخّرًا بالتّقسيط، وذلك كان في مكتبِها حيث تعمل سكريتيرةً في مركز التّكوين المهني ببلدة بكّارية مسقطُ رأسِها أين تسكنُ مع والِدتها وأخويْها، أمّا والدها فقد توفّي قبل بِضعة أشهُرٍ بعدما ظلّ يُصارع مرضَ السّرطان طيلة سنةٍ ونصف، فهزَمه وأوْدى بحياته في الأخير، تاركًا وراءه ثلاثة أولاد وأمّهم ليواجهوا الحياة ومَشاقها بمُفردهم.

ولأنّ وِسام أكبرهم والوحيدة التي تخرّجت من الجامعة وحصلت على منصبٍ في مركز التكوين، فوجدت نفسها يقع على عاتقها وعاتق والدتها الخيّاطة مَهمّة إعالة العائلة. ريثما يكبر أخواها الصّغيران ويصبح بإمكانهما هما أيضا مدُّ يد العوْن.

في تلك السّاعة وبينما كانت وِسام مُنهمكةً في تغيير وضعيات التّصوير وهي مُتّكئة على حافّة طابعة الورق الموضوعة على طاولة المكتب، ضغطتْ عن غير قصدٍ بطرفيْ إصبعيْها السّبابة والوُسطى على زِرّ نَسخٍ ديجيتاليّ موجودٌ في الأسفل، فاشتغلت الآلة واشتعل

فيها مِصباح أخضر ليْزريّ وامض، وراح يمسح بشكلٍ طوليّ وعرضيّ جسم وِسام التي كانت تقف أمام آلة الطّبع مشدوهةً من تقنية عملها التي لم يكن لها عِلمٌ بها من قبل، وضعتْ يدها على فمها وهي تكتمُ ضِحكةً عندما تذكّرت لسببٍ ما لقطةً من كْليپ أغنية Womanizer للمُغنّية Britney Spears لمّا جلست بريتني في هيئة السّكريتيرة على طابعة ورق التّابعة للشّركة وطبعت على ورقة صورةً لردفيْها وأعطتها لعشيقها...

وِسام كغيرها من موظّفي المركز لم تكن تراها إلاّ كآلة طبعٍ عادية من طرازٍ قديم عفا عليها الزّمن، لتتفاجىء بعد لحظاتٍ لمّا رأت أنبوبًا يتمدّد خارج فُتحةٍ كانت مَخفيّة في الجهة الخلفية من الآلة، وبدأ سائل لزِجٌ لونه ورديّ ينزل منها بدا لها كسائلٍ هُلامي، سالت تلك المادّة الغريبة من الأنبوب ببُطء من على الطّاولة الموضوعة فوقها آلة الطّبع واستقرّت على بِلاط الأرضيّة، ثم أخذت تتحرّك وتُعجَن من تلقاء نفسها كما لو كانت قِطعة سْلايم، وشيئًا فشيئًا كبُر حجمُها بفعل التمدُّد وبدأ يتغيّر لونها من الورديّ إلى مزيجٍ من البُنّي والبُرتقالي وهي تتشكّل على هيئة جِسم إنسان؛

ابتلعتْ وِسام ريقها الذي كاد يجِفّ في حلْقها لمّا رأت الجسم قد تشكّلَ في الأخير على هيئة فتاة، وقد كانت تشبهها إلى حدٍّ كبير. لم تكن تُشبهها فقط بل كانت صورةً طِبق الأصل عنها هي شخصيًّا! كانت تبدو إلى حدٍّ كبير مثل دُمى السّيليكون، كالدُّمية ((مونيكا)) التي تُستخدَم لأغراضٍ جنسيّة.

والأغرب في الأمر أنّ الدُّمية المُستنسَخة تلك كانت عليها نفس الملابس التي كانت ترتديها وِسام في تلك اللّحظة، وهذا ما زاد في استغرابها وأثار مخاوفها. صُعِقت وسام عندما رأت الحياة تُبعثُ فيها!! فقد رمشتْ عيْناها وراحت تُدير رأسها يسارًا ويمينًا وتنظر من حولها، وقفت الدُّمية المُستنسَخة وسط الحُجرة وراحت تتفحّص جسمها وتتحسّسُ أطرافها وتلمس وجهها الذي بدت عليه تعابير الفرح التي كانت تعلوها نظراتٌ تبعثُ الرّهبةَ في قلب من ينظر إليها، أمّا وِسام فقد ارتسمتْ علاماتُ الرُّعب على وجهها الذي فرّتْ منه الدّماء حتى اصفرَّ، تراجعت بخطواتٍ بطيئة إلى الوراء إلى أن لامسَ جسدها جدار الحُجرة فتسمّرت في إحدى زواياها مُتحجّرةً من شدّة الذُّعر فبدت لِلحظة كما لو كانت تمثالاً منحوتًا فيها.

كان الذّعر والذّهول قد تملّكاها وهي تنظر إلى شبيهتها بعينيْن شاخصتيْن وكأنّها تنظر إلى نفسها في مرآة، لو دخل أحدُ ما في تلك اللّحظة ورآهما لجَزَم أنّ تلك الدّمية الحيّة أختُ وِسام التّوأم!

بعد مُضيّ لحظات ولمّا اطمأنت وِسام قليلاً إلى الدّمية المستنسخَة وأحسّت معها بالأمان، اقتربت منها في حذر وبدأت تُحادثها وتسألها أسئلة روتينيّة، فوجدت أنّها غايةً في الذّكاء وكأنّها روبوت مُبرمَج كتلك الرّوبوتات التي تراها على قناة ناشيونال جيوغرافيك.

أوصدت وِسام باب الحُجرة من الدّاخل حتى لا يُفاجئها أحدٌ بعد أن تأكّدت أنّ الجميع خرجوا لتناول طعام الغداء في منازلهم أو في مطاعم البلدة. أمّا هي فقد اعتذرت مُسبقًا إلى زميلاتها وتذرّعت لهنّ بأنّها جلبت معها لُمجةً من المنزل.

جلست على الكرسي وراحت تفكّر وتُعمِل رأسها، فقد كانت في تلك الفترة تواجه مشكلةً مع مُحمّد، وهو أحد الشُّبان الذين كانوا يُعاكسونها في الطّريق. فمحمّدٌ هذا كان يمرّ كل يوم من الطّريق الذي تسلُكه وِسام كي تذهب إلى عملها، ورغم ردّها له ورفضها المُطلَق للخروج معه ومواعدته، ورغم شتمها وتوبيخها له أحيانًا،

إلاّ أنّه ظلّ يُلحّ عليها كي تخرج معه في موعدٍ غرامي، معتقدًا أنّها كبقيّة السّوقيات اللّواتي خرجنَ معه ورضيْن لأنفسِهنّ بالرّكوب معه في قطعة الخُردة التي كانت في يوم من الأيام سيارة مرسيدس من طراز 300 E أصبحت تبدو أكثر مثل سيارة 405 قديمة ومُصدّعةَ الهيكل كما لو أنّ Broly قام بعجْنِها مثلما فعل بكبسولة سفينة والدِه Paragus الفضائية، لّما سحقهُ بداخلها في فيلم الآنمي ...Broly: The Legendary Super Saiyan

وتلك ما كان مُحمّد يتباهى بسياقتها في شوارع البلدة سياقةً طائشة، رغم أنها ليست مُلكه؛ فهو ليس أكثر من مُجرّد سائق عند أحد مُلاّك سيارات تهريب البنزين الذي يُشغّلون شرذمةً من شباب بلدة بكّارية البطّالين مُقابل أجرةٍ زهيدة، ورغم ذلك فشخصٌ عديم القيمة وبلا شخصيّة مثل محمّدٍ هذا، فقد كان يتباهى بسياقة المرسيدس المُهترئة والمُلطّخة من الخارج بالزّيوت والشّحوم، كما هي حال ملابسه القذرة التي نادرًا ما يُبدّلها.

كانت من بين عشيقاته الرّخيصات شيماء، وهي زميلة وِسام في مركز التّكوين المِهني حيث تعمل، وقد تمكّنت من خِداع زميلتها وتذرّعت لها في أحد الأيام باستعمال جوّالها كي تتصل بوالدتها،

ولكنها ولَجتْ إلى ماسنجر الذي لم تَغلقه وِسام بواسطة كلمة السرّ، ظنّا منها أن شيماء ستستعمل الهاتف لغرض مُكالمة لن تتعدّى مُدّتها بِضعة ثواني. وفي لمحِ البصر استطاعت شيماء الوصول إلى بعض صور وِسام التي كانت فيها متبرّجة، صورًا التقطتها في المنزل أو داخل غرفتها، صورٌ لم تلتقطهم إلاّ لنفسها كي تمسحهم لاحقًا. وقد سبق ولمحتهم شيماء في جوال وِسام من قبل عندما كانت وِسام تُريها صور ابن خالتها الرّضيع الذي وُلد حديثًا وقتها.

استطاعت شيماء الخبيثة إرسال ستّة صورٍ إلى حِسابها ثمّ وبسرعةٍ حذفت الرّسائل من بريد وِسام حتى لا تتفطّن لها!

لاحقًا قامت شيماء بإرسال تلك الصّور السّتة من عندها إلى حِساب مُحمّد، وقد خاب ظنّ هذا الأخير لأنّه كان يتوقّع أن تُرسل له صورًا خليعة، فقد غاب عنه أنّ وِسام تنحدرُ من عائلةٍ مُتحفّظة ومُتديّنة لا تسمح لهم أخلاقهم بالتقاط صور مكشوفة حتى بينهم وبين أنفسهم، اِعتقدَ أنّ كل البنات على شاكلة شيماء.

ومع ذلك استطاع أن يستفزّ وِسام ويبتزّها بواسطة تلك الصّور، فبالنّسبة إلى شخصٍ كوِسام تُعتبر كارثة لو أنّ أحد أفراد

أهلها رأى صورها تلك عند شخصٍ غريب، خاصّة إن كان ذاك الغريب شخصٌ ساقط مُنحطٌّ كمُحمّد الذي لا يليق به أن يُسمّى على إسم أطهر وأنقى وأسمى خَلق الله؛

مرّت أسابيعٌ تمكّن فيها مُحمّد وشيماء من ابتزاز مبالغ مالية من وِسام التي باتت طَيّعة كالعجينة بين أيديهما، وذلك حتّى لا ينشُرا صُورها على موقع فيسبوك أو يُرسلاها إلى أخوالِها المُتشدّدين كما كانا يُهدّدانها، فهي تعلم أنّه لو حدث ذلك لأقام عليها أخوالُها الحدّ!

ولكن عندما التقت وِسام بالدُّمية المُستنسَخة التي تشبهها في ذلك اليوم، أرادت أن تختبرها لترى إلى أيّ حدّ قد تكون مفيدة. فقد خطر لها أن تراسل شيماء، وتخبرها أنّها لم تعُد تستطيع توفير مزيدًا من المال لمُحمّد، وأنّها موافِقة على كلّ ما يطلبه منها. وفورًا اتّصلت شيماء بمُحمّد وأخبرته في حماس بأنّ وِسام قد أذعنت أخيرًا وصارت مُستعدّةً لتسليم نفسها له.

فرحَ محمّد كثيرًا بذاك الخبر، وطلب من صديقته أن تأتي بوِسام إليه في مكانٍ حدّدهُ لها. غير أن وِسام اشترطت أن تذهب

إليه بمُفردها دون مرافَقة شيماء لها، فوافق هذا الأخير على شرطها، وراح يُمنّي نفسه بالحصول على أكثر فتاةٍ رغِب بها.

وذاك ما كان، فبعد أن لقّنتْ وِسام شبيهتها ما يجب أن تفعله بالحرف الواحد، ثمّ سارعت بإخراجها من المركز قبل أن يعود زُملائها وزميلاتها من استراحة الغداء. فخرجت الدُّمية المُستنسَخة من الباب فرآها البوّاب الذي لم يلحَظ فارقًا بين الاثنتيْن، فحيّاها بسذاجة على أنّها وِسام، أمّا وِسام فقد انتظرت بضع دقائق إلى أن رأته منشغلاً بفتح الباب الكبير ليخرُج منه أحد الموظّفين بسيارته، فتسلّلتْ من الباب الرّئيسي وغادرت دون أن يراها أحد.

راحت تَتبّع شبيهتها خِفيةً حريصةً على ترك مسافة بينهما، إلى أن رأتها وهي تلتقي بمُحمّد الذي كان ينتظرها بجِوار أحد البيوت المهجورة في حيٍّ تمّ انشاءه حديثًا، ولم يكن قد تمّ تدشينه بعد. وهناك أدخلَ مُحمّد شبيهة وِسام إلى بيتٍ فارغ كان قد حصل على مِفتاحه من صديقه الذي كان يأتي معه إلى هناك مِرارًا كي يسْكرا ويُدخّنا الزّطلة معًا أو رُفقة فتيات ليْل أو طالبات جامعيات كانا يأتيان بهنّ من وسط مدينة تبسة.

لم يلاحظ مُحمّد أيّ فارقٍ بين الدُّمية المُستنسخَة ووِسام لشدّة تطابُق ملامحهما بشكلٍ سيصعُبُ حتى على والدتها التّفريق بينهما لو رأتهما تقفان معًا.

ومُباشرةً قامت الشّبيهة بمُداعبة مُحمّد الذي كان في قمّة هيجانه الجنسيّ مُسبقًا، لم يعُد يبدو كإنسانٍ وهو في حالته الشّهوانية تلك، وإنّما صار وكأنه حمارٌ وحشيّ أو جاموس برّي يستعدّ للتزاوج مع قرينته وسط الدّغل.

وما إن أنزلَ بنطال الجينز المُلطّخ ببُقع البنزين وشحوم السّيارات، وقبل أن ينزع سِرواله الداخلي انحنت الدُّمية المُستنسَخة على الأرض والتقطت زجاجة جعّة فارغة كانت مرميّةً هناك، وبسرعة البرق حطّمت نصفها السّفلي على البلاط وأبقت قبضتها مشدودةً على عُنق الزُّجاجة المكسور، وبكلّ قوّتها وجّهت إليه بها عدّة طعنات إلى بطنه وجنبه، ثم وقبل أن يقْدِم على أيّ ردّة فعل قامت بالإجهاز عليه بجَزّ عُنقه بطرف الزّجاجة الحادّ وهو ما يزال واقفًا مشدوهًا مصدومًا مصعوقًا ممّا وقع له في غضون ثوانٍ. كانت وِسام تُراقب كلّ ذلك من وراء زُجاج نافذة تلك الغرفة، فانتشت فرحًا لمّا نجحت أخيرًا في التخلّص من ذلك

الصّعلوك، سقط مُحمّد على الأرض جثّةً هامدة غارقًا في دمائه، بينما أخذت الدُّمية المُستنسَخة جوّاله وخرجت من هناك بعد بضعة دقائق.

في نفس أُمسية اليوم الموالي طرقَ ساعي البريد باب منزل شيماء، فتحت له الباب فاستغربت عندما سلّمها طردًا مُغلّفًا، عادت إلى الدّاخل وجلست على حافّة كرسيّ وقد تملّكها التوتّر، وما إن فتحت الطّرد حتّى صعَقها المنظر الدّموي الذي بداخل العُلبة، لقد كان عضو مُحمّد الذّكري مقطوعًا وملفوفًا في منديلٍ زهريّ كانت قد أهدته إيّاه قبل بِضعة أشهر بمناسبة عيد الحُب! وقد تعرّفت على شكل العضو الذّكري فورًا، كيف لا وقد سبق لها وأن داعبته ومَصّته واعتَلتهُ من قبل عشرات المرّات عندما كان ما يزال بين ساقيْ صاحِبه؛

لم تمرّ نصفُ ساعة حتى حوصِر منزلها بأعوان الدّرك الوطني...

فقد وصلت إلى المخفر أنباء تُثبت اشتباه شيماء في قتل مُحمّد، وقد تأكّدوا من ذلك لمّا أتتهم أدلّة تؤكّد وجودها في موقع الجريمة ساعتها، فأعوان الشّرطة العِلمية تمكّنوا من العثور على

بصَماتها وخصلاتٍ من شعرها في المكان، فثبُتتْ إدانتها وتمّت محاكمتُها لاحقًا، واودعت السّجن لفترةٍ طويلة بتُهمة القتل العمدي مع الإصرار والترصّد.

كان ذلك انتقام الرّبة سِخمتْ التي لم ترضَ كعادتها باستخدام قِوى عبدتها وخادمتُها السّاحرة "توفا" الخارقة بشكلٍ سيّء، لذلك استعملت قِواها الخارقة عن طريق قرينتها التي تلبّست جسد الدّمية المستنسخَة للإطاحة بغريميْ وِسام وأنقذتها منهما، فيما جعلتهما يَلقيان المصير الذي يستحقّانه.

* * *

بعد نحو أسبوعيْن من وقوع تلك الجريمة كان ماهر زميل وِسام الذي يشتغل في المكتب المُجاور لمكتبها قد راودته فكرة تزوير النّقود لبدءِ مشروعٍ يتطلّب مبلغًا كبيرًا من المال. فاقترح عليه مُنجي أحد حرّاس المركز اللّيْليين أن يستعمل آلة الطّباعة الموجودة في المكتب الذي بجانب مكتبه، وذلك لكونها آلةٌ قديمة نادرًا ما يستعملها الموظّفون لنَسخ الأوراق، فرحّب ماهر بالفكرة. وليتسنّى لهما فعل ذلك بكل حُريّة وأمان، بدآ بالعمل ليلاً حيث لن يكون هناك أحد ليراهما.

إلاّ أنّ الذي كان يَخفى على ماهر ومُنجي هو أنّ الآلة الطّابعة كانت جِدّ ذكيّة ولها تِقنيات نَسخ متطوّرة تُمكّنها من تصوير المُجسّمات بطريقة ثُلاثية الأبعاد، فتستنسخها لتخرُج صورةً طبق الأصل بواسطة مادّة هُلامية جيلاتينيّة تخرُج من الصّندوق السرّي الموجود في الجانب الخلفيّ منها، وذلك عن طريق أنبوبٍ موصول بها. فالآلة كانت قبل قُرابة سنة بحوْزة عِصابة كبيرة تمتهِن السّرقة والتّزوير تنشُط في مِصر، وعن طريق خطأ في إحدى عمليات شحن الآثار المسروقة انتقلت الآلة من بلدٍ لآخر بين تُجار الأغراض المُستعملة والخردوات، حتى وصلت إلى أحد الأسواق الأسبوعيّة بمدينة تبسة في الجزائر، فاشتراها مُدير مركز التّكوين المِهني التّابع لبلدية بكّارية من تاجرٍ تجزئة يبيع ويشتري الأغراض المُستعملة، فأتى بها المُدير لتكون بديلاً لآلة طبعٍ قديمة كانت قد تعطّلت مؤخّرًا. لكن الذي كان يجهلُه المُدير كغيره ممّن اشتروا وباعوا واستعملوا آلة الطّبع تلك عشرات المرّات من قبل هو أنّها ليست آلة طبعٍ عادية، فالذي ابتكرها كان مُخترعٌ مغربيّ مُغترب قام بتصميمها بطلبٍ من أحد لصوص الآثار الإنكليز الأثرياء، الذي كان يستخدمها في نَسخ تماثيل فِرعونيّة مُزيّفة ليبيعها في

السُّوق السّوداء التي تسيطر عليها عِصابات أوروبيّة وأمريكيّة مُتمرّسة في سرقة الآثار المِصرية؛ فصَمّمها له على هيئة آلة طبع تبدو لمن يراها أنّها كأيّ آلةِ طبعٍ عادية.

أمّا الذي كان يجهله مالكُها الأصليّ.. لصٌّ وتاجر الآثار الإنكليزي. هو أنّ الآلة لمّا تركها لفترةٍ من الوقت مخفيةً في قبو منزلٍ قديم مبنيٌّ فوق مقبرةٍ فرعونيّة مُكتشَفةٌ حديثًا، حدث وتسلّلت إلى داخلها روح قرينة إحدى السّاحرات اللّاتي عِشن في زمن الملك توت عنخ آمون قبل آلاف السّنين. وقد كانت السّاحرة توقا شهيرةً آنذاك بتعاويذها التي تُسلّطها على ضحاياها فتُمكّنها منهم، وبواسطة طلاسمها المُعقّدة التي مكّنتها من العثور على كنوزٍ تعود لحضارات ما قبل الطّوفان، ساعدها ذلك على الإرتقاء في سُلّم طبقات المجتمع المِصري القديم، فقرّبتها مهارتُها في ممُارسة الشّعوذة من العائلة الحاكِمة حينذاك مثلما قرّبَ خُبثُ ودَهاء غريغوري راسپوتين من عائلة رومانوف بروسيا القيصريّة، فصار صديقًا مُقرّبًا من القيْصر نيقولا وعشيقًا لزوجته ألكساندرا؛

وبذلك جعلتها إحدى زوجات توت وصيفتها المُقرّبة عندما رأت قُدُراتها السِّحرية الخارقة، فاستخدمتها هذه الأخيرة للوصول إلى مآربها الشّريرة وتحقيق أحلامها الشّيطانيّة. وأيضًا استخدمتها للتخلُّص من أعدائها ومُنافسيها على العرش المَلَكي، خاصّة عشيقاتُ زوجها وسَرِياته السِّرّيات...

وقد تمكّنت السّاحرة توفا من بلوغ تلك المكانة التي لم تبلُغها أيُّ ساحرةٍ أو ساحرٍ في عصرها بفضل عِبادتها للإلهة سِخمت ربّةُ الحرب والأوبئة والدّمار.

فلمّا تسلّلت روح قرينة السّاحرة توفا إلى داخل آلة الطّباعة، صار في إمكانها بفضل ذلك الإختراع الذي يضاهي الإختراعات التي توصّل إليها المِصريون القدامى، صار بإمكانها التجسّد على هيئة كلّ شخصٍ قد يقف أمام آلة الطّباعة إذا ما شغّل أحدهُم زِرّ النّسخ ثُلاثيّ الأبعاد!

فبينما كان ماهر يقوم بنسخ أوراق من فئة ال2000 دينار نقرَ على زِرّ النّسخ لثلاث مرّات لتأكيد عمله، كان يجهل كيفية تشغيل أو نسخ الصّور على آلة الطّبع التي لم يسبق له أن استخدمها من قبل، فبينما كان هو وشريكه يبحثان عن زرّ التّشغيل عثر مُنجي

على الزرّ السُّفلي الخاص بالنّسخ ثُلاثيّ الأبعاد، فأشار عليه بأن يضغط على ذاك الزّر ففعلَ ماهر ذلك دون تردُّدٍ أو تفكير. وفورًا اشتغلت الآلة فانطلق منها الضّوءُ أخضرًا وامضًا في أرجاء الحُجرة فأضاءها بالكامل لثواني، فخاف ماهر ومُنجي أن يرى الجيران السّاكنين في العمارة المُقابِلة لمركز التّكوين الضّوء، فيبلّغوا عنهما و يُضبَطان وهما يطبعان نقودًا مُزوّرة. وقف ماهر كالأبله مشدوهًا ينظر إلى الضّوء اللّيْزريّ وهو يمسح جسده طولاً وعرضًا، فيما كان شريكه يُطلّ برأسه من وراء كتف ماهر.

لم تمرّ دقيقتان حتى رأيا مادّةً لزجة ورديّة اللّون تخرج من أنبوب يتدلّى في خلفية الآلة، فانفصل السّائل إلى ثلاث جُزيئات وكلٌّ منها راح يتشكّل على هيئة ماهر بنفس الملامح وعلى كلّ منهم نفسُ الملابس التي كان يرتديها لحظتها.

تراجع الشّابان إلى الوراء ووقفا بجانب مدخل الحُجرة استعدادًا للهرب عندما رأيا ثلاثة أشخاصٍ يُشبهون ماهر يقفون بجانب آلة الطّبع وهم يحدّقون في ماهر ومُنجي بنظراتٍ خالية من أيّ تعبير...

بعد نحو ساعةٍ من ذلك ولمّا فهم ماهر ومُنجي سرّ تلك الآلة العجيبة، وعرفا أنّ الأشباه الثّلاثة مبرمَجين تلقائيًا ومُستعدّين لتلقّي الأوامر وتنفيذ كلّ ما يَطلُب منهم ناسخهم بحذافيره، قام ماهر ومُنجي على الفور بمساعدة الأشباه الثّلاثة بنَسخ وربط وحزْم أكبر عددٍ مُمكن من الأوراق النّقدية قبل طلوع النّهار. وبعد أن انتهيا من تنفيذ مَهمّتهما لتلك اللّيلة غادرا المبنى ومعهما الأشباه المُستنسَخين الثّلاثة الذين أطلق عليهم ماهر أسماء M-1، M-2، M-3، حتى يُميّز بينهم. وقد أبقاهم تلك اللّيلة في بيت مُنجي الذي كان يسكن بمفرده، فيما أخذ هو حقيبتا النّقود المزوّرة إلى إحدى الحقول وخبّأهما بعنايةٍ في كوخٍ مهجور هناك.

في منتصف ليلة اليوم التّالي عاد الإثنان إلى المركز ومعهم الأشباه المُستنسَخين الثّلاثة وأعادوا العملية مرّةً أخرى، فنسخوا آلاف الأوراق النّقدية من فئتيْ الألف والألفيْ دينار. وبدافعٍ من الجَشع والأنانية، فكّر ماهر في الإستحواذ على تلك الغنيمة المُتمثّلة في المال وآلة الطّباعة لنفسه، دون مشاركة شريكه إيّاها، فطلب من أشباهه الذين يأتمِرون بأمره أن يتخلّصوا من مُنجي حتى يضمُن أن لا ينطق بشيءٍ أمام شخص آخر، أو يُطالب

بنصف تلك الملايين التي زوّراها معًا. وذاك ما حدث، فقد نفذّ كلٌّ من M-1 وM-2 وM-3 الأمر وقاموا بقتل مُنجي خنقًا ثمّ نقلوا جثته خارج المكتب ودفنوها في فناء المركز بين شُجيْرات وورود الزّينة بواسطة أدوات البَستنة الموجودة هناك، ثم قاموا بإعادة التُّربة كما كانت حتى لا يُكتشَف الأمر.

بعد ذلك جمع ماهر المال المُزوّر في أربعة حقائب كبيرة ساعده على حملها أشباههُ الثّلاثة ونقلوها معًا إلى ذاك الكوخ الواقع في الحقول قبل أن تبزُغ الشمس.

في اليوم الموالي طلب ماهر من أحد حُرّاس الفترة الصّباحية بأن ينوب في الحِراسة إلى أن يعود الحارس مُنجي الذي اختفى بشكلٍ مفاجئ، فوافق هذا الأخير بعد أن وعَده ماهر بأنّه سوف يتحدّث مع مُدير مركز التّكوين لأجله كي يمنحه ترقية في الأيام القادمة كون المدير صِهره، إذ أنّ المُدير متزوّجٌ من أخت ماهر.

وهنا استغل ماهر الفرصة وظلّ لأسبوعيْن مُتتاليْن يقوم بتزوير النّقود وتكديسها حتى وصل مُجملها إلى ما يزيد عن 4 ملايير سنتيم.

بعد شهرين من ذلك بدأ يُجهّز جواز سفره وكل ما يحتاجه من وثائق وأغراض ليسافر خارج البلاد، وذاك لأن أعوان الدّرك والمُحقّقين في حادثة اختفاء الحارس اللّيلي بدأوا يشكّون بوقوع جريمة قتل لمّا يئسوا من العثور على الحارس المختفي منذ أيام، فخاف إن لم يضبطوه وهو يزوّر النّقود فيوجّهوا له تُهمة قتل الحارس مُنجي إذا ما حدث وتمّ العثور على جُثّته المدفونة في الفناء. خاصّة وأنّه لم يكن يثق مئة بالمئة في إخلاص أشباهه الهُلاميين، فخاف أن يشي به أحدهم إذا ما تمّ إيقافهم واستجوابهم، فهم في الأخير مُجرّد نُسخٍ مُبرمَجة وليست بذكاء البشر. ولكنه كان حريصًا على عدم ظهورهم للعيان، فقد كان يحبسهم في منزل مُغَلّقة أبوابه، وهو المنزل الذي كان قد اشتراه مؤخّرًا كي يُخبّئ فيه نقوده المُزوّرة، وأيضًا أثمن ما يمتلك.. آلة الطّباعة التي قام بنقلها من مركز التّكوين إلى ذاك المنزل في أحد أيام الجُمعة أثناء آداء جميع الحُرّاس لصلاة الجُمُعة، وقد وضع مكانها آلة طبعٍ أخرى من نفس الطّراز حتّى لا يلاحظ أحدٌ أنّه قد تمّ استبدالها.

ولكن الرّياح نادرًا ما تأتي بما تشتهيه السُّفن، فبعد أن صرّف ماهر خلال ثمانية أشهر مئات الملايين من تلك النّقود المُزوّرة وحوّلها إلى عُملتيْ الدّينار التونسي واليورو - مستغلاً بذلك المنطقة الحدوديّة الرّابطة بين الجزائر وتونس، حيث كان يسكن- تم التّبليغ عن استلام مبلغٍ كبيرٍ من العُملة الجزائرية المُزوّرة، وأصابع الإتهام وُجّهت إلى ماهر لمّا وشى به عند أعوان الدّرك بعض المُخبرين الذين تعامَل معهم مرّة في إحدى عمليات تبادل العُملات، وذلك لمّا اشترى مبلغًا كبيرًا من عُملة الدّينار التّونسي، ولم يكن على درايةٍ بأنّه كان تحت المُراقبة سرًّا من قِبل شُرطييْن مدنييْن منذ مُدّة. فاضطُر إلى الفرار خارج ولاية تبسة مع أمواله، وذلك على متن سيارة Audiبيضاء فارهة من طراز Q5كان قد اشتراها مؤخَّرًا. وقد تخلّص قبل ذلك من M-1وM-3لمّا طلب منهما أن يُلقيا بنفسيهما في بِركة ماءٍ كبيرة بأحد الحقول المهجورة البعيدة، فما إن ألقيا بنفسيْهما داخل الحوض حتى اختلطت مُكوّناتهما بالمياه الضّحلة المُتّسخة فتحلّلا فيها واختلطا بها وكأنّهما لم يكونا شيئًا. أما M-2فقد جعله ماهر يرتدي أسمالاً بالية وأمَره بأن يخرُج ليتجوّل في شوارع بلدة بكّارية حتى يعتقد من يراه أنّه هو

وقد فقدَ عقله، وبذلك يتخلّص من عيون أعوان الدّرك والشّرطة الذين كانوا ينتظرون الأمرَ بالقبض عليه.

كانت خُطّة ماهر تقتضي خروجه من ولاية تبسة فيمُرَّب بولاية خنشلة ومنها إلى ولاية بسكرة حيث سيتوارى عن الأنظار هناك لبعض الوقت في منزلٍ استأجرتهُ له عشيقته وحيدة مُسبقًا، والتي كانت تقطُن بِبلدة أولاد جْلال، فيمكثَ فيها لبعض الوقت إلى أن تقلّ عمليات البحث عنه فيهرُبا معًا خارج البلاد، فهي بدورها كانت قد ضاقت ذرعًا من الحياة مع زوجها البليد بارد المشاعر، وتتوق للعيش في أحضان ماهر الذي أحَبّته كما لم تُحِبّ رجلاً من قبل، رغم أنّه يصغَرها سنًّا بستِّ سنوات.

كان ماهر يُدخّن سيجارة زَطلة ويستمتعُ بالاستماع إلى أُغنية La Vie est belleللمُغنّي المغربي Nassiعندما وصل إلى حُدود بلدة الشّريْعة، وبينما هو كذلك توقّفت مكابِح السّيارة عن العمل فجأةً ولم يعُد في وسعِه خَفضُ سُرعتها التي كانت قد تجاوزت الـ140 كم/سا وهو على مشارف أحد مُنعرَجات فَجّ ((الثعفاع)) الخطِرة!

كانت هناك مَركبتان قادمتان في الاتّجاه المُعاكس، سيارة Symbolالحديثة وشاحنة صغيرة من نوع ,DFSKوقد تجاوزَ

سائقُ السّيارة في تلك اللّحظة الشّاحنة المُحمّلةُ بالبطّيخ، مُتجاهلاً المُنعرَج الضّيق الذي كان يفصِل بينهما وبين الجانب الآخر من المُنعرَج جبلٌ تكسوه أشجار الصّنوْبر، والذي يحجُب رؤية ما هو قادمٌ من الإتّجاه المُعاكس. وقد كان ماهر في نفس الوقت يُحاول يائسًا السّيطرةَ على عجلة القيادة بعد أن فقدَ الأمل في التّقليل من السّرعة، ولمّا رأى أنّ سيارة الـ Symbolالتي كان يقودها كهلٌ مُغترٌّ بمهارته في السّياقة قادمةً نحوه مُباشرةً، ارتأى أن يصطدِم بها عسى أن يُساعد ذلك في إيقاف سيارته – على حِساب تلك الخُردة غير مكترثًا لطفليْه وزوجته اللّذين كانوا راكبين معه، ثمّ إنّه كان يمقتُ رؤية تلك السّيارة بالذّات لمّا تسيرُ على الطّرقات السّريعة، فهي تُعيق حركة السّيْر وغالبًا هي المُتسبّب في كثيرٍ من حوادث المُرور– أو على الأقل التّقليل من سُرعتِها فيتمكّن من القفز منها وينجو بحياته ولو بجروحٍ وكسورٍ خطيرة، مُعتمدًا في ذلك على مَتانة مِصدّ سيّارته القويّة.

لكنّه وعلى غير المُتوقَّع ما إن اصطدم بالسّيارة الأخرى حتى طارت في الهواء كما لو أنّ الذي صدمها قطارٌ وليس سيارة Audi؛ فعَلَتْ أصواتُ صِياح ونُواح الطّفلان وأمّهما على صوت هورن

السّيارة الذي انطلقَ تلقائيًّا وبشكلٍ متواصل لمّا انضغط بجسد الزّوج الذي مات من فوره. كانت عروق ماهر قد جفّتْ من الدّم عندما رأى سيارة الـ symbolوهي تسبقُه إلى الجُرف مخترقةً الحاجز الأمني المعدنيّ، لتلحقَ بها سيارته التي لم تخِفّ سُرعتها حتّى، فهوَتْ به إلى أسفلِ الجُرف العميق الذي لم يكُن يعلمُ بوجوده، فانتهى به الحال مسحوقًا داخل ما تبقّى من حُطام سيارته بعد أن تدحرجت فوق صخور الجُرف النّاتئة واستقرّت في عُمقِ وادٍ سحيق.

أمّا السيّارة الأخرى فقد عُثر عليها على بُعد مسافة مُنشطرةً إلى نصفيْن بدا كلّ نصفٍ منهما كنصفِ عُلبة سردينٍ داس عليها ماموث.

وقد كان ذلك انتقام الرّبة سِخمت التي لم يُرضها أن يستغلّ أحدهم قِوى عبدتها المُخلصة في أعمالٍ شرّيرة، فكما انتقمت في السّابق من عدّة أشخاصٍ عاشوا في أزمنة مختلفة وعاثوا فسادًا مُستعمِلين قوى السّاحرة توفا الخارقة. ومن بينهم زوجة المِلك توت عنخ آمون، لمّا قامت هذه الأخيرة بقتلِ عددًا من أطفاله من

زوجاتـه وعشـيقاته الأُخريـات، حتى لا يتسـنّى لغير أبنائهـا بـاعتلاء كرسي الحُكم من بعده...

قبل أن يُرسِل ماهر شبيهه M-2 للتّجوّل في البلدة على هيئة المجنون، قام هذا الأخير – بأمرٍ من قرينة السّاحرة توڤا التي كانت تسكُنه- بالعبث بكابلات فرامل السّيارة!

فقد تلبّستْ القرينة جسدَ المُستنسَخ M-2 كما تلبّست من قبل الكثير من أجساد الأشباه والشّبيهات، وحتى أجساد أشخاص حقيقيين في الماضي، فصارت هي المُتحكِّم الفعليّ في تصرُّفاتهم وأفعالهم. كما أنّه لم يكن ماهر أو وِسام أو غيرهما ممّن سبق ووقعت أيديهم على تلك القِوى السّحرية العجيبة ملهم القُدرة على توجيه أشبابهم المُستنسَخة، بل إنّها الرّبة سِخمتْ!

صائد الثعابين

لم يكن يُسمع في حقل اللّوز غير صوت لُهاث العجوز لويزة وابنتها هدى اللّتان كانتا تركضان على غير هدًى بين أشجار اللّوز تحت جُنح الظّلام، لو كان أحدٌ هناك في تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل وسمع لُهاثهما النّاتج عن الرّكض لأكثر من ميليْن، لحسِبه لُهاث كلبان. لم تكن العجوز لويزة وابنتها وحدهما في ذاك المكان مع ذلك، فعلى مسافةٍ لا تزيد عن ثلاثمائة متر كان يركض خلفهما حصانُ أسود يمتطيه فارسٌ ملثّم يرتدي قشّابيةً سوداء، في غضون دقيقتيْن لحق بالمرأتيْن وما إن وصل إلى العجوز وصار الحصان بجانبها ركلها الفارس بقدمه اليسرى بقوّةٍ وهو على صهوة حصانه فأوقعها أرضًا وارتطم وجهها بالتّراب المليء بالحصى، أدمى فمها وأنفها وسقط طقم أسنانها الإصطناعي وانشطر إلى نصفيْن. أمّا هدى التي كانت أسرع من والدتها فقد كانت ماتزال تركض على مسافة غير بعيدة، إلا أنّ التّعب تمكّن منها.

لكَز الفارس خصر حصانه بمؤخّر جزمته ليحُثّه على الرّكض بسرعة فلحق بها في بضعة ثواني وأراحها من الرّكض، فما إن وصل إليها الحصان وبأمرٍ من صاحبه داس عليها بقائمتيْه

الأماميتيْن فأوقعها على الأرض، صرخت صرخةً وصل صداها إلى أبعد نقطة من حقل اللّوز مُترامي الأطراف، وبينما هي ماتزال على الأرض أجهز عليها الحصان لمّا راح يرفُس رأسها بحوافره فتهشّمت جُمجمتها تحت رفساته القويّة فماتت على الفور.

نزل الفارس من على ظهر حصانه وفي يده حبلٌ طويل، سحبَ البنت الميتة من شعرها المنكوش وألقى بها حيث كانت أمّها تئنّ من الألم وهي تتوسّله كي يُبقي على حياتها، فأخرسها بركلةٍ بقدمه على وجهها، قام بتقييد يديْها إلى يديْ جُثّة ابنتها ثم ربط الحبل إلى سَرجه وامتطى حصانه مرة أخرى وانطلق به من حيث جاء. بعد نحو نصف ساعة من الرّكض به كانت العجوز لويزة جثّةٌ هامدة هي الأخرى، فقد لفظت آخر أنفاسها وهي تُسحَل لمسافة طويلة على طريقٍ تُرابي وعْر، وقد صارت الجثّتان قطعتان من اللّحم تنزفان من كل مكان يكسوهما ما تبقّى من أسمال ملابس مُمزّقة ومتّسخة تكشف أكثر ممّا تستُر. نزل الفارس من على ظهر الحصان وحلّ عقدة الحبل المربوطة به الجثّتان ثمّ سحبهما بضعة أمتار حتى وصل إلى حافّة وادٍ عميق، في الأسفل كانت تُسمع حركة وزمجرة صادرة من أفواه عشرات الكلاب المتجمّعة هناك.

وقد كانت كلابٌ برّية يُربّيها الفارس الملثّم ويُبقيها في أسفل ذاك الوادي المسيَّج بسياجٍ عالٍ يحيط بالوادي من كلّ جانب، فيمنعها من الخروج منه.

كان يرمي لها طعامها من على حافّة الوادي والمتمثّل في فرائس النّعاج والكِباش والأرانب، ومن حينٍ لحين كان يقدّم لها فريسةً بشريةً، وأحيانًا تكون الفريسةُ ما تزال حيّةً.

فما إن ألقى الفارسُ الملثّم بجثّة العجوز حتى قفزت إليها الكلاب الجائعة وانقضّت عليها لتفترسها قبل حتى أن تستقرّ في قاع الوادي، ثم ألقى بجثّة البنت فانقضّت عليها بقيّة الكلاب التي لم تحظَ بحصّتها من جثّة العجوز التي أحاط بها أكثر من عشرين كلب، أخذ الفارس الملثّم يتفرّج على مجموعتيْ كلابه وهي تمزّق بأنيابها الحادّة الجثّتان، مستعينًا بمصباحٍ يدويّ لشدّة الظّلام في الأسفل.

غير أنّه لم يكن راضيًا عمّا أنجزه في تلك اللّيلة، لأنّ توفيق زوج لويزة نجح في الإفلات من قبضته بمساعدة خادمه نزار فهربا معًا ناحية الجبل القريب من بيتهم ولم يستطع الحصان تسلّق صخوره الزّلقة.

كان هذا عبد المنتقم قاتل السَّحرة، رجلٌ في العقد الثّالث من عمره كرّس حياته لتنقية بلدتِه من السَّحرة والمُشعوذين الذين عاثوا في البلاد فسادًا، وتعِب من أذِيّتهم سكان بلدة الدْهاهنة الواقعة في ولاية المسيلة.

ففي النّهار كان يعمل في مزرعته بقرية القطاطشة على إدارة شؤون ماشيته التي كان يُربّيها فيها، فهو أحد أكبر مُربّي الماشية ومن بين أغنى فلاّحي المنطقة، أمّا في اللّيل فكان يركن شاحنته الـ404 ويغيّر ثيابه، فيستبدلها بملابس الصّيد وفوقها قشّابيته السّوداء، ثم يمتطي حصانه الأسود ويبدأ بممارسة لعبته المفضّلة المتمثّلة في اصطياد السّحرة والمشعوذين. فلقد أخذ عهدًا على نفسه بأن لن يُبقيَ على ساحرٍ واحد حيّ مادام هو حيًّا.

ويرجع السّبب في ذلك إلى عام 1968 عندما كان طفلاً صغيرًا لا يتعدّى عمره أربع سنوات، ففي تلك الحقبة بدأت تنزل المصائب عليه وعلى أفراد عائلته، بِدءً بوالده لَمين الذي هجرهم وهاجر إلى فرنسا ولم يعد مرّة أخرى، وذلك بعد أن بدّدَ كلّ ثروته على عائلة أخيه وزوجته، سعيد وخليدة اللّذان استغلاّه. وحين هاجر لم يترك لزوجته جميلة وأبنائها الثّلاثة إلاّ ثلاث محلاّتٍ فارغة وقطعة

أرض بور. وفي غضون بضعة أشهر أُصيبت جميلة بمرضٍ شديد، فهزُل جسدها ولم تعد تقوى على المشي، وشيئًا فشيئًا شُلّت حركتها بالكامل ولازمت الفراش لتبقى على تلك الحال لثلاث سنوات كاملة، وقد كانت ابنتها نجلاء – شقيقة عبد المنتقم الكبرى- هي من تعتني بأمّها وتسهر على إطعامها وتنظيفها وتبديل ملابسها. وإبّان ذلك تعرّض أخوه الصّغير حيْدر لحادث أودى بحياته، وذلك لمّا سقط في بئرٍ جافّة واقعة في مزرعة مهجورة قريبة من بيتهم. فقد ظلّ الطّفل الصّغير عالقًا في قعر البئر ليوميْن يبكي ويصرخ ولكن ما من أحد سمع صُراخه من داخل بئرٍ يزيد عُمقها عن 40 مترًا. وبعد معاناةٍ مع آلام الجِراح والكسور التي أُصيب بها في عدة أماكن من جسده مات في ظُلمة البئر الموحِشة وبرودته الشّديدة وهو جوعانٌ وعطشان. ليكتشف جثّته بعد أسبوع بعض سكان البلدة، وذلك لمّا شمّتْ الكلاب المشرّدة رائحة التعفّن فراحت تحوم حول البئر وتنبح بلا توقّف.

عندما سمع عبد المنتقم بالنّبأ المشؤوم مات جزءٌ منه بعد فقدانه لأخيه الذي كان متعلّقًا به أشدّ تعلُّق. وبعد بضعة أشهر توفّيت والدته هي الأخرى متأثّرة بمرضها الذي لم يعرف له الأطبّاء

أيّ دواء، فعندها فقط أحسّ الطّفل عبد المنتقم بالفقدان الحقيقي. فرغم كون والدته كانت شبه ميتة طيلة فترة مرضها إلاّ أنّ وجودها بالحياة كان يخفّف عنه ما كانوا يعانونه من فقر وحرمان واضطهاد من قبل عائلة عمّه سعيد، فقد كان هذا الأخير مُشرفًا على محلّات أخيه وأرضه بعد أن حلّ مكانه واستغلّ الأرض في غيابه، ثمّ وبعد أن استقلّت البلاد واستقرّت الأوضاع سياسيًّا أخذ قرضًا من البنك الفلاحي واستثمره في المحلّات التي صارت تُدرّ عليه مالاً وفيرًا. ولم يكن يُعطي لجميلة وأبنائها إلاّ قليلاً من المال في آخر كلّ شهر، بالكاد يوفّر لهم لقمة العيش.

فحتى عندما تقدّم رجلٌ ثريّ من أشراف البلدة لخطبة أخته نجلاء بعد سنتين من وفاة والدته، حاول عمّها وزوجته أن يَحولا دون إتمام ذاك الزّواج لكونهما وليّا أمرها، إلاّ أنّ خطيب نجلاء بواسطة نفوذه وماله استطاع أن يتزوّج نجلاء بعد أن أخذ موافقة أخوالها. غير أنّ فرحتها لم تدُم طويلاً، فلمّا حبلت وبدأت تُمنّي نفسها بأنّها سوف تصبح أُمًا أجهضت جنينها بعد شهرين فقط من حملها، وصارت تأتيها نوبات صرْع فجائيّة تتبعها إغماءات تستمر أحيانًا لأيام، قبل أن تفقد أعصابها في الأخير

وصارت تشكّل خطرًا على حياة زوجها لمّا باتت تُهدِّده بالقتل وهي في غير وعيها، لينتهي بها الأمر في الأخير في مَصحّة عقلية أخرجوها منها لاحقًا بطلب من زوجة عمّها خليدة التي أقنعت أطباء المصحّة بأنها ستعتني بها في بيتها.

لتصبح "نجلاء نجلاوي" كما صار يلقّبها الأولاد الصّغار في الحي، وذلك لمّا صارت تشبه المشرّدين في أسمالها المتسخة وشعرها الأشعث جرّاء تنقّلها في الشوارع والنوم في البراري، إلى أن عثر عُمّال النّظافة على جثّتها في إحدى اللّيالي الشّتوية الباردة متجمّدةً داخل حاوية نفايات.

اسودّتْ الدّنيا في عينيْ عبد المنتقم الذي صار يبلغ من العمر احدى عشر عامًا، ولم يعد يفهم أيّ معنًى لبقاءه على قيد الحياة بعد أن فقد أمّه وأخواه، أما عن أبيه فلم يكن يهتمُّ لأمره، فقد كان مثل أخته قبل أن تفقد عقلها، ساخطيْن عليه لأنّه وبسبب هجرانه لهم صاروا لقمةً سائغة لعمّهم وزوجته، وإبنيْهما الكبيريْن اللّذيْن لم يكونا أقل لؤمًا وشرًّا من والديْهما.

كان لعبد المنتقم عمّةٌ تعيش في ولاية المسيلة، وبفضل حِكمتها وحِنكتها عرفت سعيدة أن حياة ابن أخيها المتبقّى في خطر لذا

سارعت وسافرت إلى بلدة الشريْعة التي تبعد نحو 40 كم عن وسط مدينة تبسة، وأخذته من عند أخواله الذين كانوا يحتفظون به مؤقتًا. لتتبنّاه هي وزوجها الحاج محفوظ الذي كان عقيمًا لا ينجب أطفالاً – والذي بقيت معه ولم تتركه، رغم إلحاحه عليها بالتطلّق منه وإيجاد زوجًا غيره فتتمتّع معه بنعمة الأولاد، لكنّها رفضت ذلك وظلّت مخلصةً له لمّا رأت ما كان يغدق عليها به من حُب ومودّة واحترام-.

تغيّرت حياتها وحياة زوجها للأبد منذ اليوم الذي تبنّيا فيه عبد المنتقم، فصارت حياتهما كلّها تتمحور حول هذا الطّفل الملائكي خِلقةً وخُلُقًا. ولأنّ الحاج محفوظ زوج عمّته كان ذو ثراءٍ فاحش تمتّع عبد المنتقم بحياةٍ رغيدة بين أحضانهما، وتربّى معهما كما لو كانا والداه الحقيقيان.

أما عمّه وزوجته اللّئيميْن فقد خلا لهما الجوّ في بلدة الشريْعة بعد أن إختفى من أمامهم آخر أفراد عائلة لَمين، فاستوْلَيا على الأرض والمحلاّت والمنزل أيضًا، وعن طريق تزوير وثائق المُلكية بمساعدة رئيس البلدية الفاسد والمُرتشي، آلت أملاك لَمين إليهما. خاصةً بعد أن نسب الحاج محفوظ الطّفلُ عبد المنتقم إليه

ومنحه لقبه العائليّ، فلم يعد من حقّه ميراث والده الحقيقيّ قانونيًا. وكان ذلك اقتراح زوجته العمّة سعيدة حتى تحمي ابن أخيها من عمّه وزوجته كي لا يقتلانه كما فعلا مع بقية أفراد عائلته فلا يبقى منهم من يطالب بإرث لَمين. وقد علِمت بهذا من خديجة مُربّية طفليْ خليدة التّوأم اللّذيْن وُلدا حديثًا، فقد كانت هذه الأخيرة صديقة سعيدة المقرّبة في طفولتهما. وفي أحد الأيّام عندما التقت المرأتان في حفل زفاف أخبرتها بأنّها فيما مضى كانت تتجسّس من حين لآخر على سعيد وخليدة وتسترق السّمع عندما يختليان معًا في غرفة نومهما، كما أسرّت لها بأنّها تعتقد أن سعيد قام بقتل أخيه لَمين وأخفى جثّته في مكان ما، ثمّ أشاع بأنّ القتيل عندما رأى أنّ المُعمّرين بدأوا يرحلون من الجزائر لتخوّفهم من تحرُّرها من أيدي الفرنسيين قريبًا، فقرّر أن يهرب إلى فرنسا مع بقيّة الحركى الذين خافوا على أنفسهم من انتقام الثّوار لمّا ينزلوا من الجبال.

ولو أنّه لم تظهر يومًا على لَمين أيّ سِمة من سِمات خيانة الوطن، بل على العكس.. المُرجّح أن يكون السعيد جاسوسًا أو مُخبرًا سريًّا عند الفرنسيين.

لكنّ خديجة لم تكن متأكّدةً تمامًا ممّا سمعته حول قتل السعيد لأخيه لَمين، ولكن ما كانت متأكّدةً منه هو أنّ خليدة ألقت بتعاويذ سِحرية على كلّ أفراد العائلة وقد كانت تستعين في ذلك بمشعوذة يهوديّة مُعمّرة متمرّسةً في ممارسة السّحر الأسود، وتتعامل كذلك مع جِنّيٍّ من بلاد فارس ساعدها على تحقيق كلّ ما يصعب على مُشعوذي البلدة البُسطاء الوصول إليه من مآرب.

لاحقًا وبعد أن كبُر عبد المنتقم واشتدّ عودهُ أخبرته عمّته بكلّ ما كانت تعرفه حول قضية عائلته وعائلة عمّه، وذلك حتى لا يخفى عليه شيء وبالتّالي سيعرف كيف يسترجع حقّه منهم عندما يحين الوقت المناسب. ومن يومها عاهد عبد المنتقم نفسه بأن ينتقم من عمّه وزوجته السفّاحان اللّذان حرماه من والديْه وأخويْه الذين كان يفتقدهم رغم مرور سنوات على ذلك.

ظلّ عبد المنتقم يعيش في كنف الحاج محفوظ ويعاونه في شؤون مزرعته وتجارته المتمثّلة في تربية وبيع وشراء الماشية، إلى أن وافت هذا الأخير المَنية فصار عبد المنتقم هو الوريث الشّرعي الوحيد لهذا الرّجل الطّيب الذي لم يرزقه الله بالذّرية، إلاّ أنّه كسب حُب واحترام كلّ شباب بلدة الدهاهنة. فقد اعتبروه بمثابة

الأب العرّاب، لأنه كان كريمًا جدًّا مع سكانّها فلم يترك شخصًا محتاجًا أو فقيرًا إلاّ وساعده ماديًّا أو أوجدَ له عملاً في مزرعته الكبيرة.

كان عبد المنتقم قد بلغ السّادسة والعشرين من عمره عندما بدأ باصطياد السّحرة وقتلهم، إلاّ أنّه انتظر وصبر طويلاً إلى أن توفيَ الحاج محفوظ حتى يخلو له الجوّ في المزرعة ليجعل منها مقبرةً لكلّ ساحرٍ أو ساحرةٍ تقع عليهم يده فيفعل بهم ما يحلو له، ففي حياة الحاج محفوظ عندما كان عبد المنتقم يقتنص ساحرًا أو ساحرةً ما في البلدة يقوم بمُباغتتهم ويقتلهم بطعنة خنجر أو يسكب عليهم البنزين ويُضرم فيهم النّار ويهرب لينجو بجلده تاركًا ضحيّته غارقًا في دمائه أو يتخبّط وسط ألسنة اللّهب. أمّا بعد أن توفيَ الحاج محفوظ صار لديه فرصٌ أكبر ووقت أكثر ليقتنص أكبر عددٍ منهم، فبعد أن جعل بعض الرّجال الذين كان يثق بهم يتولّوا تجارته في غيابه، أخذ يراقب أوكار السّحرة لأيام وأسابيع دون كللٍ أو ملل، وما إن يجد الفرصة الأنسب ينتظر حلول اللّيل – شريكه ومساعده الوحيد في صيده – وينقضّ على فريسته في بيته أو بيت من استعان به من نساءٍ أو رجال، فيأخذهم معه على

حين غرّة بعد تقييدهم ووضعهم داخل أكياس من الخيْش، وبسرعة ومهارة خاطف محترف يجرّهم بواسطة حبل وهو على صهوة حصانه ليأخذهم إلى المزرعة، وهناك يقوم بتعذيبهم قبل أن يقتلهم ويدفنهم في قبور أعدّها لهم مسبقًا.

في إحدى المرّات وبينما كان عبد المنتقم يقوم بالقبض على مشعوذٍ عجوز يسكن في منزل حقير، باغته شقيق هذا الأخير من الخلف – والذي جاء لزيارة شقيقه دون سابق إنذار– فراح يخنقه بواسطة عُكّازه بعد أن غطّى له رأسه ووجهه بطُربوش قشّابيته التي لا يخرج في مهمّته بدونها، فلم يعد يقوى على الرؤية أو التحرّك بحُريّة. لم يكن الرجل الثّاني مشعوذًا ولكنّه لمّا رأى شقيقه يُعتدى عليه هجم على المُعتدي مباشرةً، فراح الأخ الأكبر سنًّا (المشعوذ) ينهال على عبد المنتقم ضربًا بواسطة هِراوة كان يُعلّقها خلف باب بيته من الدّاخل، مُستغلاً عجز غريمه عن الحركة بعد أن ثبّته الأخ الأصغر في وضعيةٍ يصعب معه حتى التنفّس بسهولة، فقد كان هذا الأخير يتمتّع بقوّة عضليّة رهيبة وضعت عبد المنتقم في موقفٍ لا يُحسَد عليه.

فصار الصّياد فريسةً كحالٍ صقرٍ يصارع ثُعبانيْين معًا، إلاّ إنّه وفي آخر لحظةٍ قبل أن يتمكّنا منه استطاع عبد المنتقم وهو مُنحي أن يُخرِج خنجرًا من داخل جزمته وغرزه بكلّ قوّته في قدم الأخ الأصغر، فأرخى خصمه قبضتيْه عليه وبسرعة خاطفة قام عبد المنتقم ووجّه طعنةً للأخ الأكبر تحت الحزام لتصيبه الطّعنة في أسفل خصيتيْه ليسقط أرضًا يتلوّى واضعًا يديه على مكان الإصابة ويصرخُ بأعلى صوته. استغلّ عبد المنتقم تلك الثّواني فنزع قشّابيته بخفّة ثمّ التفت إلى الأخ الأصغر الذي كان يستعدّ لمعاودة هجومه عليه وهو يعرج بقدمه المصابة، فعالجه عبد المنتقم بلكمتيْن قويّتيْن على مستوى الصّدر فأسقطه أرضًا مثلما أسقط محمد علي كلاي خصمه سوني ليستون بالضّربة القاضية!

لم يكن هناك حكَمٌ ليوقِف عبد المنتقم من مواصلة توجيه اللّكمات إلى خصمه، انحنى على ركبته وراح يلكمُه بكلّ ما أوتيَ من قوّةٍ على وجهه وصدره وبطنه، ثم قام وأمسك بقدمه المصابة وبكلّ ثقله ارتكز على ركبة نفس السّاق بقدمه فكسرها كما يكسر الجزّار سيقان ذبيحته. صاح الرجل من فظاعة الألم بصوتٍ عالٍ عَلا على صوت صياح أخيه الذي كان ما يزال يصيح من الألم هو

الآخر، تجاهل عبد المنتقم صياحهما وراح يجهّز حبليْن ليقيّدهما به ويجرّهما من هناك إلى الجبل، فهُما مهما صاحا ونادَيا فلن يُلبّي نداءهما أحدًا، لأنّ البيت الذي كان يقيم فيه ذاك المشعوذ يقع في هضبة تبعُد عن أقرب منطقة سَكنية بما لا يقلّ عن أربعة كيلومترات، كما أنّ الطّقس في تلك اللّيلة كان عاصفًا وصفير الرّيح يغلِب على أيّ صوتٍ آخر مهما عَلا.

قام عبد المنتقم بعد ذلك بجرّ الأخوين مسافةً لا تقلّ عن الخمس كيلومترات حتى وصل إلى جبال أولاد تبّان حيث تنتهي رحلة كلّ السّحرة الذين يقعون في قبضته، وهناك علّقهما من ساقيهما في غصن إحدى الأشجار الكثيرة التي تنمو على حافّة الجبل، وأتى بسوطٍ جلديّ صنعه خصّيصًا للمُشعوذين وأخذ يجلِدهما به إلى أن خارت قِواه، إلى درجة لم يعد يشعر أيٌّ منهما بالألم. حينها فقط قرّر أن يفكّ وثاقهما وألقى بهما إلى كلابه الجائعة التي كانت في الأسفل تنتظر طعامها على أحرّ من الجمر، كإنتظار الكلب سيربيروس ذو الرّؤوس الثّلاثة الذي يحرسُ بوّابة العالم السُّفلي دخول الموتى التّعساء المحكومُ عليهم بالعذاب الأبديّ.

ومنذ تلك اللّيلة تخلّى عبد المنتقم عن القشّابية التي باتت تُعيق حركته واستبدلها بمعطفٍ جلديّ طويل قام خيّاطٌ ماهر بتصميمه وخياطته له حسب الطّلب، فبدا فيه كأحد رجال الجهاز السرّي في شرطة إيڤان ڤاسيليڤيتش القيصر الرّوسي، الذين عُرفوا بالآپوريشنيك. خاصّة لمّا صار يضع قناع الطّير الجارح على وجهه ليُخفي ملامحه، وأيضًا لكي يُضفي على نفسه صِفة النّسر الذي يقتنص الأفاعي. ولكن إذا ما امتطى حصانه الأسود حاملاً في يده السّوط أو الشّاقور فسيبدو تمامًا مثل «الموت» وهو يمتطي حصانه الأخضر، أحد فرسان رؤيا يوحنا مُمتطين أحصنة الهلاك الأربعة المذكورين في الكتاب المقدّس.

في البداية كان يقوم بدفن السّحرة في مكانٍ سرّي بمزرعته بعد أن يعذّبهم ليُشبع نزوته وأيضا ليستخلِص منهم أيّ معلوماتٍ قد تفيد في إنقاذ ضحاياهم، كإسم الشّخص المسحور أو مخبأ التّعويذة التي ألقوها عليه عساه يتمكّن من إبطالها فيُجنِّب أولئك المساكين أذى السّحر قبل فوات الأوان. وكثيرًا ما كان يدفن السَّحرة أحياء ليُطيل أمدَ عذابهم وهم تحت التُّراب قبل أن

ينتقلوا إلى مرحلة عذاب القبر؛ خاصّةً أولئك الذين تسبّبوا في أذيّة الناس والإضرار بهم بشكلٍ لم يعُد يمكن إعادتهم

إلى حالتهم الطبيعيّة. لكن عندما امتلأت مساحة كبيرة من المزرعة بقبور ضحاياه صار يخشى أن يتم اكتشاف ذلك فتوقّف عن الدّفن فيها، وقرّر تربية كلابٍ من أنواعٍ مختلفة كان يشتري بعضها وبعضها الآخر كان يجدها ضالّة فيقوم بتربيتها ويعتني بها في أحد مستودعات المزرعة إلى أن تكبر، ثم ينقلها إلى الوادي المُسيَّج في سفح جبال أولاد تبّان التّابعة لولاية سطيف الواقعة على حدود بلدة الدْهاهنة أين يقطن، فيحبسها فيه ويجوّعها ليومَيْن وأحيانًا لثلاثة أيّام وهناك يقوم بإطعام كلابه الشّرسة لحم أقذر وأحقر فئةٍ من البشر. فتلك كانت طريقته المفضّلة لإعدام المجرمين الذين عانى من آذاهم أعدادٌ كبيرة من الناس، بسبب تعاويذهم وطلاسمهم التي خرّبت البيوت وشتّتت العائلات وفرّقت الأحبّة وتسبّبت في مقتل الكثيرين جرّاء أمراضٍ مُزمنة، وحرَمت العديد منهم من الإنجاب وحالت دون حصول البعض الآخر على عملٍ يقتات منه أو يُعيل به أولاده.

أمّا بعد أن ينتهي عبد المنتقم من مهمّته كان يعود إلى بيت ضحيّته ويترك أمام عتبتِه كيسًا صغيرًا من الكِتّان بداخله رأس ثُعبانٍ مقطوع إذا ما كان الضّحية ساحر، ورأس أفعى إذا ما كانت ساحرة. كدلالةٍ على أنّه خلّص سكّان تلك المنطقة من شرور حيّةٍ بشرية، وتلك كانت العلامة التي عُرف بها الملثّم الغامض بين الناس، فصار يُلقّب بصيّاد الثّعابين، وآخرون لقّبوه بالنّسر الأسود لمّا لمحه بعضهم في مرّاتٍ قليلة وهو يضع قناع طيرٍ جارح أسود اللّون.

لم يكن هناك من يعلم بما يفعله عبد المنتقم عدا عمّته سعيدة، وقد ظلّت تنصحه وتحذّره من عواقب ما كان يفعله لو اكتشف أحدهم أمره، كان يكره مخالفة أمرها أو يتجاهل نصائحها ولكنّه لم يكن قادرًا على نسيان ماضيه الأسود الذي لم يكن في استطاعته العيش هانئ البال وهناك من يعانون ما عاناه أفراد عائلته بسبب هؤلاء الأشرار الذين لم يكن هناك من يردعهم ويوقفهم عند حدّهم، فكان لابدّ من معاقبتهم. ولم يكن هناك من سيقوم بتلك المهمّة غيره، غير أنّ عمّته أخذت منه وعدًا بخصوص عمّه وزوجته، لأنّها كانت تعلم أن دورهما آتٍ لا محالة

إن عاجلاً أو آجلاً، فقد جعلته العمّة سعيدة يعِدها بأن لا يقترب منهما وهي على قيد الحياة، فسعيد عمّه كان أخوها التّوأم ورغم كُرهها له ومُعاداتها إيّاه إلاّ أنّ عاطفة الأخوّة كانت غالبة في قلبها، فلم تكن لتتحمّل أن تسمع بنبأ مقتله على يد ابن أخيه وهي حيّة. وذاك ما كان فعلاً، فقد بقي عبد المنتقم عند وعده لعمّته واستمرّ في اقتناص المشعوذين وتعذيبهم وقتلهم طيلة ثمانية عشر عامًا، فلم يترك مدينة أو قرية أو ناحية من ولاية المسيلة إلاّ وتتبّع وراقب أكثر مُشعوذيها خطورةً على الناس إلى أن توفّيت عمّته سعيدة، وكان يبلغ من العمر آنذاك أربعًا وثلاثين سنةً. عندها فقط عرف أنّ اليوم الذي خُلق من أجله قد حان، يوم الحِساب.. اليوم الذي سينتقم فيه من السفّاحيْن اللّذيْن قتلا أفراد عائلته، عمّهُ سعيد وزوجته خليدة!

بعد مرور أسبوع العزاء الذي تعيّن عليه فيه استقبال واستضافة كلّ من أتوا من أماكن قريبة وبعيدة من معارفه ومعارف أبيه بالتبنّي ليقدّموا العزاء، جاء اليوم الذي سيسافر فيه أخيرًا إلى ولاية تبسة، وتحديدًا إلى بلدة الشريْعة. حيث علِم من صديقه وشريكه في بيع وشراء المواشي إسماعيل السّاكن

هناك، والذي كان قد كلّفه بالبحث عن أفراد عائلة عمّه وإيجاد مكان سكنهم فعرف أنّهم باعوا كلّ أملاكهم في بلدة الشريْعة وانتقلوا للعيش في بلدة بكارية، بلدةٌ صغيرة تبعد عن وسط المدينة بـ12 كلم. بعد أيّام سافر عبد المنتقم إلى هناك واستأجر غرفةً في أحد فنادق وسط المدينة مستخدمًا بطاقة هوّية مزيّفة، حتى يتفادى الوقوع في أيدي أعوان الأمن في حال ما وقع خطأ أو أخفق في مَهمّته.

ولكن الأمر كان أسهل من شَربة ماء، فكلّ أفراد عائلة عمّه كانوا يسكنون في نفس الحي بقيلا كبيرة عدا الإبنة الصُّغرى التي كانت متزوّجةً حينئذ في ولاية الطارف، ولكي يحرق قلب أمّها كما حرقت هي قلبه فيما مضى بتعذيبها لشقيقته بإلقاء تعويذتها عليها فجُنّت وعانت كثيرا قبل أن تموت، قرّر أن يعذّبها بابنتها أولاً ويُذيقها من نفس الكأس التي جرّعته إيّاها. فهي من جَنَت على ابنتها في الأخير، وليس ذنبه هو أن تكون ابنتها بريئة فيأخذها بجريرة والدتها الشرّيرة وهي لا ضِلع ولا ذنب لها في ذلك! فشقيقاه أيضًا لم يكن لهما أيّ ذنب ومع ذلك لم ترحمهُما زوجة عمّه التي أعمى الجشع قلبها وغشِي الشرّ عينيْها.

لذلك قام أوّلاً بتكليف صديقه وذراعه الأيمن وأمين أسراره عبد النور بالتحرّي عن حياة ابنة عمّه ريم الشّخصية حتى يبدأ انتقامه بها، فعرف عنها في الأسبوعيْن اللّذيْن قضاهما عبد النور في مراقبتها وتتبّع أخبارها عن بُعد بأنّها كانت تُواعد شابًا يتردّد على منزلها في غياب زوجها الذي كان يسافر إلى ليبيا ويبقى هناك لعدّة أشهر بحُكم عمله، وكثيرًا ما كانت تخرج مع عشيقها ليسهرا في العُلب اللّيليّة الموجودة بالمدينة أو المُدن المجاورة، وذلك بعد أن تأخذ ابنتْها الصّغيريْن إلى منزل جدّتهما خليدة في تبسة، فيتسنّى لها اللّهو والمرح مثلما تشتهي بكلّ حُريّة. كانت والدتها تعلم بخَرجاتها المشبوهة تلك، ولأنّ الوازع الدّيني غائبٌ عند تلك العائلة الفاسقة فالأُمّ لم تكن تُمانع أن يكون لابنتها المُنحرفة أسلوب حياة كتلك، ولو على حساب شرف الزّوج المغفّل والذي كان يُشاع أنّهما أطعمتاه من دِماغ الضّبع لكي يبقى خاضعًا غير ممُانعٍ!

انتظر عبد المنتقم بضعة أيّام حتى ينقضي شهر الإجازة الذي سيقضيه زوج ريم في بيته، وذلك لمّا عاد هذا الأخير من ليبيا. وقبل يومين على رجوعه إلى عمله حيث سيبقى هناك أربعة أشهر، سافر عبد المنتقم إلى مدينة الطارف واستأجر غرفةً بنفندق هناك وبقي

فيها عدّة أيام مُنتظرًا الفرصة المُواتية لينفّذ مهمّته التي كان يُعدّ لها، وفي اليوم الذي قرّرت فيه ريم وعشيقها أن يخرُجا معًا للسّهر في إحدى العُلب اللّيلية بالمدينة، تبعهما بسيّارةٍ استئجرها إلى أن وصلا فدخل إلى هناك هو أيضا واختار طاولةً موضوعةً في زاوية مُظلمة من المَلهى ثمّ طلب دستة بيرة، لم يكن يشرب الكحول إلاّ أنّه تعيّن عليه أن يطلب مشروبًا حتى لا يكون موْضع شُبهةً فيثير ريبة السّاقي والنُدَّل، وقد صادف وجود أُصُص لنبتة صبّار الألوڤيرا زُيّنت بها حافّة النّافذة التي جلس بجانبها، فراح يسقيها من تلك البيرة دون أن ينتبه أحد. مرّت سويْعات احتست فيها ريم مع عشيقها نصف زجاجة ويسكي، ولمّا أحسّت برغبةٍ في الرّقص قامت إلى المنصّة التي كان بها عدّة أشخاص سُكارى يرقصون، وراحت تراقصه وهو يُخاصرها بذراعه تارةً، وتارةً يدور حولها ويُصفّق لها وهي تميل بخصرها على أنغام أغنية "يا ساري عقب الليل" التي كانت رائجةً في ملاهي الشّرق الجزائري اللّيلية في تلك الفترة.

من مكانه في تلك الزّاوية المُظلمة كان عبد المنتقم يتابع بعينيْه ريم في فُستانها الضّيق الكاشف عن مَفرق نهديْها وفَخذها، مثلما

يُتابع نسرٌ من الأعلى أفعى وهي تزحف بين الأعشاب الشّائكة قبل أن ينقضّ عليها، ذكّرته بالمُمثّلة شيرين سيف النصر في دور "أفكار" وهي ترقص ثمِلةً على إيقاع أغنية Twilight Zone في فيلم "سواق الهانم"، فيما دخل أحمد زكي في دور "حماده" إلى النّادي اللّيلي الذي كانت تسهر فيه "أفكار" وراح يراقبها من بعيد قبل أن يقوم بإخراجها من هناك عُنوةً. غير أنّ عبد المنتقم ليس "حماده".. فهو لم يتبعها إلى هناك ليُخرجها من عُلبة المُجون تلك، بل لكي يُغرقها في دوّامةٍ من الجنون؛

قام من مكانه ودون أن يُلفت انتباه الحضور الذين كانوا جُلّهم منشغلين بالتّفاعل مع أجواء الملهى الصّاخبة، من شُربٍ وتدخين ورقص ومغازلة العاهرات ومُشاحنات كلامية بين السُّكارى تؤدّي إلى مُشاجرات في بعض الأحيان. استغلّ عبد المنتقم كلّ ذلك واقترب من طاولة ريم الخالية وبحركةٍ سريعة وغير مُلفتة سكب من قارورة صغيرة مسحوق 10 حبّات من دواء آرتان في كأسها الذي تركت فيه قليلٌ من المشروب، ثمّ وكما دخل الملهى اللّيلي غادره دون أن يشعر به أحدٌ غير النّادل الذي كان يأتيه كلّ بضع

لحظات ليضع أمامه زُجاجتا بيرة كلّما فرغت الإثنتان اللّتان سبقتهما، والتي أفرغها كلّها في أُصّ نبتة الصّبار...

طيلة الأشهر الثلاثة التّالية قضّتها خليدة وسعيد وهما ينتقلان بابنتهما ريم بين الأطباء النّفسيين والمستشفيات والمُرقّين والعرّافين، لينتهي بها المطافُ في الأخير داخل مصحّة عقليّة. وخليدة تنظر إلى ابنتها بعينيْن باكيتيْن من وراء القُضبان الحديديّة كيف كانت تمضغ أطراف ثوبها الرّمادي الذي اتّسخ أعلاه ببقايا الطعام، بينما كانت تُحدّث نفسها بهدوءٍ لثواني ثم تثور وتبدأ بالصّراخ في وجه أيًّا كان الكيان اللاّمرئي الذي كانت توجّه له ريم كلامها غير المفهوم المليء بالكلام الفاحش، واللّعاب يتطاير من فمها المصفرّةُ أسنانه والذي يعلوه زغَب شاربان لم يُنتفا منذ فترة...

في الأخير غادرت خليدة والسعيد المصحّة العقليّة التي تركوا فيها ابنتهما التي يئسوا من عِلاجها بعد أن أكّد لهم الأطبّاء أنّ حالتها مُستعصية ولا شِفاء من مُصابها.

فعبد المنتقم لمّا طحن كبسولات الآرتان العَشر كان قد راهنَ إمّا أن تموت ريم بجُرعةٍ زائدة وإمّا ستُجَن، ولأنّها كانت تتعاطى

مُسبقًا أنواعًا عدّة من الأدوية التي كان يُحضرها لها عشيقها مثل البِاركينال والليزينو والكيتيل والإيزيبيتول وغيرها ممّا يقع تحت يدها من حبوب مُهلوسة، فجسمها وبأعجوبة اكتسب مناعةً ضدّها تلك الأدوية المخدِّرة فلَم تمُت، إلاّ أنّ دِماغها لم يكن بتلك المناعة فحدث اختلالُ توازن في بعض مواد الجسم ممّا أدّى إلى اضطراب أعصابها فدخلتْ في حالة هذيان لم تخرُج منها.

تعمّدَ عبد المنتقم تأجيل انتقامه من بقيّة أفراد عائلة عمّه حتى تُعاني زوجته كفايةً وهي تشاهد ابنتها الوحيدة في حالتها تلك دون أن يكون لديها القُدرة على فعل شيءٍ حيالها، وعندما قرّر أن يُنهي ما بدأه سافر إلى ولاية تبسة، واختار ليلةً لا يظهر فيها القمر ليقتحِم مسكَنهم، تخلّص أوّلاً من إزعاج كلب حِراسة ضخمٍ كان يتجوّل في حديقة الڤيلا التي يسكنها سعيد وخليدة مع إبنهما الأصغر، وذلك بواسطة قطعة لحمٍ مشويّة محشوّةٌ بمادّةٍ مُخدّرة، ثم تسلّل إلى الدّاخل وقطع تيّار الكهرباء وانقضّ عليهم بغتةً في غرف نومهم مثلما كانت تقتحم الجماعات المُسلّحة بيوت ساكني القُرى النّائية في العُشرية السّوداء، فقيّد الابن علي الذي كان ينام في غرفته ووضعه داخل كيسٍ من الخيْش كما يفعل عادةً مع

ضحاياه، ثم قيّد عمّه وزوجته العجوزيْن ووضعهما في كيسيْن أيضًا. فقد كانوا كمعظم الذين باغتهم في بيوتهم يتجمّدون في وضعيتهم التي كانوا ينامون عليها من شدّة الخوف من طوله الفارع ولِباسه الأسود. وبمهارة لصٍّ متمرّس أخرجهم من الڤيلا ووضع الأكياس الواحد تلو الآخر في صندوق شاحنته الـ404 كما لو كانت أكياسَ بطاطا.

في الصّباح نزعَ الخِرقتان اللّتان عصّبَ بهما عينيْ عمّه وزوجته ليجدا نفسيْهما في حقلٍ مهجور ليس فيه غير نباتات الصّبار والحَلْفاء، وأمامهم مُباشرةً كان أولادهم الثّلاثة معَلّقين بالحبال في عمود بكرة بئرٍ جافّ وهم يبكون مثل النّساء ويتوسّلون لخاطفهم الملثّم المجهول كي يُطلق سراحهم، والذي كان واقفًا بجانب والديهم وفي يده شفرةٌ كبيرة. ففي اللّيلة السّابقة وقبل أن يتوجّه إلى ڤيلا سعيد كان قد تسلّلَ إلى منزليْ الأخويْن الكبيريْن أحمد وعبد المالك –واللّذان سبق وتقصّى عن عنوان مسكنيْهما من بعض سكّان البلدة– وأخذهما من بين حضن زوجتيْهما، ثم قام بنقلهما على متن الشّاحنة إلى الحقل المهجور وتركهما مقيّديْن ومُكمّميْن هناك في العراء ثمّ عاد ليقتحم الڤيلا.

راح عمّه سعيد يترجّاه كي يطلق سراحهم ويتركهم في حال سبيلهم وهو لا يدري من كان خاطفهم أو لماذا اختطفهم وأتى بهم إلى ذاك المكان المهجور والمخيف، أمّا زوجته خليدة فكانت تنوح وتبكي وتستحلفه بأغلى ما عنده بأن لا يؤذي أولادها، مِن خلف لِثامه ارتسمت ابتسامة ساخرة على فمه تبِعتها دمعةٌ حارّة سالت على خدّه لمّا ذكّرتهُ بأغلى ما عنده، وهي التي سلبته إيّاهم منذ ما يزيد عن ثلاثين عامًا. تجاهلَ عبد المنتقم نحيبهما الذي كان يُطرَب له وتوجّه ناحية البئر بخطواتٍ بطيئة ودون أن يتفوّه بكلمة واحدة، التفت إلى عمّه وزوجته وأشار لهما بيده أن ينظرا... ثم بضربةٍ خاطفة من شفرته الحادّة قطع الحِبال التي كان الإخوة الثّلاثة معلّقين بها فوقع ثلاثتهم معًا في فوهة البئر الذي يزيد عُمقه عن 60 مترًا، تردّد صدى صُراخهم لثواني على جُدرانه الدّائرية وهم يهوون إلى الأسفل، ثم انقطعت أصواتهم فجأةً عندما ارتطموا بقعره الجاف، بقي عبد المنتقم عند حافّة البئر يُصغي بسمعه لعلّه يصدر أنينٌ أو تأوّه من أحدهم فيُلحق به صخرةً فتسحقه، ولمّا مرّت بضع دقائق ولم يصدر أيّ صوتٍ من الأسفل تأكّد أنّهم لاقوا حتفهم كلّهم.

لـم تتحمّـل أمّهـم مـوت فلـذات كبـدها بتلـك الطّريقـة وأمـام عينيها فسقطت مغميًّا عليها، أمّا سعيد فقد راح يشتم ويلعن قاتل أبناءه ويسبّهُ بأقذع الألفاظ، وما إن سبّ له أمّه حتى ثارت براكين الغضـب في رأس عبـد المنـتقم واحمـرّت عينـاه، ومثـل جـاموسٍ أفريقيّ هائج يسيل الزّبد من فمه ركض بأقصى سرعته نحو عمّه، وبكلّ ما أوتي من قوّة ركله في صدره وهو جالس على ركبتيه فطار العجوز النّحيل في الهواء وسقط مُتدحرجًا على الأرض كما يحدث عندما يركُل طفلٌ هرًّا صغيرًا. انقطعت أنفاسه لثوانٍ جرّاء تلك الرّكلة قبل أن يلفظها مع الدّم وهو يسعُل بشدّة، ولم يتوقّف عن السّعال إلى أن استفاقت زوجته لمّا سمعت سُعاله الشّديد. حَبَت على ركبتيْها مقيّدة اليدين وساعدته على الجلوس وهي تسأله إذا ما كان قد تأذّى كثيرًا، ولّما التفتت إلى خاطفهم لتؤنّبه عن ضربه لزوجها صُعقت عند رؤيتها له، فقد فُكّ اللّثام وانكشف وجهه. ارتعدت فرائصها وهي تراه يحدّق فيها بنظراتٍ تتطاير منها نيران الحقد والغضب، تذكّرت على الفور ابن جميلة الصّغير.. ذاك الطّفل الجميل ذو الأربع سنوات، فحتى بعد مرور السّنين على آخر مرة رأته فيها ورغم اللّحية التي كانت تكسو وجهه إلاّ أنّها

تعرّفت على ملامحه التي لم تتغيّر كثيرًا، ربّما بسبب عدم نسيانها له، فقد كانت طيلة تلك السّنين متخوّفة ومتوجّسة من عودته إذا ما عرف يومًا ما بالحقيقة، خاصّة وأنّها كانت تعلم أنّه في حُضن عمّته التي قد تؤلّبه ضدّ عمّه عندما يكبر فيطالب بحقّه من إرث والده الذي اغتصبوه.

لم يصدّق سعيد عيناه في البدء وهو ينظر إلى عبد المنتقم إلى أن أكّدت له زوجته أنّه هو بعينه.. ابن أخيه، تجمّد الدّم في عروقه واقتبضت أساريره، فقد تيقّن أن نهايتهما قد حانت وأنّهما على وشك دفع ثمن أفعالهما التي ارتكبوها في الماضي في حقّ أخيه وأفراد عائلته. توسّلته خليدة أن يعجّل بقتلها حتى لا تتعذّب في موتها، فتكلّم عبد المنتقم لأول مرّة وأجابها بتهكُّم أنّه سيُلبّي لها طلبها، أمّا عمّه فقد طلب منه شَربة ماء فأتاه عبد المنتقم بقارورة بلاستيكيّة من شاحنته مملوءةً للنّصف بالبنزين ووضعها أمامه، ابتلع سعيد ريقًا غير موجود وهو ينقل بصره بين قارورة البنزين وبين زوجته التي كان الذّعر مُرتسمًا على وجهها. ولكي يزيد من عذابها النّفسي أخبرها بأنّه من كان وراء فُقدان ابنتها ريم لعقلها، لم تصدّق خليدة كلامه في البدء ولكن عندما أعطاها دلائل تثبت

ذلك ثارت ثائرتها وطار عقلها وراحت تلطم وجهها وتخبط كفّيها على الأرض وتنثر التّراب في الهواء وهي تلعن اليوم الذي تسنّى لها قتل عبد المنتقم عندما كان طفلاً ولم تفعل!

ابتسم عبد المنتقم وهو يراها ترغي وتزبد مثل كلبةٍ مسعورة، متجاهلاً سُبابها ولعناتها التي لن تصيب أحدًا بسوء.

عند منتصفِ النّهار استلقى في مقعد شاحنته لبقية اليوم بعد أن تناول رغيف خبز مع حبّات تمرٍ وماء، متعمّدًا تركهما للجوع والعطش وهما مقيّدان تحت أشعة الشّمس لساعات، إلى أن سمع أذان المغرب ينادي في المُصلّين نزل من الشّاحنة وأخذ رفشًا من صندوقها وراح يحفر حُفرتان بالقرب من ضحيّتيْه، وكأنّ الأذان أعلنَ عن ساعة الغروب في حياة ذيْنك الزّوجيْن البائسيْن. ولمّا يئست خليدة من استعطاف قلب ذاك الشّاب عديم الرّحمة أخذت تصرخ وتصيح طلبًا للنّجدة عسى أحدهم يسمعها فيأتي وينقذهما، أطلق عبد المنتقم ضحكة تهكّم فيما هو يتابع الحفر، فهو يعلم أنّ أقرب منطقة عُمرانية من ذاك المكان تبعُد أكثر من 8 كيلومترات، وقد اختار ذاك المكان بعد أيّامٍ من التّجوال فيه

فتأكّد أنّه ما من أحد يمرّ بالقرب من هناك لا في النّهار ولا أثناء اللّيل.

بعد أن أتمّ الحَفر راح يجمع الحصى والحجارة وكدّسها حتى شكّلت كومة ثمّ قام بسحب العجوزيْن من ياقتيْ ملابسهما وأدخلهما في تيْنك الحُفرتيْن اللّتان كانتا تصلان إلى كتفيْهما. كان القمر بدرًا في تلك اللّيلة إلاّ أنّ السّحُب الخريفية كانت تحول دون ظهوره، فما إن يطلّ بضعة ثوانٍ حتى تحجُبه ثانيةً.

عندها بدأ عبد المنتقم بالتقاط الحصى وأخذ يقذف بها عمّه بكلّ قوّته، فراح يصوّب على كتفيْه وصدره قبل أن يصوّب ناحية وجهه ورأسه، وزوجته خليدة تشاهد زوجها وهو يُعدم أمامها رجمًا، أما هي فقد كان الخوف يقتلها ألف مرة وهي تنتظر دورها، وبعد عشرين حجرًا أو يزيد مات العجوز سعيد متأثّرًا بالجراح والثّقوب التي أحدثتها الحجارة في رأسه.

حان دور العجوز خليدة ولكي يُطيل عبد المنتقم في عذابها اختار حجارةً أصغر حجمًا، وقد استمرّ في قذفها بها قرابة نصف ساعة إلى أن ملّ منها ومن صوت أنينها المُزعج، كما أنّ التّعب كان قد نال منه فأخذ حجرًا كبيرًا حمله بكلتا يديه، واقترب من قاتلة

والده ووالدته وأخته وأخيه، وبصعوبةٍ كبيرة رفعت العجوز نصف الميتة رأسها لتنظر إلى قاتلها بالعين التي بقيت سليمة، فبصق على وجهها ثمّ هوى عليها بالحجر فتهشّم رأسها وماتت على الفور.

بعد أن استراح قليلاً أخرج الجثّتان من الحُفرتيْن وألقى بهما داخل البئر الجاف، ثم ألحق بهما عددًا كبيرًا من الحجارة وكمّياتٍ من التّراب حتى لا تتصاعد منه رائحة التعفّن لاحقًا فيتم اكتشافهم إذا ما مرّ أحد من هناك، لتصبح تلك البئر قبرًا جماعيًّا يضمّ أفراد عائلة عمّه المُجرمين.

في الصّباح الموالي ولمّا مرّت شاحنة القُمامة من أمام ڤيلا سعيد، نزل أحد عمّال النّظافة ليكبّ ما في الدّلو الموضوع قرب الباب، ففُوجئ عندما رأى في قعر الدّلو الفارغ خمسة رؤوس ثعابين مقطوعة!

كانت قد مرّت سبعةُ أشهر عندما نجحَ عبد المنتقم أخيرًا في جعل مصحّة العبّاسة للأمراض العقلية تُسلِّمه ابنة عمّه ريم، وذلك لمّا استعان بوَساطة خليل أحد أصدقاءه ومعارفه النّافذين في وِزارة الصّحة؛ فاستطاع هذا الأخير بفضل نفوذه إقناع إدارة

مستشفى سطيف للطّب النّفسي بأنّ ابن عمّ البنت المريضة مستعدٌّ لإيواءها والإعتناء بها في بيته، وكان له ما أراد...

في الصَّبيحة التي طرقت فيها الدّكتورة النّفسية إكرام شيباني مبعوثةُ خليل باب مكتب مُدير المستشفى تمّ استقبالها بكلّ ترحاب، فتكفّلت هذه الأخيرة بملفّ المريضة بعد أن فحصتها وعاينتها لتتأكّد من أن خروجها لا يُشكّل احتمال حدوث أيّ أذًى فوْري أو وشيك على سلامتها وصحّتها، أو سلامة وصحّة الآخرين...

كما أن المُحامية أمينة حمند اهتمّت بكامل الإجراءات القانونية الخاصّة بتسليمها للقيّم والوصيّ على إيواءها السّيد "عبد المؤمن بوتفجيرة"!

طبعًا لم يكُن عبد المنتقم ليسمح بإظهار إسمه الحقيقيّ في الوثائق لأسبابٍ لم يُفصِح عنها للدّكتورة ولا المُحامية، واللّتان لم تُصرّا على معرفة تلك الأسباب بعد أن حصلتا على ضِعف ثمن أتعابهما...

طيلة الأشهر الثّلاثة التّالية أبقى عبد المنتقم ابنة عمّه المجنونة تعيش عنده، فخصّص لها جناحًا في زريبة الأغنام بمزرعته يفصلُ بينها وبين المواشي حاجزٌ خشبيّ، وقد كلّف

لخْميسي أحد الرّعاة بأن يُطعِمها ويحرُسها على مدار 24 ساعة مُقابل راتب شهريّ إضافي. ولأنّه يعلم كم كانت ريم جميلة ومُثيرة حتّى وهي في حالتها تلك فقد حذّره عبد المنتقم من الاقتراب منها أو حتى التحدّث إليها، وقد توعّده بأن يُعلّقه من قضيبه في غُصن شجرة أمام كلّ عمّال المزرعة إن هو فكّر في الأمر حتّى!!!

لكن في إحدى ليالي الشّتاء العاصفة استغلّ عبد الحكيم أحد الرّعاة الحمقى الطّقس السّيء وقام بتهريب ريم المجنونة – التي شغفته حُبًّا.. أو شهوةً! – من المزرعة بعد أن تمكّن من لخْميسي حارسها الشّخصي، فكاد أن يودي بحياته بعد أن وجّه له ضربةً بواسطة رفشٍ على رأسه لمّا حاول منعهُ من الوصول إليها...

لا أحد يعرف أين أو كم بقيت ريم رفقة عبد الحكيم في قرية القطاطشة أو خارجها، فكلّ ما عرفه النّاس بعد قُرابة خمسة أشهر من حادثة الاختطاف بمن فيهم عبد المنتقم، أنّ امرأةً مجنونة (مهبولة جْديدة؛) تتجوّل في وسط مدينة سطيف. فلمّا سمع عبد المنتقم من عُمّاله ذلك توجّه على الفور إلى المدينة ليرى إذا ما كانت ريم أم لا، فكانت المفاجأة عندما رأى تلك المرأة المجنونة نائمةً بجانب حاوية قُمامة، لقد كانت هي فعلاً! ريم

المجنونة.. ريم ابنة عمّه.. ولكن الذي صعَقه هو لمّا لاحظ بُروز بطنها أمامها...

رغم أنّه بحث عنها بنفسه كلّ يومٍ تقريبًا، وكلّف كذلك العديد من الأشخاص لمُساعدته في البحث عنها مقابل مبالغ ماليةٍ مُغرية، إلاّ أنّهم عجزوا عن إيجادها وتأكّدَ لهم بأنّها اختفت كما يختفي خاتمٌ في قعر نهر. لقد صارت تعني لعبد المنتقم شيئًا مع مرور الوقت، انتبهَ متأخّرًا أنّها آخرُ فردٍ بقي له من أقاربه وقد أعماه انتقامه من ملاحظة ذلك إلاّ بعد فوات الأوان، خاصّة أنّه كان مُنشغلاً في الفترة الأخيرة بتعذيب السّاحرة حنان المعروفة بـ(السّعدية) التي كان يحبِسها ويعذّبها داخل قبوٍ في أحد مُستودعاته، والتي قبض عليها وهي تُضحّي بأطفالٍ صِغار قامت باختطافهم ثمّ ذبحتهم لتُقدّمهم كقرابين للجِنّ الذين كانت تتعامل معهم لأجل استخراج كنز...

أراد أن يُصلِح خطأه الفادح فلم يعرف كيف أو من أين يبدأ، فلمّا حاول إعادة ريم إلى مزرعته وجد منها مقاومةً شرسة ولم تعُد تستجيب له كما كانت عندما كانت في الزّريبة. ربّما بسبب عدم تناولها لأدويتها المُهدّئة التي وصفتها لها طبيبتُها الدّكتورة إكرام التي

بقيت تزورها لتُعاينها إلى أن أُختِطفت، ولعلّ ذلك ما جعلها بتلك الوحشيّة. هذا إن لم يكُن عبد الحكيم النّذل أو أيّا كانوا الأوغاد الذين استغلّوا حالتها الصحيّة هم من كانوا يعطونها حبوبًا مُخدِّرة حتى يُتاح لهم الاعتداء عليها جنسيّا، فزاد ذلك من تدهور حالتها العقليّة. فلماذا لم يرحموها ويعطوها حبوبًا لمنع الحمل على الأقل؟!

هكذا سأل عبد المنتقم نفسه في سرّهِ وهو يتوعَّدهم شرًّا...

كانت ليلةً جدُّ باردة من ليالي شتاء 2003 عندما آوتْ ريم إلى مكانها الذي اعتادت أن تنام فيه بشارع فرانتز فانون، استلقت على مَرتبتِها القديمة المتّسخة والتحفَتْ ببطّانيتيْن لا تقِلّان اتّساخًا عن المَرتبة وبالكاد تحميانها من برد شهر كانون الأول القارس، فانكمشت تحتهما مثل قطّةٍ مُشرّدة ونامت وهي تمرّرُ يدها على بطنها المُتكوّر.

كانت بطنُ عبد الرّحمان الخاوية تُقرقِر من شدّة الجوع عندما كان متّجهًا إلى حاوية نُفايات لا تبعُد كثيرًا عن تِمثال عين الفوّارة، لكنّه توقّف عن المشي عندما رأى الشّخص النّائم في الجِوار فأثار ذلك فضوله...

سار باتّجاه ريم الغارقة في النّوم وهو يتساءل في نفسه عمّا إذا كان سيجد عندها شيئًا يُؤكَل، فهو لم تدخل فمه لقمةٌ منذ حبّة كعك أعطاها إيّاه قَهوجيّ يعمل في مقهى قريبة في الخامسة صباحًا. وما إن رفع الغطاء على وجه ريم حتى استفاقت مفزوعةً عندما رأت ذاك المجنون الذي لا يخرجُ من وكرهِ –المتمثّل في جراج مهجور صار أقرب إلى مِرحاض مفتوح يأكل ويتغوّط وينام فيه– إلاّ بعد أن تغيب الشّمس، فقد كان هذا عبد الرّحمان المدعو بـ(رْحَيّم). وقد كان سيّء السّمعة الكلّ يتجنّبوه لخطورة رَدّات فِعله، ولذلك اختار حياة اللّيل حتى لا يتعرّضَ لمُضايقات الناس...

ما إن صرخت فيه ريم وناوشته كي يبتعد عنها حتّى تراجع إلى الوراء قليلاً ثمّ رفع كفّ يده الكبيرة عاليًّا ونزل على وجهِها الصّغير بصفعةٍ أفقدتها وعيها. قام بتفتيش فِراشها عن أيّ طعامٍ ولكنّه لم يجد شيئًا يُؤكَل عندها، شدّها من شعرها وراح يهزّ رأسها بقوّة كي تستعيد وعيها وعندما لم تستجِب قام وأخرجَ عضوه وبَال على وجهِها! فاستفاقت مذعورةً وهي تنفضُ شعرها وتمسح وجهها من البوْل، وهربت من هناك مبتعدةً وهي تصيحُ فيه كي يترُكها وشأنها...

في اللّيلة التّالية وبعد آوتْ ريم إلى فِراشها على نحو السّاعة الثّامنة والنّصف، ركض رْحَّيْم إليها بسرعة رغم سنّه الذي تجاوز الخمسين وإعاقة ساقه اليُسرى التي لا يستطيع ثنيَ رُكبتها، وما إن وصل إليها انقضّ عليها مثلما ينقضُّ الضّبعُ على غزالةٍ غافلة. حاولت ريم مقاومتهُ فتلقّت منه عدّة صفعاتٍ قويّة هَدّتْ قِواها واستسلمت له. مزّق رْحَيّم ثوبها الصّوْفي الذي تصدّقت عليها به عجوزٌ مُسنّة منذ أيام واعتدى عليها لنحو ساعةٍ كاملة، ولم يُفلِتها إلاّ بعد أن أفرغَ فيها شهوة شُهور. فترَكها تئِنُّ وتبكي وهي تحاول تغطية عورتها بما تبقّى من ثوبها المُمَزّق...

في اللّيلة التّالية عاد إليها رْحَيّم وأعاد نفس الكَرّة معها، وكُلّما أبدت مقاومة وجّهَ إليها صفعات على وجهها بيده التي كانت بحجم قُفّاز كرة البيسبول فترضخَ له، يأخذُ منها وطْره ثمّ يغادر ليعود إليها في اللّيلة المُوالية، وهكذا دواليك. صار رْحَيّم يتردّدُ عليها كلّ ليلةٍ لأسابيع عدّة ولا أحد يعلمُ ما كانت تتعرّضُ له ريم المجنونة لأنّه كان ينتظر حتى يخلو شارع فرانتز فانون من المارّة، وذلك بعد أن يغلِق المقهى أبوابه قُرابة السّاعة العاشرة والنّصف. لكن هناك من كان شاهدًا على ما كان يفعلُه رْحَيّم بريم كلّ ليلة...

كان نوْفل يُراقب تحرُّكات رْحَيّم من بعيد كلّما رآه يخرُج من وكْره ويتتّبعه من بعيد لكي يُباغته ويضربِه بأداةٍ حادّة كان يُخفيها تحت معطفه. فنوْفل (البوهالي) أيضًا كان قد تعرّض للاعتداء على يد رْحَيّم لأكثر من مرّة كلّما وجده بمُفرده في مكانٍ خالٍ من النّاس، مُستغلاً ضُعف بُنيته وجسده الضّئيل إضافة إلى عقله المُتخلّف. وقد سبّب لهُ رْحَيّم جروحًا وتقرُّحات في فُتحة شرَجه وبواسير لا تُشفى بفعل هِراوته العظيمة، حتّى أنّه صار يتمنّى الموت في كلّ مرّة يضطرّ فيها إلى قضاء حاجته ممّا يتبعُ ذلك آلامًا لا تُحتمَل...

لكن عندما اكتشف نوْفل وجود مجنونةٍ أخرى صارت تشاركهم المكان لم يسُرّهُ الأمر، فذلك يعني أنّها ستستفردُ بكُلِّ العَطايا والصّدقات لأنّه يعرف غريزيًّا بأنّ الناس سوف يتعاطفون معها ويؤْثرونها عليه وعلى رْحَيّم كونها أنثى وضعيفة. لذلك أجّلَ انتقامه من رْحَيّم وأرجأهُ لوقتٍ لاحق، ثم قصدَ المكان الذي تنام فيه ريم المجنونة بعد أن تركها رْحَيّم تتلوّى من الألم بعدما أقحمَ حِربته بداخل دبُرها حتى آخر ملّيمٍ منها، كما أنّه قام بلكْمها على بطنها بقوّة لمّا حاولت منعه من إيلاجها من الخلف، فتركها تنزف من كِلتا الفُتحتيْن...

كانت ريم المجنونة شِبه غائبةٍ عن الوعي عندما اقترب منها نوْفل ووقف أمامها لينظر إليها، أخرجَ من تحت معطفه موس حِلاقة مكسور وجده في سلّة نُفايات أمام محلّ للحَلاقة وأخذ ينظر إليها بشيءٍ من الشّفقة لمّا وجدها في حالٍ يُرثى لها، كانت بقايا الطّعام وآثار البوْل والقيْء منتشرة حولها وعلى فِراشها، ولعلّ ذلك ما شجّعه ليُنهي بؤْسها. فشدّ قبضته على الموس ووجّه إليها ضربةً على كتفها العاري ففتح في لحمها جُرحًا عميقًا سالَ منه الدّم بغزارة، انتبهت ريم عندما شعرت بألمٍ حاد في كتفها ففزِعت عند رؤيتها للدّم وتراجعت إلى الوراء بسرعة والتصقت بالجدار وغطّت وجهها بالبطّانيّة في محاولةٍ يائسة لحماية نفسها بينما راحت تبكي وتصيح مستنجدةً بأيّ شخصٍ قد يمرّ من هناك، فيما واصل نوْفل ضربها بالموس واستطاع إصابتها في وجهها وذراعيْها بعد أن تمكّن من تمزيق البطّانية وسبّب لها عدّة جروح...

بعد العديد من الضّربات كانت ريم المجنونة قد أصبحت مثلُ قطعة لحمٍ مسلوخة بسبب الجروح الغائرة التي أحدثها في كامل أنحاء جسدها تقريبًا، كانت ما تزال على قيد الحياة إلاّ أنّها لم تعُد قادرةً على المقاومة بعد أن مزّقت ضرباتُ الموس الحادّ عضلات

ذراعيْها وقطّعت أعصابها وأوْردتها وشراييناها، فصارت تنزِف من كلّ مكانٍ مثل ينابيع تِمثال عين الفوّارة الأربعة الجارية من حولها، كان دمُها ينزّ من أعلى رأسها إلى رَبلتيْها، لم يترُك نوْفل مكانًا ظاهرًا في جسدها إلاّ ووجّه إليه ضربةً أو طعنة، وكانت الطّعنةُ القاتلة لمّا غرزَ الموس بعد أن أقام عبد المنتقم جنازةً لابنة عمّه في بيته وأعلنّ حِدادًا دام ثلاثة أيام، وتصدّق على روحها بعشراتِ الخِرفان.

كلّف مجموعةً من أمهر مُتعقّبي الأثر والجواسيس والقوّادين، بعد أن جادَ عليهم بمبالغ مالية تفوق رواتب ثلاثة أشهر كما وعدَ بمكافأة مُغريّة لمن يأتيه منهم بعبد الحكيم حيًّا!!!

لم يمُرَّ شهرًا حتّى أتاه به ثلاثة رجال، شابّيْن وكهل اتّحدوا ثلاثتهم وكمّنوا له في أحد مداجن تربية الدّجاج حيث كان يعمل، فأخرجوه من المِدجنة مقيّدًا بالحبال ووضعوه داخل شاحنة من نوع Mazda مثلما توضُع الشّاة من الخلف...

كان عبد المنتقم عائدًا من الصّيد حيث خرج لاقتناص بعض الأرانب البرّية عندما وجد رجاله قد أتوه بأرنبٍ كبير الحجم، كان عبد الحكيم كبير الحجم بالنّسبة لأرنب، لكنّه أقصر من كلّ

الرّجال الموجودين. نظر إليه عبد المنتقم وهو مازال على صهوة فرسٍ نظرة احتقار وهو لا يكاد يصدّق أن ذاك القزم السّمين الذي يشبه في هيئته دُمية الماتريوشكا الرّوسية قد قام باختطاف واغتصاب ابنة عمّه الوحيدة...

بعد أن ربطوا حبلاً في غُصن شجرة سروٍ يصل علوّه إلى نحو 3 أمتار، أمر عبد المنتقم بأن ينزعوا له ملابسه ويُعلّقوه من عُضوه الذّكري، وما إن فعلوا متجاهلين توسّلات عبد الحكيم انفجروا ضاحكين على حجم عُضوه الذي لم يتعدَّ حجم حبّة تمر؛ فشعر عبد الحكيم بإحراجٍ جعل لون وجهه المُستدير يتحوّل إلى لون حبّة طماطم فاسدة...

كان يصرُخ بأعلى صوته ويتوسّل إليهم كي ينزلوه وهو يشعر أنّ عضوه سينقطع من جذوره بفعل وزنه الثّقيل الذي كان ينجذب إلى الأرض، فما هي إلاّ دقائق حتى أُجتُثَّ العضو بكُرتيْه من بين فخذيْه المُشعّريْن كما تُقتَلع نبتةٌ ضارّة من جذورها؛ ليقع عبد الحكيم من ذاك العُلوّ على الأرض بوزنه الثّقيل. حبسَ كلّ الرّجال الشّاهدين على تلك العقوبة أنفاسهم لمّا رأوا بشاعة المنظر والإهانة التي كان يتعرّض لها ذاك البائس، فيما كان عبد المنتقم

الواقف بجانبهم يشاهد بأعصابٍ باردة ترجمتْها ملامِحه الخالية من أيّة تعابير...

أخرجَ الرّجال عبد الحكيم الجريح من المزرعة ليرموه في مكانٍ بعيد في الجَبل ويتركوه هناك يواجه مصيره، فإن استطاع النّجاة فقد كُتبتْ له حياةٌ جديدة. فيما بقي عبد المنتقم في مكانه ينظرُ إلى العضو الذي بقي مُتدلّيًا في الحبل وهو لا يصدّق أن دودةً كتلك دخلت في جسد ريم وجعلتها تحبِل، فالتقط بُندقية الصّيد من سَرج فرسه وقام بإطلاق النّار على العضو الذّكري فنسفهُ! ثمّ بصق في الهواء لاعنًا إسمَ ذاك المغتصِب الجبان...

لم يتوقّف عذابُ حنان السّعدية التي كانت ماتزال محبوسةً في قبو المُستودع، وإنّما نالت استراحةً قصيرة احتاج فيها سجّانُها إلى بعض الرّاحة لتصفية ذهنه وإعادة ترتيب أفكاره. وربّما كان حزينًا جدًّا على فقدانه لريم، حُزنٌ لم يعترف به حتّى لنفسه بسبب كبرياؤه وعزّة نفسه، وإن كان شعوره ذاك أقرب إلى النّدم على ما فعلهُ بها مؤخّرًا. بات يتمنّى لو أنّه أبقاها في المَصحّة العقليّة، على الأقل هناك يمكنه زيارتها ورؤيتها والتحدّث إليها والاستماع إلى ما يدور في رأسها.. رأسُها الذي عبث به بنفسه؛الآن

سيتعيّن عليه أن يقف على قبرها الصّامت الأصمّ كلّما اشتاق إليها...

بعد أن انتهى من مسألة عبد الحكيم التفت إلى حنان السّعدية لينتهي منها هي الأخرى، فقد طال أمدُ عذابها وحان لها أن تستريح منه أخيرًا. أتى بكيسٍ من الخيْش مملوءٌ بالأفاعي التي قام بجمعها على مدى أسابيع واحتفظ بها في حوْض مياهٍ جاف حيث كان يرمي لها طعامها من ضفادع وفئران، نزلَ إلى القبو الذي كانت السّعدية محبوسةً فيه، وقف ينظر إليها وهي مربوطةٌ في الجدار بسِلسلة لربط العجول. أفرغَ الكيس من الأفاعي وتركها معها بعد أن تحدّاها كي تستدعي عفاريتها لينقذوها من الأفاعي، ثمّ خرج وأوصد باب القبو خلفه...

عاد إليها بعد يومَيْن وانتشل جُثّتها التي ازرقّتْ نتيجة عشرات اللّدغات التي تعرّضت لها، ليدفِنها في قبرٍ مجهول في مقبرة السّحَرة الموجودة بمزرعته، والتي لم يكن قد دفَن فيها أيّ ساحرٍ أو ساحرةٍ منذ سنوات. لكن السّعدية لم ولن تكون آخر ضحاياه...

فحتى بعد أن تزوّجَ وأنجبَ استمرّ عبد المنتقم في اصطياد المُشعوذين وكلّ من يلجأ إليهم، فينتهي بهم الأمر دائمًا مقتولين

بطرقٍ ووسائل تجعلهم يندمون على اختيارهم لذاك السّبيل. إلى أن كبُر وصار عجوزًا لا يقوى على الرّكض والضّرب والقنص والقتل كما كان في أيام شبابه، فكفّ عن ذلك واكتفى بالنّهي عن مُمارسة السّحر أو اللّجوء إلى مُمارسيه، وذلك في مسجد ((التّوبة)) الذي بناهُ من ماله الخاص منذ زمنٍ طويل في قرية القطاطشة التي أصبحت مدينةً كبيرة عامِرة بالسُّكان، وذلك بعد مرور ما يزيدُ عن أربعين عامًا. فصار الشّيخ عبد المنتقم يئُمُّ بالنّاس فيه إلى أن وافتهُ المَنيّة وهو في الرّابعة والثّمانين من العمر، ليموت عبد المنتقم وتموت معه أسطورة صيّاد الثّعابين.....

عميقًا في بطنها، فكأنّ روحها وقلبها كانا موجوديْن هناك؛ فما إن تلقّت تلك الطّعنة حتى لفظَت نفسٍ لها. ومعها توقّفت نبضاتُ قلبِ جنينها...

بعد أن أقام عبد المنتقم جنازةً لابنة عمّه في بيته وأعلنّ حِدادًا دام ثلاثة أيام، وتصدّق على روحها بعشراتِ الخِرفان.

كلّف مجموعةً من أمهر مُتعقّبي الأثر والجواسيس والقوّادين، بعد أن جادَ عليهم بمبالغ مالية تفوق رواتب ثلاثة أشهر كما وعدَ بمكافأة مُغريّة لمن يأتيه منهم بعبد الحكيم حيًّا!!!

لم يمُرَّ شهرًا حتّى أتاه به ثلاثة رجال، شابّيْن وكهل اتّحدوا ثلاثتهم وكمّنوا له في أحد مداجن تربية الدّجاج حيث كان يعمل، فأخرجوه من المِدجنة مقيّدًا بالحبال ووضعوه داخل شاحنة من نوع Mazdaمثلما توضَع الشّاة من الخلف...

كان عبد المنتقم عائدًا من الصّيد حيث خرج لاقتناص بعض الأرانب البرّية عندما وجد رجاله قد أتوه بأرنبٍ كبير الحجم، كان عبد الحكيم كبير الحجم بالنّسبة لأرنب، لكنّه أقصر من كلّ الرّجال الموجودين. نظر إليه عبد المنتقم وهو مازال على صهوة فرسٍ نظرة احتقار وهو لا يكاد يصدّق أن ذاك القزم السّمين الذي يشبه في هيئته دُمية الماتريوشكا الرّوسية قد قام باختطاف واغتصاب ابنة عمّه الوحيدة...

بعد أن ربطوا حبلاً في غُصن شجرة سروٍ يصل علوّه إلى نحو 3 أمتار، أمر عبد المنتقم بأن ينزعوا له ملابسه ويُعلّقوه من عُضوه الذّكري، وما إن فعلوا متجاهلين توسّلات عبد الحكيم انفجروا ضاحكين على حجم عُضوه الذي لم يتعدَّ حجم حبّة تمر؛ فشعر عبد الحكيم بإحراجٍ جعل لون وجهه المُستدير يتحوّل إلى لون حبّة طماطم فاسدة...

كان يصرُخ بأعلى صوته ويتوسّل إليهم كي ينزلوه وهو يشعر أنّ عضوه سينقطع من جذوره بفعل وزنه الثّقيل الذي كان ينجذب إلى الأرض، فما هي إلاّ دقائق حتى أُجتُثَّ العضو بكُرتيْه من بين فخذيْه المُشعّريْن كما تُقتَلع نبتةٌ ضارّة من جذورها؛ ليقع عبد الحكيم من ذاك العُلوّ على الأرض بوزنه الثّقيل. حبسَ كلّ الرّجال الشّاهدين على تلك العقوبة أنفاسهم لمّا رأوا بشاعة المنظر والإهانة التي كان يتعرّض لها ذاك البائس، فيما كان عبد المنتقم الواقف بجانبهم يشاهد بأعصابٍ باردة ترجمتْها ملامِحه الخالية من أيّة تعابير...

أخرجَ الرّجال عبد الحكيم الجريح من المزرعة ليرموه في مكانٍ بعيد في الجَبل ويتركوه هناك يواجه مصيره، فإن استطاع النّجاة فقد كُتبتْ له حياةٌ جديدة. فيما بقي عبد المنتقم في مكانه ينظرُ إلى العضو الذي بقي مُتدلّيًا في الحبل وهو لا يصدّق أن دودةً كتلك دخلت في جسد ريم وجعلتها تحبِل، فالتقط بُندقية الصّيد من سَرج فرسه وقام بإطلاق النّار على العضو الذّكري فنسفهُ!

ثمّ بصق في الهواء لاعنًا إسمَ ذاك المغتصِب الجبان...

* * *

لم يتوقّف عذابُ حنان السّعدية التي كانت ماتزال محبوسةً في قبو المُستودع، وإنّما نالت استراحةً قصيرة احتاج فيها سجّانُها إلى بعض الرّاحة لتصفية ذهنه وإعادة ترتيب أفكاره. وربّما كان حزينًا جدًّا على فقدانه لريم، حُزنٌ لم يعترف به حتّى لنفسه بسبب كبرياؤه وعزّة نفسه، وإن كان شعوره ذاك أقرب إلى النّدم على ما فعلهُ بها مؤخّرًا. بات يتمنّى لو أنّه أبقاها في المَصحّة العقليّة، على الأقل هناك يمكنه زيارتها ورؤيتها والتحدّث إليها والاستماع إلى ما يدور في رأسها.. رأسُها الذي عبث به بنفسه؛الآن سيتعيّن عليه أن يقف على قبرها الصّامت الأصمّ كلّما اشتاق إليها...

بعد أن انتهى من مسألة عبد الحكيم التفت إلى حنان السّعدية لينتهي منها هي الأخرى، فقد طال أمدُ عذابها وحان لها أن تستريح منه أخيرًا. أتى بكيسٍ من الخيْش مملوءٌ بالأفاعي التي قام بجمعها على مدى أسابيع واحتفظ بها في حوْض مياهٍ جاف حيث كان يرمي لها طعامها من ضفادع وفئران، نزلَ إلى القبو الذي كانت

السّعدية محبوسةً فيه، وقف ينظر إليها وهي مربوطةٌ في الجدار بسِلسلة لربط العجول. أفرغَ الكيس من الأفاعي وتركها معها بعد أن تحدّاها كي تستدعي عفاريتها لينقذوها من الأفاعي، ثمّ خرج وأوصد باب القبو خلفه...

عاد إليها بعد يومَيْن وانتشل جُثّتها التي ازرقّتْ نتيجة عشرات اللّدغات التي تعرّضت لها، ليدفِنها في قبرٍ مجهول في مقبرة السّحَرة الموجودة بمزرعته، والتي لم يكن قد دفَن فيها أيّ ساحرٍ أو ساحرةٍ منذ سنوات. لكن السّعدية لم ولن تكون آخر ضحاياه...

* * *

فحتى بعد أن تزوّجَ وأنجبَ استمرّ عبد المنتقم في اصطياد المُشعوذين وكلّ من يلجأ إليهم، فينتهي بهم الأمر دائمًا مقتولين بطرقٍ ووسائل تجعلهم يندمون على اختيارهم لذاك السّبيل. إلى أن كبُر وصار عجوزًا لا يقوى على الرّكض والضّرب والقنص والقتل كما كان في أيام شبابه، فكفّ عن ذلك واكتفى بالنّهي عن مُمارسة السّحر أو اللّجوء إلى مُمارسيه، وذلك في مسجد ((التّوبة)) الذي بناهُ من ماله الخاص منذ زمنٍ طويل في قرية القطاطشة التي أصبحت مدينةً كبيرة عامِرة بالسُّكان، وذلك بعد

مرور ما يزيدُ عن أربعين عامًا. فصار الشّيخ عبد المنتقم يئُمُّ بالنّاس فيه إلى أن وافتهُ المَنيّة وهو في الرّابعة والثّمانين من العمر، ليموت عبد المنتقم وتموت معه أسطورة صيّاد الثّعابين.....

سفيان الرّهيب

أجلست الأُمّ طفليْها ميسون وأيان أمام باب المنزل ليلعبا مع القطّة الصّغيرة التي كان قد أتى بها والدهما منذ أيّام من دار الجدّة في الرّيف حيث توجد عدّة صغار قطط وُلدت حديثًا، شعرَ أيان الأخ الأصغر بالضّجر سريعًا فأخرجت له الأُمّ ألعابه المتمثّلة في كُرة ورجل آلي وطائرة، كما وضعت أمامه طستٌ كبير ملأتهُ له بالماء وتركت فيه دُمية فُقمة صغيرة تسبح فيه. انشغل الطّفلان باللّعب في حين كانت القطّة الصّغيرة تلهو وتقفز بجانبهما وهي تطارد ذبابةً تارةً، وتارةً تركض خلف نملة حادت عن الصّف الذي تسير فيه بقيّة النّملات وهي تنقل حُبيْبات سُكّر انسكب القليل منه في رُكنٍ من رُدهة البيت، حيث كانت تجلس الأُمّ بالأمس مع جارتيْها يحتسيْن القهوة ويتحدّثن عن جريمة قتل وقعت قبل أيّام في بلدة بكّارية، والتي راح ضحيّتها فتاةٌ طالبة في الثّانوية قتلها زميلاها بعد أن اغتصباها في الوادي المُحاذي للثّانوية، ثم ألقيا بها تحت جسرٍ قديم يربط بين ضفّتيْن هناك، وذلك على حدّ قولهما عندما اعترفا لاحقًا بجريمتهما كاملةً بعد أن علِما أنّ أحد المُشرّدين الذي كان يبحث في القُمامة المرميّة بمُحاذاة الجسر عمّا

قد يجده من طعام يؤكَل، فرآهما وهما يرميان بجُثّة الفتاة تحت الجسر دون أن ينتبها لوجوده هناك. وقد ظلّت هذه الجريمة الشّنعاء حديث الناس طيلة ذاك الأسبوع...

في تلك الأثناء وعلى بُعد بضعة أمتار كان سُفيان ذو الثّمانية أعوام يركب درّاجته الهوائية ويقودها في الجوار، والتي كانت قد اشتراها له عشيق والدته الأرملة قبل أيام. كان سُفيان يطارد الخنافس والجراد والدّعسوقات والنّمل وكلّ حشرةٍ تدبّ على الأرض يمكنه رصدها فيدوسها بعجلة درّاجته فيسحقها، كان يجد في ذلك مُتعةً كبيرة على خِلاف بعض أقرانه من أولاد الحيّ الذين كانوا يمتلكون درّاجات هوائيّة يتسابقون بها على الطّريق الإسفلتي الرّابط بين البلدة والقرية الصّفراء التي تبعُد مسافة ثلاثة أميال.

ولكونه ذاك الطّفل الفقير واليتيم في الحيّ إلى جانب كونه ابن حياة العاهرة التي ينبُذها كلُّ الجيران، ممّا جعله منبوذًا من قِبل أبنائهم بدوره فلم يسمحوا له باللّعب معهم أو حتى الاقتراب منهم. فكثيرًا ما حاول أشراف سكّان حي بابا قيرا موزس طرْدها من هناك لكونها تُسيء لسُمعة حيّهم لأنّها تسمحُ للغرباء بالدّخول إلى بيتها الذي صار وكْر دعارة، خاصّةً وأنّ كلّ زبائنها كانوا من صعاليك

البلدة. لصوصٌ وقطّاع طُرق ومُروّجي مَمنوعات وكلّ من لديهم سوابق عدليّة، فسادَ الفسادُ في الحيّ وصار كثيرٌ من شبابه يتعاطون المخدّرات ويسطون على منازل الأثرياء فيه ويعتدون على بعضهم البعض. وذلك لمّا احتكّوا بأولئك الصّعاليك الذين كانوا يأتون لمنزل حياة.

غير أنّ محاولات الأشراف في طردها من الحيّ كانت تفشل دائمًا، وذلك بسبب أشرافٍ آخرين كانوا من بين زبائن حياة، أولئك الذين يندّدوا بأفعالها المُشينة في النّهار وفي اللّيل ينامون عندها بين أحضانها وأحضان بعض صديقاتها العاهرات اللّاتي كنّ ينضمِمْن إليها أحيانًا.

لم تكن تلك الخنافس والنّملات والجرادات والدّعسوقات إلاّ فِتيان وفتيات الحيّ الذين كان يكرههم سُفيان، أو هكذا كان يتخيّلهم وهو يدوسم بواسطة عجلة درّاجته، متمنّيًّا لو كانت شاحنة كبيرة فيطاردهم بها في أنحاء الحيّ ويسحق عظامهم بعجلاتها الكبيرة فيمحوهم من الوجود.

توقّف سُفيان عندما رأى ميسون وأخاها أيان يركُضان وراء فراشة كانت تطير حول واجهة منزلهم محاولةً الاقتراب من شجرة

اللّيمون التي كانت أزهارها تفوح بأريجٍ يأسر الفراشات والنّحل والدّبابير. رأى سُفيان القطّة الصّغيرة تلهو بمفردها بعد أن ابتعد عنها الطّفلان المنشغلان بمطاردة الفراشة، فنزل من على درّاجته وتقدّم نحوها ودون أن يلاحظه أحد أمسك بالقطّة من عُنقها وغمر رأسها في ماء الطّست وأرغمها على ابتلاع الماء وهي تتخبّط في يأسٍ كي تُفلت من يده، لم تمضِ إلاّ بضعة ثواني حتّى لفظت القطّة الصّغيرة آخر أنفاسها فأفلتها سُفيان تاركًا إيّاها جثّةً هامدة تطفو في ماء الطّست.

ركب درّاجته وقادها مُبتعدًا من هناك قبل أن يراه الطّفلان، ليسمع بعد لحظات صوتهما وهما يصيحان مستنجدين بأمّهما فخرجت الأُمّ من المنزل تجري وبقايا عجينة الكِسرة التي كانت تحضّرها عالقة في يديها، للتتفاجئ بابنتها تأتيها حاملةً القطّة الميتة وهي تبكي، فحزنت الأُمّ على ما حدث للقطّة وألقت باللّوم على ميسون لتركها بمفردها حتى سقطت داخل الطّست فغرِقت. أو هكذا اعتقدت.

قاد سُفيان درّاجته بالقُرب من الطّريق الإسفلتيّ حيث كان فِتيةٌ من أبناء الحيّ يركبون درّاجاتهم ويخوضون السّباقات

ويعيشون المغامرات متخيّلين أنفسهم كأبطال المسلسل الكرتوني Biker Mice From Mars، فيما كان بعضهم يقفون على جانبيْ الطّريق وهم يهتِفون ويصيحون لأصحابهم مُشجّعين إيّاهم كي يفوزوا على مُنافسيهم في السّباق، أو يختاروا الإنضمام إلى أحد الفريقيْن عندما يقرّرون مثلاً لعِبَ لُعبة الشّرطة واللّصوص.

انتبه بعضهم لوجود سُفيان بالقرب منهم فالتقطوا الحِجارة وقذفوه بها وهم يشتمونه بأقذع العِبارات وأقذر الألفاظ ناعتين إيّاه باللّقيط وابن العاهرة. فهرب من هناك وتوقّف في مكانٍ آمن وراح يمسح عبَراته وهو ينظر إليهم من بعيد داعيًا الله أن يرسل عليهم شاحنةً كبيرة تسير بسرعة فتسحقهم جميعًا.

ثمّ راح يتسائل في نفسه عن الذّنْب الذي ارتكبه فيما كانت تفعله والدته، وإذا ما كان يستحقّ أن يُعامَل بتلك الطّريقة من قِبل أطفالٍ أيٌّ منهم كان يمكن أن يجعله القدَر ابنٌ لامرأةٍ عاهرة!!

بعد أن هدأت نفسه وجفّت دموعه أخذ حجَرًا وألقاه على زوْج من الخنافس كانا يُدحرِجان كُرةَ روْث غنم فسحقهما تحته.

قاد درّاجته ناحية بُستان لوْزٍ مهجور كان صاحبه المدعو عَثْمان جْرِيوات قد استأجره لأحد رُعاة الغنم كي يرعى فيه فتأكل ما كان ينمو فيه من كَلأ. فبعد أن جفّت البئر التي كان جْرِيوات يسقي منها أشجار اللّوْز التي تُعدُّ بالعشرات، ولأنّه لم يجد دعمًا ماديًّا من البلدية ليُجدّد بئره أو يحفر أخرى جديدة، فلم يكن أمامه إلاّ أن يؤجّره للرّعاة فيزرعونه قمحًا ويحصدوا المحصول في الصّيف. أمّا أشجار اللّوْز ففي أقل من خمس سنوات يبُس نصفها ولم تعُد تُثمِر، فيما مات نِصفها الآخر وصارت تُستخدم أغصانها كحطب يستفيد منه بعض الشّبان الذين كانوا يأتون إلى هناك ويجلبوا معهم خمرًا أو حشيشًا كي يسهروا ويسكروا فيه، فيوقدوا نارًا داخل الكوخ الذي كان يسكنه جْرِيوات في السّابق، فيغذّونها بأعوادٍ يابسةٍ يقطعونها من الأغصان.

ترك سُفيان درّاجته مركونةً بمحاذاة السّياج الشّائك المحيط بالبُستان وعبر من خلال فُتحةٍ فيه أحدثها السكّيرون الذين كانوا يأتون إلى هناك مِرارًا، كان يبحث عن أعشاش العصافير والحمام التي كانت كثيرًا ما تتّخذ من أغصان أشجار اللّوْز أوكارًا لها، لمح مجموعةً من الأعشاش المتوزّعة على ثلاث أو أربع أشجار فتسلّق

كلاً منها على حِدى، فخرّب تلك التي لم تفقَس بيوضها بعد أن وضع البيوض في جيوب سُترته، أمّا الأعشاش التي كانت بها فِراخ صغيرة والتي بالكاد نما على أجسادها زغب، فجمعها كلّها في عُشٍّ واحد كان قد أنزله من الشّجرة وأخذها معه، وضع العُشّ الذي كان به ما مجموعه تسعُ فِراخ في سلّة الدرّاجة وغادر البُستان. قاد درّاجته مباشرة باتجاه الأولاد الذين كانوا قد قذفوه بالحِجارة قبل قليل، وما إن وصل إليهم أمسك ببيوض الحمام وراح يصوّبها نحوهم بالواحد وهم متجمّعون حول درّاجة أحدهم كانت قد تفكّكت سِلسلة ترْسها، فجلسوا ليساعدوه على إصلاحها، ليتفاجئوا بوابلٍ من البيوض تسقط عليهم من حيث لم يعلموا وممّن لم يتوقّعوه سيتجرّأ عليهم.

أصاب سُفيان ثلاثةٌ منهم على رؤوسهم ووجوهم دون أن يتوقّف أو حتّى يُخفّف من سُرعة درّاجته التي كان يقودها بمهارةٍ عالية، فضحِك عليهم ساخرًا ثمّ أشار إليهم بأصبعه الوسطى وهو يُخرج لسانه مستفزًّا إيّاهم.

دون تـردّد ركـب خمسـةٌ مـنهم درّاجـاتهم وانطلقـوا وراءه كـي يلحقوا به ويلقّنوه درسًا لن ينساه لتجرّأه عليهم، فيما بقي الإثنان الآخران يتعاونان على تصليح الدّراجة المُعطّلة.

لم يهرب سُفيان إلى منزلهم كما يفعل معظم الأطفال عادةً، بل تابع القيادة على الطّريق المؤدّي للقرية الصّفراء وذلك ليتحدّاهم كي يلحقـوا بـه، فكثيرًا مـا أخبرهم أنّـه سـوف يتفـوّق علـيهم إذا مـا تركوه يشارك في السّباق. وربّما لأنّهم يعلموا مدى مهارته في القيادة منعوه من اللّعب معهم حتى لا يتعرّضوا للهزيمة على يد ((اللّقيط وابن العاهرة!)) فتكون إهانةً لهم وهم الذين يعُدّون أنفسهم أبناء أشراف وأثرياء الحيّ.

حاول الأولاد اللّحاق به وهم يبذلون قصارى جهدهم إلاّ أنّهم لـم يتمكّنـوا مـن ذلـك، فاستسـلم أربعـة منهم وعـادوا خـائبين وهـم يتوعّدون سُـفيان الوعيـد إذا مـا أمسـكوا بـه في يـومٍ مـا. أمّـا نبيـل، والـذي كان يمتلـك أسـرع درّاجـة وعضـلات أقـوى مـن البقيّـة فقـد اسـتمرّ في الضّـغط على الدوّاسـتيْن بسُـرعةٍ قصـوى كي يلحـق بسُفيان الذي كان يقود درّاجته بأقصى سُرعةٍ كان قد وصل إليها في حياته، فخاف أن تسقط الفِراخ من العُشّ الذي كان يهتز داخل

السّلة بقوّة بفعل الرّيح، وبسبب ذلك راح يخفّف من سرعته شيئًا فشيئًا حتّى أوشك نبيل على اللّحاق به، لم يكن أمام سُفيان إلاّ أن يناوره فيدور من حوله ويهرب منه عائدًا من حيث أتى، لكنّه سيقع في أيدي أصدقائه الذين كانوا في الخلف بانتظاره. فكان لا بدّ له من اتّخاذ حقول القمح الواقعة على طرفيْ الطّريق مهربًا له من نبيل الذي كان سيُبرحه ضربًا إذا ما أمسك به.

وبخفّة سائق درّاجة محترف وجّه سُفيان مقوده يمينًا وانحرف جهة الحقل الذي كانت تُربته وعرةً وصلبة ومليئة بالأشواك والحصى التي كانت تنمو وسط ملايين من سيقان السّنابل التي يصل طولها إلى نصف متر، والتي لم تكن قد نضُجت بعد. توقّف نبيل والدّهشة تعلو وجهه المستدير الذي كان قد احمرّ وسال العرق على أوداجه جرّاء القيادة بسرعةٍ كبيرة لمسافةٍ طويلة، بقي ينظر إلى سُفيان وهو يقود درّاجته وسط الحقل مبتعدًا عنه حتى صار يبدو له كنقطة سوداء في بساطٍ أصفر. فعاد أدراجه هو الآخر متوعّدًا سُفيان بأنّه لن يعود إلى بيتهم قبل أن ينال نصيبه من الضّرب المُبرح لقاء البيضة التي أصابه بها في رأسه.

بعد أن اطمئنّ سُفيان أنّه صار بمأمنٍ من أولاد الحيّ توقّف في مكان يوجد به حجرٌ كبير فجلس هناك ليلتقط أنفاسه لبُرهة، ثمّ بعد ذلك خرج من حقل القمح عابرًا الحقل المجاور له والذي كان مزروعًا بالقمح أيضًا، تتخلّله نباتات التّين الشّوْكي المنتشرة بشكلٍ عشوائيّ فيه، ويشاع أنّه يعيش بين نباتات التّين الشّوْكي تلك ثُعبانٌ كبيرٌ لم يشهد سكّان البلدة ثعابين في مثل حجمه، وقليلون هم الذين رأوه.

عبر ذلك الحقل وهو يلتفت شمالاً ويمينًا في ارتياب وخيفة من أن يفاجئه ذاك الثّعبان الأسطوري ويهاجمه ليلتهِمه، فقد تخيّل حجمه كحجم الثّعبان "كا" في المسلسل الكرتوني ماوكلي فتى الأدغال.

لم يستطع سفيان حبْس بوْله أكثر وأحسّ بأنّ مثانته تكاد تنفجر فركن درّاجته بشكل مائل مُسندًا إيّاها على نبتة تينٍ شوْكي قريبة وفتح سحّاب سرواله وراح يبول فأطلق تنهيدة ارتياح طويلة وهو ينظر إلى السّماء التي كانت تتوزّع فيها السّحُب. بعد أن تبوّلَ أخذ الدرّاجة ودفعها ليُتابع طريقه سيْرًا بسبب الحِجارة والصّخور المنتشرة في المكان ممّا يتعذّر عليه قيادتها هناك. فجأةً سمع صوت

حركةٍ خلف إحدى نباتات الصّبار القريبة، فتوقّف عن المشي وكادت تتوقّف نبضات قلبه من الخوف، فإذا كان ذلك الصّوت مصدره الثّعبان الكبير فهذا يعني أنّه بمثابة فأر بالنّسبة لثُعبان بحجمه، خاصّة وأنّ مَخرَج الحقل كان ما يزال بعيدًا ومهما ركض فسوف يلحق به الثّعبان لا مَحالة!

رأى الأحراش تتحرّك مرّةً أخرى فتجمّد في مكانه وابتلع ريقه وركّز نظره على ذاك المكان ليرى ما قد يخرج منه، بقي في تلك الوضعية لثوانٍ قبل أن يتشجّع ويقرّر الابتعاد من هناك بخطوات بطيئة وحذرة حتى لا يُحدث أيّة ضجّة. سار لنحو ثلاثين مترًا تقريبًا دون أن يظهر له أيّ ثُعبان، فتملّكه الفضول وقرّر الإلتفاف حول الأحراش التي أتى من خلفها ليرى ما الذي كان يتحرّك هناك، فرؤية ذاك الثّعبان العظيم تستحق المخاطرة في كلّ الأحوال، فقلّة من سكّان البلدة فقط من رأوه كما يقال وسوف تكون مَدعاةً للفخر بالنّسبة له أن يكون أحد أولئك القلّة.

لفَّ سفيان حول تلك الأحراش مُستعينًا بمجموعة من الصّخور المُكوّمة بالقرب فمشى بمحاذاتها حريصًا على أن لا تدوس قدماه أي غصن يابس أو قشّة فتُحدِث أيّ صوت فينتبه له

الثّعبان، وما إن رفع رأسه من خلف صخرة ذات نتوءات حتى رأى الثّعبان يتحرّك... رآه وهو يدخل في جُحرٍ ضيّق؛ لم يكن بالحجم الذي كان يتخيّله بل كان أصغر بكثيرٍ من ذلك، بل إنّه لم يكن ثعبانًا حقيقيًّا حتى، فقد كان عضوٌ ذكريّ لرجل كان يُقحمه في فُتحة شرج أحد الأولاد الذي كان مُنحنٍ على ركبتيْه في وضعية الكلب وهو يئِن، وذاك الرّجل يأتيه من الخلف غير مُدركٍ بأنّ أحدهم كان يشاهدهما في وضعيتهما المُخلّة بالحياء تلك.

لم يكن ذاك الرّجل إلاّ العجوز عبّود مالك أحد أكبر حقول القمح في تلك النّاحية، وقد كان في ذاك اليوم يراقب قطيع أغنامه التي يرعاها له مُحمّد، ابن رجلٍ فقير يعمل عنده في الزّريبة نهارًا ويحرُس له غنمه ليلاً، وكان يُعينه في ذلك أفراد عائلته الذين يسكنون معه في بيتٍ حقيرٍ ملاصقًا للزّريبة. وقد كان مُحمّد صبيٌّ صغير لم يتعدَّ سنّ العاشرة، أي في مثل سنّ سفيان تقريبًا. اشمئزّ سفيان من ذاك المنظر فبصق على الأرض متقزّزًا ثمّ أخذ حجرًا بحجم قبضة يده وصوّبه نحو العجوز عبّود قاصدًا إصابته في كُرتيْه الكبيرتيْن المتدلّي كيسهما المُشعّر فيكاد يلامس الأرض، ما إن قذفه سفيان بالحَجر حتى صاح العجوز عبّود بأعلى صوته متألّمًا،

فقد أصابه الحَجر بالضّبط حيث أراد سفيان. أطلق العجوز عبّود شتيمةً لمّا رأى الفاعل وهو يختبىء وراء الصّخور، فرفع سرواله القندريسي الأبيض الفَضفاض وربط حزامه على عجَل وحمل عُكّازه المُلقى على الأرض وراح يركض وراء سفيان الذي كان قد أطلق ساقيْه للرّيح مسبقًا لمّا رأى أنّ العجوز عازمٌ على ضربه ضربًا مبرِحًا على فِعلته إذا ما أمسكه وهو يلوّح بعُكّازه في الهواء.

أمّا مُحمّد فقد رفع بِنطاله المُهترىء المُرقَّع وابتعد من هناك هو الآخر، مستغلاً انشغال العجوز عبّود بمُطاردة ذاك الطّفل الذي فضح أمرهما، فهو لم يكن يحبّ فِعل ما يُرغمه عليه العجوز الكريه، ولكنّه ككثيرٍ من ضحايا التحرّش والاغتصاب يكونون في العادة ضِعاف الشّخصية ويخشون ردّة فعل أهاليهم إذا ما أخبروهم عمّا يحصل لهم، وأكثر ما يخشونه هو كلام النّاس وحُكمهم عليهم عندما يُفتضَح أمرهم، لذا فهم غالبًا ما يفضّلون البقاء تحت سطوة مُغتصبيهم في السرّ على أن ينتهي كلّ ذلك بشكلٍ علنيّ.

عاد العجوز عبّود بعد دقائق لمّا عجز عن الإمساك بذاك الطّفل الشّقي سفيان، والذي لم يسبق له رؤيته من قبل ولا عرف من يكون. كان يمشي بصعوبة من شدّ الألم مُباعدًا بين ساقيه مثل طفلٍ مختونٍ حديثًا. جلس في مكانه وراح يتحسّس عضوه وخصيتيْه وهو يتوعّدُ غريمه بأن يحشُر له العُكّاز في فُتحة شرجه إن أمسك به! نادى بعد ذلك على الصّبي مُحمّد إلاّ أنّه لم يأتيه فعرف أنّه ابتعد مع قطيع الغنم، فمنّى نفسه بالاستمتاع به لاحقًا ثمّ استند على حجرٍ ليأخذ قيلولةً قصيرة قبل أن يعود إلى داره.

في تلك الأثناء كان سفيان واقفًا بجانب درّاجته حيث تركها بين نباتات الصّبار، فوجد أنّ الفِراخ التي جمعها في السّلة قد اختفت جميعًا، فرجّح أنّ قطًّا أو حيّةً ما قد تسلّلت إليهم والتهمتهم، فلعَن سوءَ حظّه.

استاء من ذلك وألقى باللّوم على ذاك العجوز اللّوطي، كان لابدّ أن يُلقي باللّوم على أحدهم ولم يكن هناك غير العجوز عبّود فعزَم على الانتقام منه. تحسّسَ جيوبه فوجد أنّ عُلبة الكبريت معه وقد كان بها عدّة أعواد ثِقاب، كثيرًا ما كان يحتفظ بعُلبة كبريت أو سكّينٍ صغيرة، فهو لن يعلم أبدًا متى قد يحتاجهما.

عاد مُتسلّلاً بحذرٍ إلى المكان الذي كان ينام العجوز فيه بعد أن تأكّد أنّ الصّبي الرّاعي يقف بعيدًا مع قطيع الأغنام، وما إن اقترب بما يكفي أشعل أعواد الثّقاب التي معه وراح يُلقي بها في الزّرع بشكلٍ دائري حول ذلك المكان، وما إن رأى النّار بدأت تلتهم السّنابل ركض عائدًا إلى درّاجته فأخذها وغادر الحقل من الجانب الآخر قبل أن يراه أيّ شخص.

استفاق العجوز عبّود على صوت ألسنة اللّهب تلتهم سيقان السّنابل من حوله فوجد نفسه مُحاطاً بها من كلّ جانب، فقام من غفوته مذعورًا مُعتقدًا لِلحظة أنّه في يوم البعث وأنّ مصيره آلَ إلى نار جهنّم؛ ثم تيقّن أنّه مازال في الحياة الدّنيا لمّا رأى جبل بورمّان مازال شامخًا تحت سماء بلدة بكّارية. فراح يصيح ويستصرخ طلبًا للنّجدة لمّا اقتربت منه النّيران بسرعة ولهيبُها الحارق يحاصره من كلّ جهة.

في تلك اللّحظة كان مُحمّد منهمكًا بمساعدة جرادةٍ على الطّيران بعد أن داستها حوافر أحد الأغنام فانكسر جناحها، وعندما سمع الصّياح قام ونظر إلى مكان مصدر الصّوت فعرف أنّه لابدّ أن يكون العجوز عبّود في مأزق، وبدون تردّد انطلق راكضًا

نحو مكان الحريق كي يرى ما يمكن فعله لأجله، لكنّه لمّا صار على بُعد مسافةٍ قريبة منه ورآه وهو يحاول يائسًا دفع ألسنة النّار عنه، توقّف الصّبيُّ فجأةً وراح يتذكّر كيف كان يعتدي عليه كُلّما تسنّت له فرصة لذلك. في الحقل في المرعى في الزّريبة... حتى أنّه في أحد المرّات استدرجه إلى بيته عندما كانت امرأته وبناته يحضُرن حفل زفاف أحد الأقارب في المدينة، فأدخَلَ مُحمّد إلى غرفة النّوم بعد أن أوكلَ مهمّة رعي الأغنام لأخويْه الصّغيريْن، وتأكّد من أنّ والده ذهب ليشتري بعض الأغراض لبيته من البلدة، وهناك ناكَه كما ينيكُ الرّجلُ زوجهُ؛

مرَّ شريطُ الذّكرياتِ المُخزية أمام عينيْ مُحمّد المُغرورقتيْن بالدّموع وهو يرى العجوز الذي هتكَ عِرضه وهو يحترق حيًّا، أحسّ بشيءٍ من الرّضا وهو يرى الأمور تأخذ مجراها الطّبيعي، كان ما يزال جِدُّ صغير على فهم الأمور من ذاك المنظور وبذاك العُمق، ولكنّه بفعل غريزة الإنسان فهِم أنّ تلك لم تكن إلاّ العدالة الإلهيّة التي أخذت له بحقّه من الرّجل الذي سحقه نفسيًّا طيلة سنتيْن كاملتيْن. ففي داخله كان شاكرًا للنّار التي انقمت له منه، وربّما لو أنّه نشأ في بيئةٍ غير إسلاميّة لتحَوّل من يومها إلى الدّيانة

المجوسيّة، ولكرّس حياته لعِبادة نارِها المُقدّسة شُكرًا وعِرفانًا لها؛ فلو أنّ أحدهم نظر إلى وجهه في تلك اللّحظة لرأى دمعةً وابتسامة تعلوان صفحة وجهه الصّغير المُتعَب.

لم تمُرّ ربعُ ساعة حتى تجمّع النّاس حول حقل القمح الذي كانت النّيران قد التهمت نصفه، توقّفت السّيارات والشّاحنات وتجمهرت الحشود ليروا ذاك المشهد الذي لا يحدث كلّ يوم، أمّا سفيان فقد اتّخذ لنفسه مكانًا عاليًا فوق جدار أحد المباني غير مُكتمَلة البناء في الحيّ، وجلس هناك يستمتع بمُشاهدة الحريق وهو يتناول حبّات تين كان قد اقتطفها من أشجار التّين وملأ بها سلّته وهو يهمّ بمغادرة الحقل الذي أضرم فيه النّار بنفسه، فلم يكن ينقصُه إلاّ آلة الكمان حتى يكتمل المشهدُ المسرحي فيصبح مثل الامبراطور الرّوماني "نيرون" الذي أخذ يعزف مقطوعةً بينما كان يستمتع بمُشاهدة مدينة روما وهي تحترق أمامه.

بعد نحو عشرين دقيقة وصلت شاحنتا اطفاء تسبقهما سياراتان تابعتان للدّرك الوطني، رغم أنّ مركز الحماية المدنية لا يبعُد كثيرًا عن مكان الحريق إلاّ أنّه كالمعتاد أعوان الحماية المدنيّة الجزائريّة سيصلون متأخّرين دومًا، ومع ذلك فقد نجحوا في

تطويق النّيران في الجانب الذي تقع فيه المباني السّكنية والزّريبة، فنجا السّكان والمواشي من الحريق، أمّا أشجار التّين المنتشرة في بقية الحقل فقد أتت عليها النّيران من كلّ جهةٍ فلم تُبقِ عليها ولم تذَرْ.

استطاع مُحمّد أن يُبعد قطيع الغنم عن منطقة الخطر لمّا ساقها إلى الحقل المجاور الذي يفصل بينه وبين حقل العجوز عبّود طريقٌ تُرابية، لاحقًا وبعد أن خمدت النّيران أعاد القطيع إلى الزّريبة بمعاونة كلبيْ الرّعي اللّذان يتبعان القطيع أينما ذهب. إلاّ أنّه لم يأتِ على ذِكر رؤيته للعجوز عبّود وموته مُحترقًا، فقد ملأ بطنه في تلك اللّيلة حتى شبع ثمّ نام قرير العين كما لم ينم في حياته.

فلم يتمّ اكتشاف جثّة العجوز عبّود إلاّ بعد يومين من حادث الحريق، وذاك لمّا كثّف أعوان الدّرك والحماية المدنيّة البحث عنه في كلّ أرجاء الحقل المحترق والممتد على مساحة 6 هِكتارات، ليجد أحد الشّبان جثّته المُتفحّمة والمتيبّسة بين بقايا نباتات الصّبار المُحترقة، فتمّ انتشال الجثّة ونقلها على متن سيارة إسعاف

مباشرةً إلى المِشرحة حتى يرى المحقّقون إذا ما كان سبب الوفاة طبيعيّا أو أنّ هناك جريمة قتل.

في الأخير لم تظهر أيّ أدلة أو علامات تُثبت حدوث جريمة قتل، قد أكّد الطّبُ الشّرعي بأنّ وفاة العجوز كانت بفعل الاحتراق، غير أنّ سبب الحريق ظلّ مجهولاً ولم يتمّ توجيه أيّ تُهمٍ لأيّ شخص، وذلك لغياب الشّهود وقت وقوع الحادث.

وكأيّ يومٍ عادي، خرج سفيان في اليوم التّالي ليلعبَ كما لو أنّه لم يحدُث شيءٌ بالأمس، التقى في الخارج بمعتز ابن أخت جارتهم نادية، والذي كان يأتي من حين لحينٍ ليلعب مع ابنتها فاطمة الزّهراء، وكثيرًا ما كان يبيت عندها لأيّام. وقد كانت فاطمة الزّهراء تستلطِف سُفيان ولم تكن تعتبرهُ لقيطًا كما كان يراه بقيّةُ أطفالُ الحيّ، حتى إن والِدتها كانت تُحسِن إلى والدتهُ وتقدِّم لها يد العوْن عندما تحتاج مالاً لشراء غرضٍ ما، أو ترسل لها خُضارًا أو بهارات من أجل الطّبخ عند الحاجة. ومن بين كلّ الجيران كان سُفيان يُطيع كلام جارتهم نادية عندما تأمره بالدّخول إلى بيتهم لمّا يتأخّر الوقت، أو لمّا تنهاهُ عن افتعال شِجارٍ مع أبناء الجيران. فقد كانت بمثابة الخالة بالنّسبة إليه، وهذا يجعله ومعتز الذي يكبره بعامَيْن

في مقام أبناء الخالات، أو هكذا كان يقول سُفيان لنفسه عندما يرى معتز.

فرِح سُفيان كثيرًا عند رؤية معتز فتعانق الصّاحبان اللّذان لم يلتقيا منذ عُطلة الرّبيع.

في تلك الصّبيحة كان نبيل وأصدقاءه يلعبون بالكُرة بالجوار ولكنّهم لم يقتربوا من سُفيان لينفّذوا فيه وعيدهم لمّا رأوه رفقة ولدٍ آخر، فهو الآن لديه حليف وهم يجهلون مدى قوّة أو ضُعف حليفه، لذلك تريّثوا قليلاً حتى يختبروه ليروا إذا ما كانا سيشكّلان خطرًا أكبر وهما متّحديْن معًا.

كان معتز يمتلك لعبة أتاري محمول فجلسا أمام الباب وأخذا يلعبان لعبة تيتريس بالتّداول، إلى أن أصابهما الملل بعد ساعة فترك معتز لعبته في بيت خالته وراحا يبحثان عمّا يتسلّيان به، وبينما هما يتجوّلان في أنحاء الحيّ لمح سُفيان ضفدعًا يقفز بجانب أحد المنازل، التقط حجرًا وهمّ بقتله به لكنّ معتز أوقفه واقترح عليه طريقة أفضل لقتله. التقط معتز الضّفدع بيده ووضعه تحت دلو قديم كي لا يهرب ثم قصدا أحد أكشاك بيع التّبغ واشتريا سيجارةً بالنّقود التي كانت معه، فيما كان سفيان يتبعه

وهو لا فِكرة لديه عمّا كان يفكّر به معتز، كان سُفيان يرى في معتز الأخ الذي لم تلده أُمّه، توأمه الشّرير الذي لم تنعم عليه به الطّبيعة بعد أن حرمَتهُ من توأم روحه الحقيقيّة "هُدى"، شقيقته الكبرى التي توفّيت غرقًا في حادثٍ غامض عندما كان هو طِفلاً رضيعًا...

رجع الولَدان إلى مكان الضّفدع وأخرجاه من تحت الدّلو، ثم أخذ معتز السّيجارة ووضعها في فم الضّفدع وأشعلها، جلس على الأرض وطلب من سُفيان أن يتفرّج، وبعد أقل من دقيقتيْن بدأت رئتا الضّفدع بالإنتفاخ قبل أن ينفجر بطنه مُحْدثًا ثُقبًا صغيرًا بحجم القطعة النّقدية، انفجر سُفيان ضاحكًا على ما حدث للتّو حتى سقط على قفاه من شدّة الضّحك، راقت له الفكرة كثيرًا فقرّر البحث عن مزيدٍ من الضّفادع ليقوما بإعادة التّجربة عليها.

وأمضى الولدان صبيحة ذلك اليوم في البحث عن الضّفادع وإرغامها على استنشاق دخّان السّجائر إلى أن تنفجر رئتاها. فكان بعضها يموت فورًا وبعضها الآخر كان ينُطّ بضعة أمتار قبل أن ينفُق، وسفيان ومعتز يضحكان بهستيريّة على تلك المخلوقات البائسة وهي تموت بتلك الطّريقة.

كان نبيل ورِفاقه يراقبون ذلك من بعيد وكلّما ترك سُفيان ومعتز ضفدعًا ميْتًا راحوا ليُلقوا عليه نظرة ليتفاجئوا بما حصل له وهُم مستغربون من ذلك دون أن يفهموا كيف قتل الولدان الشّقيان تلك الضّفادع. لكن سُرعان ما مَلّ الاثنان من تلك اللّعبة فاقترح معتز أن يبحثا عن بطّاريات سيارات مُستعمَلة في مكبّ النّفايات الموجود في شارعٍ قريب، حيث كان بشير الميكانيكي يرمي قطع غيّار لم تعد صالحة للاستعمال. لم يفهم سُفيان ما الذي كان يريد معتز أن يفعله، ولأنّ معتز كان يفضّل التكتّم عمّا يفكّر فيه ليُضْفي عنصر المفاجأة إمتثلَ له سُفيان واكتفى بالبحث عن البطّاريات المُستعملة مِثله، كما فعل نبيُّ الله موسى وهو يتبعُ الخُضْر ويتعلّم ممّا كان يقوم به في صمتْ. غير أنّهما كِليهما كانا أقرب اتّصافًا بالسّامري؛

بعد وقتٍ قصير من البحث والتّنقيب في القُمامة بين قِطع الغِيار عثرا على بطّارية سيارة قديمة، فحملاها معا ونقلاها إلى مكانٍ تكثُر فيه جحور النّمل وهناك قام معتز بكسر غِلاف البطّارية الخارجيّ بواسطة حجَر إلى أن أطلّ على الألواح العازلة المصفوفة بداخلها، ثم طلب من سُفيان أن يساعده في قلْب

البطّارية لينسكب السّائل الذي بداخلها وهو يحذِّره من لمسه، فما إن سال المحلول الحِمضيّ خارج البطّارية حتى راحت التّربة تتحلّل عندما تغلغلَ في جُزيْئاتها، ففُوجئ سُفيان برؤية أجساد النّمل وهي تتفسّخ بفعل تلك المادّة الحِمضية، وبدأت تلك المخلوقات الصّغيرة تختفي وكأنّها تتبخّر، فيما كان معتز يضحك ضِحكة الانتصار المعهودة كلّما شعر بأنّه قام بأمرٍ مُذهل وهو يرى الدّهشة على ملامح صديقه.

غمرَ المحلول الحِمضيّ جحور النّمل وكطوفان من الآسيد يجتاح قبيلة أو مدينة، أخذ السّائل يغمر حجُرات ومَمرّات كلّ جُحرٍ من تلك الجحور المحفورة قريبة من بعضها البعض، مُدمّرًا ما بَنَتْه مُستعمَرات النّمل لأسابيع وربّما لشهورٍ طويلة من العمل الشّاق مُخلّفًا وراءه خرابًا عامًّا بعد أن عامت الآلاف من النّملات العاملات والجنود وملِكتهم، بما فيها البيوض وقُوت يومهم ومخزون شتاء لم يعيشوا ليروه.

في تلك اللّحظة نظرت الخالة نادية إلى ساعة الحائط فرأت أن الوقت قد اقترب من الثّانية عشر والنّصف زوالاً ومعتز لم يعُد بعد، فأرسلت ابنتها فاطمة الزّهراء كي تُنادي عليه كي يعود إلى

البيت لمّا حان موعد الغداء. وما إن نادتهما فاطمة عاد على الفور كلّ من معتز وسُفيان إلى بيتيْهما وهما يودّعان بعضهما على أن يلتقيا في المساء ليُواصلا اللّعب.

بعد تناول طعام الغداء وككُلّ يومٍ فرضت الخالة نادية على فاطمة الزّهراء ومعتز أخذ قيْلولة كي يستريحا من كثرة اللّعب وتهنأ هي ببعض الهدوء. أطفأت الأنوار واتّكأت على أريكة غُرفة المعيشة وشغّلت التلفاز بصوتٍ خافض لتشاهد فيلمًا مِصريًّا كلاسيكيّ على إحدى القنوات الفضائية، في ذاك اليوم عُرض فيلم ((البنات والصّيف)) بطولة عبد الحليم حافظ وسعاد حسني، فلمّا استرقت فاطمة الزّهراء النّظر من وراء الباب رأت المشهد الذي كان فيه كمال الشّناوي يلتهم شِفاه مريم فخر الدّين. وبصوتٍ خافت نادت فاطمة على معتز الذي كان مستلقيًا في فراشه فانضمّ إليها، ولمّا رأى المشهد الرّومانسي راقته الطّريقة التي كان المُمثّلان يتبادلان فيها القُبلات، نظر إليها نظرةٍ خبيثة فوجدها تحدّق فيه وهي تعضّ على شفتيْها، عاد الطّفلان بسرعة واستلقيا على المَرتبة وراحا يقلّدان طريقة المُمثّلَيْن في التّقبيل، فاستمتعا بتلك التجربة أيمّا استمتاع قبل أن يخلُدا إلى النّوم لساعة.

في المساء وبعد أن تناولا كوبيْن من الحليب مع رغيف مدهون بمُربّى المُشمُش كانت قد حضّرتهما لهما الخالة نادية خرجا ليلعبا كالمعتاد، فذهبت هي إلى رفيقاتها من بنات الجيران فيما ذهب هو لينادي على سُفيان من دارهم، لكن والدته أخبرته بأنّه خرج بعد أن تناول غداءه ولم يعد بعد، وقد ترجّته أن يبحث عنه ويعود به إلى البيت.

في تلك الأثناء كان سُفيان في بُستان عَثْمان جْريوات يصطادُ النّمل ويجمّعهم داخل عُلبة سردين فارغة، وعندما تمتلأ كان يضع بداخلها إصبع مفَرقعات اشتراها من حانوت العجوز الباشا، ثم يردّ عليها الغطاء وينتظر إلى أن تنفجر، ليفتحها بعد ذلك فيجد كلّ النّملات قد تفحّمت وتحوّل لونُها إلى الرّمادي. فيُفرِغ عُلبة السّردين من النّملات النّافقة ويُعيد مَلْأها من جديد عن آخرها بأخرى حَيّة ثم يفجّرها مُجدّدًا، وهكذا دواليك.

استمرّ في فعل ذلك لبعض الوقت لكن الأمر سُرعان ما أصابه بالملل فراح يبحث عن طريقةٍ أخرى للتّسلية، وبما أنّ تعذيب الحيوانات وقتْلها هو كلّ ما كان يحلو له التسلّي بهِ، فقد تسلّقَ أشجار اللّوز مُجدّدًا ليبحث عن مزيدٍ من أعشاش الطّيور،

فيخزّنها بعد أن يجمع صِغارها، وبواسطة تلك صغار العصافير كان يُكمّنُ للقِطط فيُعذّبها ويقُتلها هي الأخرى.

وبينما كان فوق شجرة مَرّ من هناك شابٌّ وفتاة يافعان لم يلحظا وجوده في الأعلى، لأنّهما كانا ينظران إلى عشرات الضّفادع والفِئران والعصافير النّافقة التي غُرزت في رؤوسها عيدانٌ وثُبّتتْ بواسطتها على طول السّياج الشّائك. وفي الأسفل منها كان هناك ما يُشبه خندقًا طويلاً ضيّقًا مُلئ بما لا يُعدّ ولا يُحصى من الحشرات المقتولة من كلّ نوع، تقزّز الشّابان من ذلك وهُما يتساءلان عمّن قد يفعل ذلك بتلك المخلوقات البريئة. عبرا السّياج من خلال فُتحةٍ فيه وبخطواتٍ سريعة قصدا الكوخ، وفي طريقهما إليه كانا يصادفان حُفَرًا وُضعت فيها جُثث قِطط وجِراء كلابٍ كانت مقطوعة الرّؤوس والأطراف، أمّا رؤوسها فقد كانت معلّقةً بواسطة سياج معدني في أغصان أشجار اللّوز اليابسة. ارتاب الشّاب من ذلك المنظر ورجّح أنّ مشعوذًا ما ربّما كان يأتي إلى هناك ويُمارس طقوسًا غريبة في ذلك المكان المُريب، فأكّدت له رفيقته التي كانت تسكن في حيّ بابا ڤيرا موزس أنّه ما مِن

مشعوذين أو سَحَرة يأتون إلى هناك، ولولا ضوء النّهار الذي تشجّع به الشّاب لاقترح مُغادرة ذاك المكان من فوره.

عندما دلفا إلى الكوخ انتبه لهما سُفيان الذي كان ما يزال فوق الشّجرة فترك أمر الفِراخ لوقتٍ لاحق ونزل من فوره وذهب ليستكشف ما الذي دخل ذيْنك الشّابيْن ليفعلاهُ في الكوخ.

اقترب من نافذةٍ صغيرة مزوّدة بقُضبان حديديّة صدِئة، ولمّا أطلّ منها رآهما يمارسان الجِنس بالدّاخل، فقد كان الشّاب نصف العاري يعتلي جسد الفتاة يقبّلها ويتحسّس نهديْها بينما كانت هي تنزع بنطالها وسروالها الدّاخلي على عجَل. لم يتعرّف على الشّاب، أمّا الفتاة التي كانت معه فهي ميار ابنة جارهم عبد القادر، بقي سُفيان يتفرّج عليهما لدقائق وهو يتساءل في نفسه عن الفرق بين ميار ووالدته، فكِلتاهما تُمارسان الجِنس مع الغرباء، ولكن لا أحد ينعتُ ميار بالعاهرة أو يسُبّ إخوتها أو يعيّرونهم بها. لم يجد جوابًا لأسئلته تلك!!

بعد تفكير خطرت له فِكرة فضْح ميار وجعْل سكّان الحيْ يرونها في موقف مُحرج، حتى تصبح هي أيضًا عاهرة في نظرهم ليرى بعد ذلك إن كانوا سيُعاملونها كما يُعاملوا أُمّه العاهرة.

وبحذرٍ اقترب من الباب الموارَب مستغلاً انشغال ميار بمصّ أيْر الشّاب فيما كان هو يتأوّه مُغمِضًا عيناه من فرط اللّذة، وبسرعةٍ خاطفة قام بسرقة ملابسها التي كانت مرميّةً إلى جانبهما وجذب إليه الباب الحديديّ بقوّةٍ فانغلق، ثم أوصده من الخارج بواسطة القضيب المعدنيّ المعلَّق في حلَقة القِفل. ركض سُفيان باتّجاه الحي متجاهلاً ميار وعشيقها اللّذان كانا يناديان عليه ويتوسّلانه كي يفتح عليهما الباب.

رمى بالملابس داخل حوض ماء جافٍّ قريب من هناك ثمّ توجّه إلى الحي، وبما أنّه كان منبوذًا من قِبل الكلّ ولا يسمحون له بالتحدّث إليهم توجّه مباشرةً إلى معتز الذي كان في تلك اللّحظة يلعب كرة قدم مع بعض الأولاد الذين كوّن معهم صداقة. نادى عليه سُفيان من بعيد وهو يشير بيده إلى بُستان جْريوات على أنّ هناك رجلٌ وامرأة عالقيْن داخل كوخ بُستان اللّوْز وهما بحاجة إلى مساعدة، وما إن سمع معتز وبقيّة الأولاد ذلك، انطلقوا يجرون إلى هناك فُرادى وجماعات كي يساعدوهما.

فيما تخلّف سُفيان عنهم وتبِعهم مشيًا حتى يرى من بعيد ردّة فعل كلٍّ منهم عندما يكتشفون أنّ ميار كانت تزني مع شابٍ غريب.

وكما كان متوقّعًا.. فما إن فتح عليهم أحد الأولاد الباب الموصَد حتى فُوجئوا بوجود ميار عاريةً هناك بالدّاخل وبرفقتها شاب ليس من البلدة. لم يكن أمام ذاك الشّاب إلاّ الخروج والهروب من هناك قبل أن يتجمّع كبار الحيّ فيمسكوا به ويُبرحوه ضربًا، غير أنّه لم يَسلَم من أصوات صيحات الإستهجان التي لاحقه بها الأولاد والأطفال الصّغار وهم يجرون وراءه إلى آخر البُستان.

أمّا ميار فقد بقيت متكوّمة على نفسها بالدّاخل محاولةً سِتر عوْرتها بيديها وهي مُنكمشة وتبكي في إحدى زوايا الكوخ لا تعرف ما الذي يجب عليها فعله أمام ذلك الموقف المُخزي الذي لم تتوقّع يومًا أن تجد نفسها فيه...

لم يكن لسكّان الحيّ في الأيام التالية موضوعٌ يخوضون فيه إلاّ الحديث عن ميار وكيف ضُبطت في كوخ بُستان اللّوْز مع عشيقها عارية، لم يتحمّل والدها عبد القادر ثِقل ثوْب الإهانة والمذلّة الذي ألبسته إيّاه ميار بعد تلك الفضيحة، فراح يلعنُها تارةً ويحمُد الله أنّ والدتها لم تعِش لترى ذاك اليوم تارةً.

أمّا أخويْها بوزيّان وسُليمان فقد قاما بضربها ضربًا مُبرِحًا ليوميْن مُتتالييْن، إلى أن تطلّب الأمر إيصالها إلى المستشفى حيث

تلقّت هناك العلاج جرّاء ارتطام رأسها بالجدار عندما ركلها أخوها سليم بجزمته على وجهها بكلّ ما أوتيَ من قوّة.

عدا أخوها الأصغر عماد الذي رأى أنّه فات الأوان على ضربها وإعادة تربيتها في ذلك العُمر، وقد رأى أنّه لا يغسِل العارَ إلاّ الدّمَ. فما كان منه إلاّ أن أخذ سكّينًا كبيرة لتقطيع اللّحم من المطبخ، وذلك في اللّيلة التي تلَت عودتها من المستشفى. فلمّا تأكّد ساعتها أنّ والده وشقيقته الكُبرى اللّذان كانا يذودان عنها كانا غارقيْن في نومٍ عميق، دخل ببُطء إلى غرفة نومها وقام بطعنها أثناء نومها بواسطة السّكين سبعة عشرة مرّةً في كلّ مكان من بطنها وجنْبها، ولكي ينجو من عِقاب العدالة قام بتجرّع قارورةً كاملة من حِمض روح المِلح، لتتمزّق أحشاءُه وسالت مُذابةً خارج بطنه الذي أحدث فيها السّائل الحِمضي تجويفًا كبيرًا، فسقط ميتًا بجانب سرير أُخته المضرّجة بالدّماء.

عاد معتز بعد تلك الفاجعة التي هزّت حيّ بابا ڤيرا موزس إلى بيتهم لمّا أتى أباه وأخذه خوفًا عليه ممّا قد يُصيبه من وراء ذلك الولد المدعو سُفيان، والذي صار منبوذًا ومكروهًا في الحيّ أكثر ممّا كان عليه من قبل، بعد أن تسبّب في ترويع عائلةٍ بأكملها. ولأنّ

والدته خافت عليه من انتقام إخوة وأبناء عمّ ميار لمّا علِموا لاحقًا أنّه هو من كان وراء فضيحتها، قرّرت حياة أخيرًا الرّحيل من ذلك الحيّ قبل أن يُصيب ابنها مكروه، وذاك ما كان. فقد رحلت من بلدة بكّارية ومن ولاية تبسة ككُلّ، فاختارت مدينة قجّال الواقعة في ولاية سطيف، هناك حيث كانت تسكن أختها نجاة المتزوّجة بأحد التجّار الأثرياء، وقد وعدها هذا الأخير بأن يجد لها عملاً مُحترَمًا يعود عليها بالرّزق الوفير، كما أنّ ابنها سيغدو حاله أفضل عندما يُصبح في مجتمعٍ أكثر تفتُّحًا.

تحسّنت أحوال حياة وابنها مع الوقت وغدَتْ لهما حياةٌ محترمة وسُمعة طيّبة بين النّاس، كما أنّ سُفيان صار تلميذًا نجيبًا ومتفوّقًا في دراسته بعد أن كان من بين الثّلاثة الأواخر في السّنوات القليلة الماضية.

مع مُرور الوقت تعرّفت حياة على قَدّور وهو رجلٌ خمسينيّ يشتغل بتجارة الأقمشة في مدينة العلمة، ولأنّه كان متزوّجًا بامرأتيْن لم يكن في وُسعه الزّواج بها، وذلك حتى لا تتراكم عليه المشاكل الأُسَرية وتتعقّد حياته، لكنّه وعدها بأنّها ستكون مَحظيته التي ستحظى بما تحظاه زوجتاه الأُخرتان لو قبلتْ بمواعدته،

وبعد تردّد مُتصَنّع قبِلت حياة بذلك فأهداها قدّور منزلاً بطابقيْن وسيارة Golfحديثة الطّراز، ومنحها عَقد مُلكيتهما.

فصارت حياة وابنها بين عشيّةٍ وضُحاها من بين ميسوري الحال بعد أن كانت تؤمّن قوتها وقوت ابنها ممّا تجنيه من مُمارسة الدّعارة، وفوق ذلك كانا مُهدّديْن بالطّرد من منزلهما الذي كانا يسكناه في بلدة بكّارية، والكلّ كان يتوعّد إبنها ووحيدها شرًّا. فها هو ذا الآن شابٌّ في الخامسة عشر من عمره يرتاد المدرسة الإكمالية، بعد أن حاز على ثاني أعلى معدّلٍ في الإبتدائيّة على مستوى مدينة قجال لسنة 1993.

غير أنّ الأمور لم تسِر بذلك الشّكل إلى الأبد، فبعد فترةٍ قصيرة تعرّفت حياة على شابٍّ من مدينة العلمة التقت به في أحد محلاّت بيع العطور بينما كانت تتسوّق، كان أنيس الذي يصغرُها بستّ سنوات يعيش ويدرُس في الكويت، حيث أنّه سافر مع والديْه إلى الخليج في سنٍّ مبكّرة، وقد جاء في تلك السّنة إلى الجزائر لقضاء بِضعة أسابيع من العُطلة الصّيفية في بلدته الأم رفقة والدته. فأُعجِب بحياة لمّا رآها وأحبّها وسُرعان ما صار الإثنان يتواعدان سرًّا.

لم تمُرّ بضعة أيّام على بِدء علاقتهما الغراميّة حتّى اكتشف قدّور أمر خيانتِها له، وذلك عن طريق جارةٍ لها كانت عينًا له عليها. خاف قدّور أن تفِرّ صديقته المُدلّلة إلى الخليج مع شابٍّ يصغرهُ برُبع قرن فتُبدّد عليه كلّ المال الذي منحها إيّاه طيلة فترة مواعدتهِ لها فيبدو مثل المُغفّل، لذلك قرّر أن يتصرّف حيال الأمر. فاستعان بخادمه الأمين وذراعه الأيمن حُسام الذي أوكلَ إليه مَهمّة التّخلُّص منها وذلك بعد أن تتبّعها في أحد الأيّام عندما غادرت منزلها وذهبت إلى وسط المدينة لمُلاقاة عشيقها في حانةٍ تواعدا فيها سِرًّا عدّة مرّات، أو هكذا كانا يعتقدان.

فبعد أن استمتعت حياة بالأُمسية مع عشيقها أيمّا استمتاع وشرِبت معه دِستةً من البيرة، قصدا أحد النُّزل القريبة أين أجّرا غُرفةً لبضع ساعات واحدة، فقضّيا فيها وقتًا حميمًا مِلؤه الحُبّ والشّوق واللّهفة لبعضهما البعض، مزيجُ من المشاعر الرّومانسية التي لم يسبق لأيٍّ منهما وأن شعر بها تجاه شخص آخر من قبل.

بعد نحو ساعتين ونصف عاشها الإثنان كزوجيْن ودّعت حياة حبيبها على أن يلتقيا في الغد، ركبت سيارتها وانطلقت عائدةً إلى بيتها رغم تحذير أنيس لها من القيادة ليلاً لمّا لاحظ أنّها ماتزال

ثمِلة. وما إن سلكت طريقًا جبليًّا يمرّ بجُرفٍ سحيق، لحِق بها حُسام الذي بقي طوال تلك اللّيلة يراقبها وينتظر ساعة خروجها من النُزْل، فقام بدفع سيارتها بسيّارته الـ Range Roverإلى أسفل الجُرف.

غير أنّ الحادث لم يتسبّب في مقتلها على الفور، إذ أنّ العمود المعدنيّ الذي يثبّت الحاجز الأمني حال دون أن تهوي السّيارة في الوادي. فتمّ نقلُها على وجه السُّرعة إلى المستشفى حيث مكثت في غرفة الإنعاش أربعة أيام، استفاقت من غيبوبتها لبضعِ دقائق أخبرتهم فيها بأنّها فقدت السّيطرة على عجلة القيادة بسبب الإفراط في الشُّرب ليلة الحادث فحادتْ سيارتُها عن الطّريق. قالت ذلك حتى لا يكلّف قدّور أحدًا من رجاله ويقتل إبنها إنتقامًا إذا ما هي قامت بالتّبليغ عنه، فقد تعرّفت على حُسام لمّا رأته من خلال زجاج النّافذة وهو يدفع سيارتها بسيارته رُباعيّة الدّفع التي كان يقودها، والذي كانت قد رأته في مقرّ عمل قدّور عدّة مرات من قبل.

اعترفت حياة لاحقًا بكلّ هذا لسُفيان عندما زارها في المستشفى لمّا منحه الأطباء رُبع ساعة بمفرده معها، وذلك لمّا تأكدوا من أنّها لن تعيش طويلاً...

أخبرت حياة إبنها بكلّ ذلك فقط لكي يكون حذِرًا ومُتيقّظًا ويعرف مع من سيتعامل من بعد وفاتها، فهي كانت واثقة أنّ قدّور سوف يكلّف من يقتل إبنها إنتقامًا منها إذا ما حاولت قول أيّ شيءٍ للمحقّقين الذين كانوا يتحرّون عن رجلٍ مجهول الهويّة رآه شاهدان وهو يقومُ بدفع سيّارتها إلى الجُرف يوم الحادث، ممّا يعني أنّ هناك من عرّض حياتها للخطر وحاول قتلها عمدًا.

توفّيت حياة بعد يومَيْن من ذلك بشكلٍ مفاجئ، وقد أفاد الأطباء بأنّ سبب وفاتها هو نزيفٌ داخليّ في صدرها.

لم تتقبّل أختها نجاة ذلك وتوجّهت إلى المستشفى وراحت تصرخ وتصيح متّهمةً الأطباء والمُمرّضين وأعوان الأمن هناك بالتواطؤ مع القاتل الذي يكون قد دفع لهم مقابل التخلّص منها خنقًا أو عن طريق تسميمها. فشتمتهم وعيّرتهم ناعتةً إيّاهم بالقتَلة السفّاحين المُرتشين إضافة إلى كونهم أفشل وأسوأ وأكثر الأطبّاء والمُمرّضين رداءةً ودناءةً في المعمورة. ولكي لا تزيد الأمور عن

حدّها قام زوجها الفطِن بإسكاتها وتهدئتها، ثم أخرَجها من هناك بعد أن وعدها بأنّها ستأخذ حقّ شقيقتها عن طريق القانون، وذلك حتى لا يرفعوا عليها قضيّة بتُهمة العُنف اللّفظي فتتورّط معهم في المحاكم.

في تلك الأثناء كان سُفيان في سيّارة زوج خالته جالسًا في المقعد الخلفيّ ويشهق بالبكاء مثل طفلٍ صغير غير مصدّقٍ أن حبيبته والدته قد غادرت الحياة إلى الأبد وصارت في عالَم الأموات. بعد أن كان مجهولَ الأب ها هو الآن يتيمُ الأُم، ولكن خالته نجاة وزوجها لم يتركاه لُقمةً سائغة لأنياب الحياة التي تنهش كلّ من له لحمٌ طريّ وعظمٌ غضّ، وكم تمنّى في تلك اللّحظة لو كانت شقيقته هُدى على قيد الحياة ليرتمي في حُضنها ويُواسيا بعضهما في خسارتِهما لأُمّهِما...

انقضت أيّام العزاء الثّلاث وباعت خالته كلّ الأملاك التي ورَثها عن والدته، ثمّ أوْدعت ثمنها في البنك إلى أن يكبُر ويصبح ناضجًا كفاية فيتصرّف في المال كيفما يشاء، وإلى ذلك الوقت سوف تتكفّل هي بتربيته ورعايته مع ابنيْها منير وسهام اللّذيْن سيغدوان بمثابة أخويْه الصّغيريْن.

تمضي التّسع سنوات التّالية ويتخرّج سُفيان من كلّية الحقوق بولاية سطيف، ليصبح محاميًّا ناجحًا بفضل مهارته النّادرة في كسب قضايا فساد وإجرام، وقد كان دومًا يُمثّل الجاني في أي قضيّة، فاستطاع بفضل ذكاءه الحادّ أن يقلِب الموازين لصالح الجاني في كلّ قضيّةٍ يتولاّها، مهما كان هناك من أدلّة أو شهودٌ ضدّه، ممّا جعله المُحامي الأكثر طلبًا في البلاد، والمحامي الذي يخشى المظلومين أن تضيع حقوقهم إذا ما وكّله الجُناة ليدافع عنهم.

رغم نجاح سُفيان وشُهرته فهو لم ينسَ قتَلة والدته، كان في إمكانه استدعاء قدّور وحُسام إلى قاعة المحكمة التي تُعتبر ميدانه الذي يمكنه داخلها كسب المعركة ضدّ أيّ خصمٍ قد يقف في مواجهته. إلاّ أنّه فضّل الإنتقام منهما بالطّريقة البربريّة الوحشية، فهما بالنّسبة إليه حشرتان بائستان وليسا بشريْن كي يستدعيهما إلى محكمةٍ حضارية تُقام فيها العدالةُ البشريّة كما يستحقّ كلّ إنسانٍ متحضّر، لذا وجب معاملتهُما كما كان يعامِل الحشرات في طفولته!

كان لقدّور ابنٌ جامعيّ يدرس في جامعة سطيف، وقد تتبّعه سُفيان لأسابيع ليكتشف أنّه شاذٌ جنسيّا سِلبيُّ المُيول، فكانت تلك نقطة ضَعف قدّور التي سيستدرجه بواسطته خارج وكْره. فقد كان العجوز ذو الأربع وستّون عامًا مُنعزلاً في قيلّته لعاميْن بعد أن أُصيب بداء الغنغارينا في إحدى ساقيْه ممّا استدعى إلى بتْرها، فسبّب له ذلك عُقدةً نفسيّة منعته من الظّهور أمام العامّة بذاك الشّكل، فلم يتقبّل فِكرة أن يراهُ النّاس في كرسيٍّ متحرّك، وهو الذي كان يتباهى بطوله الفارع ووفرة الصّحة التي كان يتمتّع بها مقارنةً بأقرانه، وحتى من كانوا أصغر سنًّا منه. فقد كان أصدقاؤه وعملاءه ما إن يتجاوزوا الخامسة والخمسين حتى تظهر عليهم علامات الكِبر والشّيخوخة، فيما كان هو يبدو كرجلٍ أربعينيّ.

استطاع سُفيان أن يغويَ فيصل ابن قدّور ويُغريه بما كان يتمتّع به من وسامةٍ وفراسة وثقافة إلى جانب ثراءه، فأوقعه في أسرهِ وصار يواعده سرًّا ويأخذه بسيّارته إلى عدّة أماكن نائية خارج المدينة، وهناك كان يرتّبَ له مواعيد غراميَّة مع طارق، شابٌ

شاذٌّ جنسيًّا هو الآخر اتفق معه سُفيان مُقابل مبلغٍ من المال كي يَنيك فيصل إمّا بِرضاه أو مُرغمًا!

فسُفيان لم يكن ليسمح لنفسه بمُمارسة الفاحشة مع ذكرٍ آخر ولو كان ثمن ذلك الأخذ بثأر والدته. فخيّب ذلك ظنون فيصل الذي كان قد وقع في هَوى سُفيان، ولولا أنّ سُفيان كان قد وثّق تلك المواعيد بالڤيديوهات لكان فيصل قد هجره وعاد لعشيقه القديم مُنصف الذي تخلّى عنه لأجله.

في إحدى الأُمسيات الهادئة والتي كان طقسها الخريفي لطيف، كان قدّور في مزاجٍ طيّب ويشعر بشيءٍ من السّعادة، وذلك لسببيْن.. أحدهما كان خِطبة ابنته الصّغرى من أحد أبناء ووُجهاء المدينة، والثّاني والأهمّ هو أنّ حُسام شريك أعماله وموضع ثقته وبئر أسراره، كان قد نجح في إبرام صفقة بيع تتخطّى ستة ملايير سنتيم، وذلك لمّا استطاع إيجاد زبون دفع ضعف ما كانا يتوقّعانه في حُمولة الزّرابي التي كان يُخزّنها في أقبية سرّية، مستغلاً ارتفاع أسعارها بسبب نُدرتها في الأسواق آنذاك.

وبينما هو يتلقّى مكالمة هاتفية من أحد تجّار القماش، أحضرت له حفيدته طرْدًا كان قد أتى به للتوّ شخصٌ مجهول.

أنهى قدّور المُكالمة على عجَل ثمّ وضع سمّاعة الهاتف وفتح الطّرْد ليجده شريط ڤيديو كاسيت، وكان مكتوبٌ عليه كلمة «مِن حياة!».

جفّ الرّيق في حلقه وهو ينظر إلى ذاك الشّريط الذي جعله يُعيد في ذهنه شريط آخر لحظات قضاها مع صديقته السّابقة حياة... طلب من حفيدته أن تدفع به الكرسيّ المتحرّك وتأخذه إلى مكتبه، ثم أغلق بابه وأوصده بعد أن أمرَ بأن لا يُزعجه أحد. توجّه بنفسه إلى البوفيه الموجود خلف مكتبه، أوقف كرسيه المتحرّك قريبًا من جهاز الجي ڤي سي الموضوع أسفل شاشة تلفاز رمادي كبير يتوسّط البوفيه، وبيديْن مرتجفتيْن أمسك بالشّريط ووضعه في الجهاز، وما إن شغّل التلفاز حتى ظهر مباشرةً ابنه فيصل عاريًا كما ولدته أمّه منبطحًا على بطنه ومن فوقه رجلٌ بدين يعتلي مؤخّرته الصغّيرة ويطعنها بأيرِه الكبير، فيما كان هو يتأوّه ويتلوّى تحته مثل مومسٍ محترفة. كان في شريط الڤيديو عدّة مقاطع لا يتجاوز أيٌّ منها ثلاثُ دقائق، بظهر فيها ابنه فيصل منبطحًا على بطنه ورجلٌ يعتليه، أو راكعًا على ركبتيْه ورجلٌ آخر يمارس معه الجنس الفموي، أو مُنحنٍ على طاولة أو على أريكة أو

داخل سيّارة... ومن خلفه يقف رجلٌ آخر مختلفٌ عن الرجال الآخرين وهو يأتيه من دُبُره.

تعمّد سُفيان تصوير فيصل مع عدّة رجال حتى لا يبدو وكأنّه تمّ اختطافه واغتصابه أو إرغامه على ممارسة الجنس معهم، فقد بدا في كلّ تلك المقاطع أنّه يمارس اللّواط بملئِ إرادته وبكلّ رضًا، حتى أنّه بدا جدّ مُستمتع في بعضها وهو يعانق شريكه ويتبادل معه القُبلات والأحضان كبائعة هوى تهوى النّيك.

تصبّبَ العرق من على جبين قدّور واحتقن وجهه المستدير المُفلطَح واحمرّت وجنتاه من فرط الحسرة والغضب، فقد صدمه ما رآه. لم يُخيَّل له يومًا أن ابنه الذّكر الوحيد من بين أربع بنات سيغدو شاذًّا جنسيًّا، وها هو ذا أحدهم يستغلّ ذلك لاستفزازه بواسطته حتى يساومه عن ذلك الشّريط ببضعة ملايين من الدّينارات، أو حتى المئات منها. أو هذا أوّل ما خطر في باله عندما تساءل ما الذي قد يدفع بأحدهم لتصوير إبنه في ذلك الوضع الفاضح ثم يرسل له الشّريط.

إلاّ أنّ عِبارة «مِن حياة!» المكتوبة على الشّريط شوّشتْ ذهنه وعكّرت عليه صفاء تفكيره، وهو الذي عُرف بذكاءه وفِطنته وسُرعة بديهته، وكيفيّة الخروج سالمًا غانمًا في الأزمات الاقتصادية وبراعته في تجنّب الوقوع في فِخاخ الضّرائب والتّحايُل على القانون.

كان يعتقد طوال الوقت أن ابنه فيصل يدرس في الجامعة ويبيت في إقامتها كأيّ طالبٍ مجتهدٍ آخر، إلى أن وصله ذاك الطّرْد الذي طردَ النّوم من عينيْه والرّاحة من باله. فطلب في اليوم التّالي من سائقه يحيا أن يوصله إلى الجامعة التي كان يدرس بها إبنه ليقابله ويسأله عن حقيقة ما رآه في ذلك الشّريط، يريد عدم تصديق ذلك لعلّه مجرّد تلفيق للحقيقة أو ربّما كان أحدهم قد فبركَ الڤيديو بتقنيةٍ عالية الجودة حتى يستفزّه ويبتزّ منه المال. وقد اضطرّ قدّور لانتظار سائقه يحيا حتى المساء، وذلك لأنّه كان في مَهمّة لتوصيل زوجة قدّور الثّانية وابنتها الصّغرى إلى العاصمة، كي تزورا إحدى القريبات التي كانت قد خرجت من المستشفى بعد أن أجرت عمليةً جراحيّة.

في مساء ذلك اليوم وما إن وصل يحيا، ودون حتى أن يوقف مُحرّك البيآم دبليو التي كان قد اشتراها قدّور منذ نحو شهر - فقد كان يُغيّر ماركات السّيارات الفخمة كما لو كانت جوارب أو سراويل داخلية - انطلق مع قدّور من فوره إلى الجامعة. لكن المفاجئة كانت عندما وصلا إلى هناك، فلّما نزل يحيا ليسأل عن فيصل أخبره زملاءٌ له أنّه متغيّبٌ عن الجامعة منذ أسبوع، وقد تقدّم من نافذة السّيارة زميله وصديقه المُقرّب مُنصف وأخبره أنّه كان بصدد الذّهاب إلى بيته في ذلك اليوم للسّؤال عن سبب غيابه لأيّام، لأنه اعتقد أنّه كان مريضًا أو شيئًا من هذا القبيل.

قطّب قدّور جبينه مفكّرًا وهو يردّ في حنْقٍ على مُنصف زميل فيصل بأجوبةٍ مختصَرة – وقد اشمئزّ من منظر صديق إبنه مُنصف المُخنّث ومن طريقة كلامه مثل الفتيات– في حين كان يحاول التّخمين أين سيكون ابنه في تلك اللّحظة، ومع من!

وقبل أن يغادر المكان اقترب من السيارة رجلٌ ذو هِندامٍ حسَن ورمى بورقةٍ مطويّة داخل النّافذة التي كان يجلس بجانبها قدّور، فتح الورقة بسرعة ليجد بها رسالةً قصيرة كان فحواها «اتبع الدرّاجة حالاً، وإلاّ فلن ترى إبنك فيصل حيّ مرة أخرى!»

أوقف قدّور يحيا واستمهله وهو يبحث بعينيْه عن ذاك الرجل الذي اختفى وسط جموع الطّلبة المُتجمهرين أمام باب الكُلّية، بعد لحظاتٍ قصيرة توقّفت درّاجةٌ ناريّة من نوع سوزوكي بجانب السّيارة فطرَق راكبُها الذي كان يضع خودةً تغطّي رأسه بالكامل على غطاء المُحرّك وأشار ليحيا بيده أن يتبعه، وعلى الفور أمر قدّور سائقه يحيا بأن يتبع تلك الدرّاجة.

ولم يكن هذا إلاّ نبيل. ذاك الطّفل الذي كان يشكّل مع مجموعة من أبناء حيّ بابا ڤيرا موزس فريق متسابقي الدرّاجات الهوائيّة، فلمّا كبُر وصار بلا عمل قصد المُحامي سُفيان عندما وصل به العوْز واليأس إلى حدّ التفكير في بيع حشيشة الزّطلة، وبعد بحثٍ طويل عن عنوانه في مدينة سطيف التقاه أخيرًا واستضافه هذا الأخير ورحّب به وأوْلمه في أحد أفخم مطاعم المدينة، فرؤية سُفيان لنبيل أعادت إليه ذكرياتٌ من أيّام الطفولة الجميلة. وبدلَ أن يُعطيه مبلغًا من المال كي يُعين به نفسه ويُعيل زوجته وولديْه الصّغيريْن، عرض عليه سُفيان العمل كحارس في البناية التي اتّخذها كمقرّ لمكتبه، فهو الآن محامي كبير ومشهور وقد صار لديه العديد من الأعداء الذين كانوا يتصيّدونه طالبين

رأسه بسبب القضايا التي خسروها من وراءه، فكلّف الكثيرين منهم خسارة أموالٍ طائلة وأُودِع آخرون السّجون ظُلمًا لأنه كسَّب الطّرف الظّالم في العديد من القضايا.

فكان لابدّ أن من الإحتياط وتوجّب عليه إحاطة نفسه بعددٍ من الحُرّاس في مكان عمله، وأحيانًا بحُرّاسٍ شخصيين يرافقونه إلى أي مكان يقصده.

فقبِل نبيل بتلك الوظيفة وصار أحد الحُرّاس الثّلاثة الذين عيّنهم سُفيان مؤخّرًا، وكان سُفيان يكلّف نبيل من حينٍ لحين بمهامٍ أخرى غير حِراسة المبنى، كتوصيل غرضٍ ما من مكان لآخر أو البحث عن شخص مشبوهٍ ما قبل أن تصِله يد العدالة، أو مراقبة أحد أطراف قضيّة مُعقّدة حتى يعرف تفاصيلاً عن حياته لم تُذكَر في مِلف تلك القضيّة مثلاً، وغير ذلك من المَهام التي كانت لا يأتمِن عليها أحد غير نبيل ابن مدينته وجاره القديم.

وفي ذلك اليوم كلّفه باستدراج قدّور إلى غابة ولْبان الواقعة في ضاحية عيْن السّبت، وهي منطقةٌ ريفيّة تبعُد عن وسط المدينة بنحو 70 كلم.

في الأثناء التي كان قدّور يسأل فيها عن ابنه، كان سُفيان داخل سيارته الـ Volkswagen Passatالمُعتم زُجاج نوافذها يراقب تحرّكاته من بعيد، في حين كانت أغنية " "Phone Tapped لمجموعة The Firmتصدحُ من جهاز الستيريو بصوتٍ منخفض، فمنذ أن أرسل له الطّرْد وهو قابعُ قريبًا من ڤيلّته ليرى كيف ستكون ردّة فعله إزاء ذلك، فيما كان نبيل على متن درّاجة نارية ينتظر أيّ إشارة من سُفيان الذي كان قد أعلَمه مُسبقًا بما يجب عليه فعلهُ.

فما إن تحرّك قدّور بسيارته انطلق سُفيان وراءه وظلّ يتبعه كظلّه دون أن يُشعِره أو يُشعِرَ سائقه بوجوده، ونبيل بدرّاجته النّارية من خلفهما على بُعد مسافة.

لاحقًا وبعد أن انتهى يحيا من سؤال بعض الطّلبة عن فيصل ترجّل سُفيان من سيارته وبسرعةٍ خاطفة ألقى بالورقة المَطوية في حِجر قدّور الذي كان جالسًا بجانب النّافذة في المقعد الخلفي، ثم اختفى وسط حُشود الطّلبة وعاد إلى سيارته دون أن يلاحظه أحد. ولم يبقَ هناك طويلاً، فقد أشار برأسه إلى نبيل الذي كان يقف على مسافةٍ بدرّاجته النّارية يُدخّن سيجارة وينتظرُ منه الإشارة،

وعلى الفوْر انطلق هو بسيّارته مباشرةً إلى ضاحية عيْن السّبت حيث سيكون هناك في انتظار طريدته.

وبينما كان يقطع مفترق الطرُق مرّ من أمامه شابّان بدا من زيّهما ومظهر ثيابهما ومشيتهما أنّهما مِثليان، وكان أحدهما يُمسك بطوْق كلبٍ من نوع شيواوا، ذاك النّوع من الكلاب الذي تُربّيه السّيدات عادةً. فما كان من سُفيان إلاّ أنّ ضغط على دوّاسة الوقود بقوّة لتنطلق سيارته بسرعةٍ باتّجاه الشّابيْن وكلبهما، متجاهلاً علامة الوقوف الحمراء التي كانت تومِض في إشارة المرور، حتى كاد يتسبّب في اصطدام سيارتيْن كانتا تعبُران الطّريق الآخر. دهسَ سفيان الكلب الذي لم يتسنّ له الوقت للإبتعاد من أمامها فمرّت من فوقه العجلة الأمامية وكذلك الخلفية، ليعْلَق بين العجلة الخلفية وواقي الإطار فراح جسده يُسحَق بينهما والسّيارة تسير، صاح صاحِب الكلب بصوته الأنثويّ على كلبه الذي عَوى مرّةً واحدة لمّا سحقتْ العجلتان عظامه، فأمسك الشّاب الشّاذ الثّاني بذراع حبيبه الذي كانت لديه نفس ردّة الفعل. فقد تسمّرا في مكانيْهما واضعيْن أيديهما على خدّيْهما المدهونيْن بمراهم تبييض البَشرة، وراحا يصيحان مستنجديْن بالمارّة القريبين عسى أحدهم

يمكنه إنقاذ الكلب، لكن الأوان كان قد فات، فبعد أن ابتعدت السّيارة بقيت جثّة الكلب مرميّةً ككوْمة من اللّحم منزوع الشّعر وملطّخًا بالدّماء.

تمنّى سُفيان لو كان بوسعه دهْس ذيْنكَ المُخنّثيْن إلاّ أنّه كان سيواجه مطاردةً من قبل دوريات الشّرطة ما إن يتمّ التّبليغ عن الحادث، فيتعيّن عليه الهرب والإختباء عندها، ممّا سيُفسد عليه الخطّة التي كان قد وضعها مسبقًا بخصوص ضحيّته الرّئيسية، فلم يكن من الحِكمة تركُ ما هو أهمّ من أجل نزوةٍ عابرة، فاكتفى بقتل الكلب الذي كان يبدو على صاحبه التعلُّق به فيفطُر ذلك قلبه لأيّامٍ، على أن يؤجّل اصطياده لذاك النّوع من الذّكور في يومٍ آخر بعد أن ينتهي من مهمّته التي هو بصدد إتمامها.

لم يكن أمام قدّور وقتٌ للتّفكير أو التّدبير لحيلةٍ ما أو حتى الوقت لإخطار الشّرطة بأنّ هناك من اختطف إبنه، فالثّواني القليلة التي منحها إيّاه سُفيان بالكاد ستكفيه لِلّحاق بالدّراجة النّارية التي طلب منه سائقها أن يتبعه، وقد تعمّد نبيل قيادتها بسرعة حتى لا يتسنّى لقدّور أن يناديَ على أحد أعوان الشّرطة

الذين قد تظهر سياراتهم أو درّاجاتهم النّارية هناك مصادفةً في أيّة لحظة.

بعد أن اطمئنّ نبيل أنّه ابتعد عن اكتظاظ المدينة وصار في طريقٍ مفتوح، أبطأ من سُرعته كي يمنح سُفيان الوقت كي يُهيّئ نفسه في المكان الذي كانوا يقصدونه، وقد سلك طريقًا قلّما يضع فيه أعوان الدّرك حواجز أمنيّة وذلك كي لا تكون أمام قدّور أيّ فرصةٍ للتّبليغ.

كان قدّور يتميّز غيظًا داخل سيارته وهو يشتم ويلعن من كان وراء اختطاف ابنه، وقد توعّدهم أيًّا كانوا أنّه لن يرحمهم إذا ما وقعوا في يده. في حين كان يحيا يكاد ينفجر من السّأم وهو يقود بسرعة لم تتجاوز 75 إلى 80 ميلاً، وهو الذي اعتاد على القيادة بسرعةٍ لا تقلّ عادةً عن 140 ميلاً، خاصّةً وهو يقود بي آم دبليو الآن، تلك الدّبابة السّريعة التي لا يجوز قيادتها بسرعةٍ أقلّ من 180 ميل، ولو أنّه لا توجد في الجزائر طرُقات سريعة ومفتوحة تستطيع احتضان عجلات البي آم، فليس فيها طرُقات ألمانيا المُعَبّدة والمُهيّأة لِمثلِ تلك المركبات الخارقة المختلفة عن خُردوات البيجو والرينو المستوردَة من فرنسا، والمنتشرة في البلد أكثر من

انتشار الكلاب المُشرّدة. وأكثر ما أزعج يحيا هو كونه عاجزًا عن فعل أيّ شيءٍ لمساعدة ربّ عمله ووليّ نعمته، خاصّةً وأنّه كان مقرّبًا من ابنه فيصل طيلة السّنوات الأربعة التي قضاها في العمل كسائق عند والده الذي كان يعتبره كأبٍ له.

استمرّ يحيا في القيادة بتلك السّرعة التي فرضها عليه سائق السوزوكي وهو يشعر كما لو كان مُسمَّرًا في مقعده، كأنّه سائق آلي أو روبوت يتمّ التحكّم فيه عن بُعد، بقي ينظر إلى الطّريق أمامه ومن حين لحين ينظر في المرآة الجانبية لعلّه يرى إحدى سيارات دوريات الشّرطة قادمة من الخلف فيبلِّغ عن الخاطف، وأحيانًا ينظر في المرآة الأمامية فيرى قدّور يمسح عبَرات الحزن والخوف على ابنه، فيزيد ذلك من حنق يحيا وتضايقه من الوضع، لدرجة أنّه فكّر أكثر من مرّة في الضّغط على دواسة الوقود فيلحق بذاك الخاطف فيصدم درّاجته النّارية من الخلف ويوقِعه أرضًا، ثم يتوقّف وينزل ويُبرحه ضربًا حتى يعترف بمكان تواجد فيصل. إلاّ أنّه تريُّث وصبّر نفسه حتى لا تغلب عاطفته على عقله فيزيد ذلك من الأمر تعقيدًا، فإذا كان الذي اختطف فيصل إحدى العصابات المنظّمة فسوف يعرّضه للخطر وربّما يتسبّب في مقتله

إذا ما تصرّفَ تصرُّفًا أحمقًا. لذلك تعيّن عليه أن يذعن ويتابع القيادة وراء الدرّاجة النّارية التي لم يكن مُعلَّق عليها لوحة ترقيم من الخلف.

بعد نحو ساعةٍ من القيادة، وجد يحيا وقدّور نفسيْهما عند مدخل ضاحية عيْن السّبت، فاستغربا وسرَى شيءٌ من الخوف إلى قلبيْهما وهما يدخلان تلك المنطقة، خاصّةً لمّا أيقنا أن سائق السوزكي يتوجّه إلى غابة ولْبان. وهنا تذكّر يحيا المرّات التي كان يأتي فيها برفقة طالبات جامعيات كان يلتقطهنّ من أمام الكلّية في أوقات فراغه، ليأتي في كل مرّة مع فتاةٍ مختلفة فيقضي هناك الأماسي ويمارس معهن الجنس داخل السيارة، فالغابة كانت المكان الأمثل للمواعدات الغراميّة واللّقاءات بين الشّبان والفتيات الذين لا يجدون أمكنةً آمنة يستمتعون فيها بخُلواتهم مع بعض، في ظلّ القانون الذي يمنع تواجد أي ثنائيّ غير مرتبطيْن مدنيًّا. كما أنّ غابة ولْبان كانت مقصِد السِكّيرين والحشّاشين الذين يجدون راحتهم عندما يختَلون بأنفسهم أو مع نُدمائهم هناك، مُحاطين بعُلَب النّبيذ وقوارير البيرة على ضوء نارٍ يُشعلونها كي تضيء لهم

المكان وهم يَثملون وينتشون على إيقاع مختلَف أنواع الموسيقا، من الشّعبي إلى الرّاي إلى المغربي وحتّى الشّرقي، وأحيانًا الغربي.

ظهر في تلك اللّحظة سُفيان الذي كان قادمًا من مكانٍ مظلم، فرآه قدّور وعرف من هيأته ونظراته أنّه المدبّر لعملية الإختطاف، فتح سُفيان الباب الأمامي وجلس في المقعد المحاذي لمقعد السّائق والتفت إلى قدّور وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، سأله قدّور الذي كان يرتعش من شدّة الخوف عمّن يكون وعن مكان ابنه، فلم يُجبه سُفيان واستمرّ بالتحديق في عينيْه الباكيتيْن، كان ينظر إليه وهو يستعيد ذكرى مقتل والدته على يده منذ تسع سنوات، فراح يفكّر في الطّريقة التي كانت ستُرضي والدته للإنتقام من قاتلها لو كانت هناك معه في تلك اللّحظة. توقّف قدّور عن طرح الأسئلة لمّا رأى دمعةً فارّة من عين خاطفه، فزاد ذاك من خوفه وعرف لحظتها أنّه أمام طالبِ حقّ، وعندها فقط عرف أنّه أمام ابن حياة عندما ربط ذلك بالعبارة التي قرأها في اليوم السّابق على شريط الفيديو.

فتح نبيل غطاء صندوق السيارة فوجد فيه كرسيٍّ متحرّك، فأخرجه من هناك وألقاه أرضًا ثم طلب من يحيا أن يقفز إلى الدّاخل، رفض يحيا ذلك وراح يشتم ويلعن لمّا أيقن أنّ خاطفه ينوي التخلّص منه، أو هذا ما استخلصه من تلك الحركات.

لكمه نبيل عدّة لكمات قويّة على وجهه وصدره عندما راح يقاومه، ودفعه إلى داخل الصندوق عُنوةً وأغلق عليه الغطاء وأوصده. تاركًا إيّاه يصرخ ويصيح ويركل بقدميه صندوق السّيارة من الدّاخل متوعّدًا إيّاه بالويْل إن لم يُخرجه من هناك، إلاّ أنّ نبيل تجاهل تهديداته التي كانت تُطرب مسامعه، أشعل سيجارةً واستند إلى جذع شجرة وراح ينظر إلى سُفيان وينتظر ما الذي سيفعله مع قدّور.

نزل سُفيان من السّيارة فرأى الكرسي المُتحرّك مرميًّا على الأرض ففتح الباب الخلفيّ وأمر قدّور بالنّزول منها، أشار هذا الأخير إلى ساقه المبتورة وعجزه عن المشي فتقدّم منه سُفيان وأمسكه من ياقة مِعطفه وجذبه بقوّة فأخرجه ليسقط على وجهه فتعفّر فمه وأنفه بالتّراب. نظر قدّور نظرة استجداء فأشار سُفيان إلى الكرسيّ المتحرّك وأمره بالجلوس فيه، وبصعوبةٍ زحف

قدّور إلى كرسيّه ففتحه بنفسه وصعد فيه بشقّ الأنفس. سار سُفيان أمامه وطلب منه أن يتبعه ففعل قدّور وراح يدفعُ نفسه مُستعينًا بحلَقات الدّفع، وبعناءٍ استطاع تحريك الكُرسيّ في تلك الأرض الوعْرة. أما نبيل فقد تخلّف عن سُفيان لكي يُنهي مَهمّته، ففتح سدّادة خزّان وقود سيارة قدّور وأخرجَ قطعة قُماش من جيبه وحشَرها بواسطة غُصن شجرةٍ يابس في خُرطوم مَلْئ الوقود إلى أن تبلّلت ثم أشعل الجزء الذي بقي ظاهرًا منها، وعلى عجَل قام بعد ذلك بدفع الدرّاجة النّارية إلى جانب السّيارة، ثم فتح الباب الخلفيّ ووضعها بعد جُهدٍ داخلها وابتعد من هناك بسرعة.

لحق بسُفيان الذي كان يسير بين الأشجار وفي يده مصباحٌ يدوي ليُنير له الطّريق، وقدّور يسير من وراءه وهو يسأله عمّن يكون تارةً وتارةً يترجّاهُ كي يرحمه ويرحم سِنّه وعجْزه ومرَضه، لكن سُفيان لم يُصغِ إليه وتابع سيره. أحسّ قدّور بأحدهم يُمسك بمقابض الكرسيّ المتحرّك فرفع رأسه إلى الخلف فوجده نبيل الذي كان ينظر إليه وهو يبتسم، ثم أدارَ به الكرسيّ موجّهًا إيّاه صوْب سيارته، كانت السّيارة مركونةٌ عرْضيًّا بحيث كانت جهة خزّان الوقود من النّاحية الأخرى، فبقي قدّور ينقلُ بصره بين

سيارته وبين نبيل بنظراتٍ بَلهاء، ثمّ راح يوجّه بصره حواليّ السّيارة مُتوقّعًا ظهور جماعاتٍ إرهابيّة في أيّة لحظة، فذاك كان أكثر ما يخشاه لكثرة ما كان يسمع عنهم في النّشرات الإخباريّةِ التي لا حديث لها يوميًّا غير المجازر التي كان يرتكبها أولئك.

وما هي إلاّ ثوانٍ حتى دوّى إنفجار قويٌّ المكان عندما وصلت النّار إلى البنزين بداخل الخزّان، فارتدّ قدّور إلى الخلف لمّا رأى كُرة اللّهب الكبيرة النّاتجة عن الانفجار حتّى سقط به كرسيّه المتحرّك على الأرض، انفجر نبيل ضاحكًا على الطّريقة التي سقط بها العجوز العاجز. أمّا سُفيان فقد توقف للحظات ليمتّع عينيْه بردّة فعل قدّور وهو يرى نفسه وحيدًا في غابةٍ بعيدة من دون سيّارته الفارهة التي التهمتها النّيران ومن دون سائقه وحاميه المخْلص يحيا الذي تفحّمت جثّته بداخلها، شعرَ فجأةً بالبرد وسرَتْ في جسده قشعريرةٌ لمّا أيقن أنّه صار بمفرده تحت رحمة شابّيْن غريبيْن وشرّيريْن. ليُغمى عليه في تلك اللّحظة نتيجة الضّغط النّفسي والتوتّر الحاد، فسبّب له ذلك هبوط السُّكر في الدّم، خاصّةً وأنّه مصابٌ بداء السّكري فأثّر ذلك فيه.

تابع سُفيان المشي بعد أن طلب من نبيل أن يضع العجوز في كرسيّه المتحرّك ويبتعد به من هناك قبل أن تصل فِرق الحماية المدنيّة وأعوان الدّرك إلى المكان.

استفاق قدّور بعد ساعةٍ من ذلك عندما سكبَ نبيل دلوَ ماءٍ بارد على رأسه فوجد نفسه داخل غُرفةٍ واسعة مُظلمة ليس فيها أيّ مصدرٍ للنّور غير ضوء مِصباحٍ باهت غطّاه بَراز الذّباب، ولا صوتٌ فيها غير أصوات عُواء الذّئاب القادمة من الغابة عبر فُتحة تهوية ضيّقة في أعلاها، كانت الغُرفة عبارة عن قبوٍ تحت بيتٍ مهجورٍ بناه حُرّاس الغابات في سبعينات القرن العشرين على أنقاض منزلٍ قديم استخدمه الجنود الفرنسيون في الماضي كمُعتقل ومكانًا للتّعذيب. غير أنّه ما من أحدٍ في المنطقة كان يعلم بوجود قبوٍ تحته، إلاّ قلّةٌ من كِبار السّن الذين عايشوا فترة الاستدمار، وقد علِم سُفيان بذلك المكان من أحد المجاهدين المخضرمين الذي كان قد استضافه مرّة في بيته وأهداه كتُبًا ومخطّطات قديمة وتاريخيّة تعود للقرنيْن الثّامن عشر والتّاسع عشر، ومن بينها كانت هناك مخطوطةٌ تحتوي على خريطة قديمة توضّح معالِم وتضاريس دائرة سطيف في تلك الحِقبة، وقد غدق

ذلك الشّيخ المجاهد والمناضل على سُفيان بتلك الهدايا لأنه نجح في فضْح أكثر من 100 مجاهد مزيّف في سطيف وضواحيها، وسحب منهم الوثائق المزوّرة التي كانوا من خِلالها يتقاضون رواتب شهريّة كمكافئةً من الحكومة على مشاركتهم في حربٍ لم يشهدوها حتى؛

ما إن اتّضحت الرّؤية لقدّور حتى رأى مُساعده وأمين أسراره حُسام مُعلّقًا من ذراعيْهِ في سياجٍ معدنيّ مربوطٌ في حلَقتيْن بالسّقف، كان جسمه العاري مليئًا بالجِراح والكدمات من أثار الضّرب الذي تعرّض له. كان حُسام يتدلّى في الهواء والدّم يقطُر من إحدى ساقيْه التي كانت مبتورةً إلى ما فوق الرُّكبة، غير أنّه كان فاقدًا للوعي ولم يسمع صوت قدّور الذي راح ينادي عليه ليرى إذا ما كان لا يزال حيًّا.

سمِع قدّور في تلك اللّحظة أنينًا لكنّه لم يكن قد صدَر من حُسام بل جاء الصّوت من الخلف، استدار بكرسيّه المتحرّك ليرى من الذي كان يئنُّ ليتفاجئ بابنه فيصل الذي كان وراءه مباشرةً. وضع قدّور يداه على رأسه وصرخ بأعلى صوته من هُول المنظر الذي رآه، لم يكن حال فيصل أفضل من حُسام بل ربّما كان أسوأ

حتى، فقد كان جِسمه النّحيل عارٍ إلاّ من قميص قُطني أبيض ممزَّق ومُلطّخ بالدّم، كان مُثبَّتًا على جِذع شجرة سرْوٍ طويل حُشِرت رأسه الحاد في دُبُره وقاعِدته غُرزت في أرضية تلك الغرفة، لقد قام سُفيان بخوْزقة فيصل حرفيًّا.

لم يصدّق قدّور عينيْه واعتقد لوهلةٍ أنّه يعيش حُلْمًا مُزعجًا، راح يفرُك عينيْه كي يتأكّد إذا ما كان قد أفاق من إغماءته أم لا، فوجد أنّه فعلاً يعيش كابوسًا مُرعبًا، فآخر ما كان يتصوّر أن يراه في حياته هو أن يشهد على ابنه البِكر مخوْزَقًا وهو نصف عارٍ، بعد أن ظنّ أنّه سيجده مُقيّدًا بحبلٍ أو شريط لاصق وفمه مُكمَّم وهو مُحاطٌ بجماعة من اللّصوص تطلب فِديةً مُقابل إطلاق سراحه، مثلما كان يحدث في بعض دول أمريكا الجنوبيّة حسبما تنقله الجرائد المحلّيّة أو كما يُعرَض في أفلام الجريمة.

فعلى طريقة ڤلاد الثّالث وبعد أن نزع سُفيان لِحاء الغُصن دهَنه بالكامل بشحمٍ استخرجه من فخذ ساق حُسام التي قَطعها بواسطة مِنشار خشب وأذاب قطعةً منها على النّار. وبمساعدة نبيل قاما بإقحام رأس الغُصن المُدبّب في فُتحة شرج فيصل عاشق الأعضاء الذّكرية، وثبّتاه عليه وتركاه على تلك الوضعية

ليتعذّب وهو يموت ببطء، تعمّد سُفيان خوْزقته حتى يُشبع رغبة طيزه الذي لم يكتفِ من الأيور، قال هذا لنبيل عندما كان يقطعان جذع الشّجرة ساخرًا من فيصل الذي كان مقيّدًا وينتظر مصيره في اللّيلة السابقة.

ولأن جسم فيصل كان نحيلاً خفيف الوزن فقد استغرق وقتًا طويلاً لينزلقَ الخازوقُ بداخله، فلمّا أتيا بقدّور إلى هناك كان قد وصل الرّأس المدّبب إلى بطنه وبدأ في تمزيق أحشاءه، وعندها عاد يئنّ مجدّدًا بعد أن كان قد فقد وعيه من شدّة الألم.

أمّا سُفيان ونبيل فقد كانا جالسيْن في مكانٍ مظلمٍ من تلك الغرفة ويشاهدان قدّور وهو ينظر في يأسٍ إلى ابنه الذي كان يُحتَضَر أمامه دون أن يستطيع فعل أيّ شيءٍ من أجله، بكى وانتحب ودَعا وشتمَ ولعنَ وترجّى وتوسّلَ، ثم ابتهلَ وصلّى ونادى وصاح حتى بحَّ صوته وخنقته العبَرات، إلى أن تمكّن منه اليأس من إنقاذ إبنه لمّا رآه يتوقّف عن الأنين بعد قُرابة ساعةٍ ونصفٍ وهو جالسٌ بقُربه يراقبه، إلى أن لفظ آخر أنفاسه وزُهقتْ روحه قبل أن يخترق رأس الخازوق عنُقه مُمزّقًا اللّحم مُحْدثًا فيه ثُقبًا، وذلك لأنّ رأسه بقيتْ مائلة بعد أن مات ولم يخترق رأس الخازوق فمه

كما يحدث في الغالب. فظهر من الثّقب الجزءُ العُلويّ للخازوق الملطّخ بالدّم، فيما بقي جسده معلّقًا في منتصف الجذع.

شعرَ سُفيان بالمَلل وهو ينظر إلى ذاك العجوز البائس فنهض من مكانه وأمرَ نبيل كي يُخرجه من هناك ليتخلّصا منه في الحال، فقد نال منه التّعب وأراد أن يعود إلى بيته كي ينام ويرتاح، ففي اليوم التّالي كانت تنتظره قضيّةٌ مُهمّة في المحكمة عليه تولّيها.

كان رجال الإطفاء في الخارج قد أخمدوا النّار في هيكل السّيارة منذ ساعات، إلاّ أنّ أعوان الدّرك والشّرطة قد بقوا هناك لبعض الوقت يحقّقون في الجريمة التي وقعت هناك لمّا عثروا على الجثّة المتفحّمة في صندوق السّيارة.

وقد استعانوا بالشّرطة العِلمية لكي يكشفوا ويتتبّعوا الخطوات التي قام بها المجرم عند ارتكابه للجريمة، وبعد أن رفعوا بعض البصمات وتحصّلوا على بقايا من قطعة القُماش التي أُستخدمت في إشعال النّار وأيضًا أعقاب سجائر كانت مرميّةً في الجوار، إلاّ أنّ ذلك لم يكن دليلاً كافيًا ليوصِلهم إلى الجاني.

خرج سُفيان من المبنى بعد أن تأكّد أن المكان خالٍ تمامًا، وذلك كان في حدود الثّانية إلى الثّانية والنّصف صباحًا، ثم خرج

من بعده نبيل يدفع قدّور بكُرسيّه المتحرّك وهو في حالةٍ يُرثى لها بعدما شهِد على نهاية ابنه المأساوية. فتح نبيل غطاء صندوق سيارة سُفيان التي كانت مخفيّةً في مكانٍ بعيدٍ تحجُبه الأشجار والنّباتات ووضعه بداخله، كما أنّه وضعَ الكُرسي المتحرّك في المقعد الخلفي.

كان قدّور يعلم أنّ نهايته قد حانت ولكنّه لم يُظهر أي مقاومة، فقد بدا مستسلمًا متقبّلاً مصيره، أراد ببساطة أن يلحق بابنه الذي لم تعُد الحياة تعني له شيئًا من بعده.

طلب سفيان من نبيل أن يجلس خلف عجلة القيادة لأنّه لم يكن قادرًا على السّياقة لفرط التّعب، قاد السّيارة مبتعديْن من هناك ومن إن صارا وسط الطّريق المُعبَّدة فاجئهما قطيعٌ من الخنازير البرّية كانوا هابطين من الجبل، فاصطدم اثنان منهما بمُقدّم السّيارة فكادا أن يقلباها لشدّة قوّتهما، ضغط نبيل على الفرامِل فورًا وانتظر لبعض الوقت إلى أن ابتعدت الخنازير، ثم تابع السّياقة وهو يلعن أُمّهات الخنازير. وبعد بضعة أميالٍ من السّير أشارَ له سفيان بيده أن يوقِف السّيارة ويركُنها على قارعة الطّريق، ثم طلب منه أن يُخرِج قدّور ويضعه في كرسيّه المتحرّك

ويقيّده فيه، فنفّذ نبيل ما أمَره به سُفيان وهو لا يدري بعد ما الذي كان يدور في رأسه الشّيطانيّة.

كان زفير الرّيح المُنبعث من أسفل الجبل الذي كانوا واقفين على قمّته يبدو وكأنّه صادرٌ من حُنجرة جنّيةٍ ماردة قابعة في الأسفل هناك، فالطّريق الذي سلكاه كان يمرّ بشكلٍ متعرّج بجبلٍ كبير تحدّه السّهول والحقول الشّاسعة من جانب ومن جانبٍ آخر كان يحدّه وادٍ سحيق، استغلّ سُفيان قِلّة المارّة من هناك في تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل، فانحنى على قدّور الذي كان يرتجف من البرد ونظر جيّداً في عينيْه وهو يبتسم له ابتسامةً بثّت فيه رُعبًا لم يشعُر به في حياته، ثم استدار وراءه وقام بدفع الكرسيّ المتحرّك حتّى حافّة الوادي وبعد أن همَس في أُذن قدّور بما يشبه تحيّة الوداع، أو هذا ما اعتقد نبيل أنّه سمعه. عندها أفلتَ سُفيان مِقبضيْ الكرسيّ ليهويَ إلى الأسفل بقدّور الذي صرخ مُستنجدًا فلم يُسمَع حينها إلى صوت الكرسيّ يرتطم بالصّخور لبضعة ثوانٍ ثم لم يعُد هناك أيّ صوتٍ غير صوت زفير الرّيح التي أطربت مسامع سُفيان، فكانت بالنّسبة له كألحان النّصر عندما

تُعـزَف في حفـلات اسـتقلال بلـدٍ مـا، لقـد حقّـق سُـفيان إنتقامـه أخيرًا، وآن لأُمّه أن ترقد في سلام.

أمّا حُسـام فقـد مات بعـد ثلاثـة أيّام من ذلك بسـبب العطش وطـول العـذاب، فـدفَن سُـفيان ونبيـل جثّتـه وجثّـة فيصـل في قبرٍ مجهول بمكان لا يعلمه غيرهما.

بقي كلٌّ من قـدّور وابنـه فيصـل ومُسـاعده حُسـام في قائمـة المفقـودين ولـو أنّ السّـلُطات اعتبرتهم في عِـداد ضحايا الإرهـاب، وذلك لمّا توصّل المحقّقون إلى معرفة هوّيـة صاحب سيارة البي آم دبليـو بعـد تتبُّـع الـرّقم التّعريفـي الخـاص بهـا، فقـد تمكّنـوا مـن التعرّف على جثّة السّائق يحيا من خلال حمضه النّووي، كما أنّ إصـبع البُنصـر المقطـوع في يـده اليسـرى بسـبب حـادث عمـل في السّـابق دلَّـت عليـه. وذلـك مـا أكّـده أهلـه الـذين حضـروا لاحقًـا في جلسـة تحقيق.

أمّا الـرّقم التّعريفي الخـاص بالدّراجـة النّاريـة -السـوزوكي- التي وجـدوها مُحترقـة داخـل هيكل السّـيارة فكان مـدوّنٌ باسـم شخص اسـمه مـراد سـرياني، وهـو الإسـم الـذي أثبت بـه نبيل هوّيتـهُ المزوَّرة يوم ذهب لاسـتئجار دراجةٍ ناريـة من إحـدى وكالات إيجار المركبات

بولاية سطيف، ولمّا تتبّع المحقّقون ذاك الإسم تبيّن أنّه شخصٌ متوفّي منذ سنة 1986.

ليتمّ إغلاق القضية المعقّدة بعد بضعة أشهرٍ، إلى جانب عدّة قضايا غامضة أُغلِقت آنذاك، لتبقى الشّكوك تدور في حلقة مُفرغة، فيما اعتقد الكثيرون وقتها أنّه ما مِن أحد لتوجَّه له أصابع الإتّهام غير الجماعات المُسلّحة التي كانت تُصفّي العديد من رجال الأعمال والشّخصيات الهامّة في كل منطقة، خاصّةً وأنّ قدّور كان يُموّل ماديًّا حِزبًا مُعارضًا في تلك الفترة.

* * *

بعد مُضيّ بضعة أشهرٍ قرّر سفيان أن يزور بلدة بكّارية التي حنّ إلى جِبالها وحقولها ومزارعها وماءها العذْب، فحياةُ المدينة وصخبُها والعمل المكتبيّ المتواصل أصابه بالإرهاق وصار في حاجة إلى شيءٍ من الرّاحة النفسيّة والسّكينة بعيدًا عن ضوضاء النّاس والشّوارع الإسفلتية المكتظة بهم، نفسه باتت تتوق إلى استنشاق هواءٍ نقيّ يخلو من هواء لوّثتهُ مِدخنات السّيارات. نفسه تاقت للمشي حافيا على تربة بللتها الأمطار وفاحت منها تلك الرائحة

الزكية التي تَلي المطر والتي تشعره بنشوة لا يحصل عليها حتى لو استنشق أنقى كوكايين في العالم...

وأكثر ما اشتاق إليه كان أخته هُدى التي لم يزُر ضريحها منذ سنين طويلة...

كانت السّاعة 7:01 صباحًا عندما نزل سفيان من سيارته الـ Volkswagen Golf 5فضّية اللّون أمام بوّابة المقبرة القديمة المُسوّرة بسياجٍ معدنيّ به العديد من الفُتْحات والثّغرات التي أحدثها زوّارٌ لم يجدوا البوّابة مفتوحة؛ سارَ بين أضرحة الموتى وقد استغرق نحو رُبع ساعة من البحث عن ضريح شقيقته، فقد دُفن حول ضريحها المِئات من الأشخاص منذ آخر مرة زارها فيها. تملّكهُ التوتّر كلّما اقترب منه وكأنّه سيجدها هناك جالسة على حافّة الضّريح في انتظاره، بل كان خوْفًا وليس مجرّد توتّر! كان خائفًا من معاتبتها له على عدم زيارتها لأكثر من 15 عامًا...

كان الضّريحُ المكسوًّا بالأعشاب اليابسة ومُحاطًا بالأشواك مثلما كان عليه حالُ ضريح "كُليْب" عندما عاد إليه "الزّير" بعد أن كان فاقدًا للذّاكرة لسِنين في مُسلسل الزّير سالم أبو ليلى المُهلهِل. فما إن رآه سفيان على تلك الحال حتّى انهارَ وسقط على ركبتيْه

باكيًا، انهمرت الدّموعُ من عينيْه وكأنّه سدّ ماءٍ منيع وتهدّمَ بعدما صمدَ أمام البُكاء كثيرًا، ليغسِل وجهه بالدّموع التي ظلّت حبيسةً فيهما لسنين طويلة. لم يستطع الوقوف على قدميْه فواصل سيره لضريحها حبْوًا كما كان يفعلُ لمّا كان طفلاً رضيعًا وهو يحبو ليصل إليها وهي تُناديه فاتحةً له ذراعيْها:- ((هيا ماما.. شكون يجيني؟ شكون يجيني؟؟!....)) مازال صدى صوت كلمات وضِحكة هُدى يصدحُ في أذنيْه كما لو كانت تُناديه لحظتها...

انكبَّ سفيان على الضّريح وراح يجهشُ بالبُكاء كما لم يبكِ في حياته، احتضن حَوافه الإسمنتيّة بذراعيْه مُعفّرًا وجهه في تُرابه فاختلطت دموعه بالغُبار الذي كسَى وجهه وهو ينتحِبُ ويلثُم التُّربة تارةً ويُعانق حَواف الضّريح تارةً أخرى، ولسانه يلهجُ بكلمات الاعتذار سائلاً أُخته السّماح والغُفران والعفو كما لو كان مسيحيًّا يائسًا يركعُ تحت مَذبح العذراء يطلب شفاعة القدّيسة ريتا، ودون أن يشعُر وهو مُستلقٍ إلى جانب القبر أخذته سُنّةَ نومٍ...

رفع رأسه إلى السّماء تِجاه الشّمسِ فرأى فيما يرى النّائم هالةً كبيرة نورُها السّاطع يتوسّط قُرص الشّمس الذّهبيّ وهو يقترب من الأرض شيئًا فشيئًا، ليتبيّن له أنّ تلك ما هي إلاّ أمّه تنزِلُ في هيئة مَلاك من السّماء تُحيط بها هالةٌ من نور، ومن خلفها أُخته هُدى تتبعُها وهما تدنوانِ منه وكأنّهما تستعملان سلالِم كهربائيّة غير مَرئيّة...

مَدّتا إليه يديْهما ونادتاه ليصعد معهما إلى السّماء حيث الهدوء والسّلام الأبديّ، حيث لن يفترق الثّلاثة أبدًا. فرِح سفيان كثيرًا برؤيتهما وبدون تردُّد مدَّ يديْه لأمّه وأخته فأمسكتْ كلّ واحدة منهما بيدٍ وعادتا لتصعدا به إلى السّماء، وهو في طريقه إلى الأعلى راح يتقلّصُ حجم جسده تدريجيًّا وأخذ عُمره يصغُر تنازليًّا من رجلٍ بالغ إلى شابٍّ يافع إلى طفلٍ صغير، فتحمّس للأمر ولم يعُد يُطيقُ صبرًا حتّى يصل إلى المكان الذي كان يرى نفسه فيه مثل ذاك الطّفل الميّت في لوحة "عذراء التّعزية" Virgin Of Consolationالتي تصوّرَها William Adolphe Bouguereauلمّا عاد العُمر بسفيان إلى السّن الذي فارقتهُ فيه أخته.. – أم لعلّها رؤى ؟!– عندما أغرقتها والدتُها في حوْض حوْش بيْتٍ غير البيت

الـذي كبُر هـو فيـه. وذلـك حينمـا اكتشـفت حيـاة حمْـل ابنتهـا مـن نفس الرّجل الذي أنجبتها هي منه!!!

وبينمـا كان سـفيان الطّفـل الصّـغير صـاعدًا إلى الأعلى التفـت لينُظـر إلى المكـان الـذي صـعِد منـه فـرأى بقايـا جسـد فتـاةٍ عليهـا أسـمالٌ بيضـاء باليـة وشـعرٌ أشـقر طويلٌ ومنكوش تسـاقطَ مُعظمه قـد خرجـت من قبرِ هُـدى وراحـت تسـحبُ سـفيان النّائم من ذراعـه إلى داخـل القبر المفتـوح، صـاح فيـه سـفيان الطّفـل الصّـغير مـن الأعلى كي يسـتفيق ويُنقِـذ نفسـه منهـا غير أنّ صـوته لـم يكـن يصـل بفعل حاجزٍ هالة النّور التي كان الثّلاثة بداخلها....

لكـن صـوته وصـل إلى مسـامع تلـك الفتـاة لأنّهـا تنتمي إلى عـالَم الأمـوات، فرفعـت رأسـها إلى الأعلى ووجّهـتْ وجهـها إلى مكـان هالـة النـور فهالَـهُ منظرهـا المُفـزِع لمّا رأى وجهًـا أخضـرًا شـاحبًا بمَحجـريْن فـارغيْن لا عينـان فيهمـا يمـلأ الـدّود فراغهُمـا، ابتسـمت لـه الفتـاة الميْتة فانكشـفَ صفّان من الأسـنان السّـوداء. ليخرُج من فمها بعد ذلـك مـاءٌ متّسـخ.. المـاءُ نفسـه الـذي ابتلعتـه يـوم غرِقـت قبـل 15 عامًا؛

بدأت الفتاة الميْتة تسعلُ بشدّة فأفلتتْ ذِراع سفيان وأحاطت عُنقها بكلتا يديْها لمّا اختنقت بالماء وفقدت توازُنها ومالت إلى الوراء ثمّ سقطت داخل قبرها.. لم يتوقّف الماء عن الخروج من فمها حتى وهي داخل القبر، فبدأ الماء يغمُرها وانجرفت التربة إلى الداخل بفعل حركة المياه واختلطت بها لتُصبح وحْلاً، فدُفِنت مُجدّدًا وإلى الأبد...

استفاق سفيان عندما تساقطت على وجهِه ذرّاتٌ مطرٍ صغيرة فنظر حوله وهو يفرُك عينيْه، نظر إلى ساعة الجوّال فكانت قد تجاوزت الثّامنة والنّصف. قام من مكانه ونفض ملابسه ونظر إلى شاهدةِ القبر، تأمّل اسم أخته وتاريخ ميلادها ووفاتها المكتوب بخطٍّ بهُت بفعل الزّمن. استقام في وقفته وقرأ عليها سورة الفاتحة ودَعا لها بالرّحمة ثمّ انحنى وقبّلَ شاهدةَ القبر وودّعها...

غادر المقبرة راكضًا لمّا بدأ ينهمرُ المطرُ فدخل إلى سيارته وأدارَ المحرّك، شغّل مكيّف التّدفئة وراح يبحث عن أسطوانة Hypnotizeالذي أصدَرته مؤخَّرًا فِرقته الغنائيّة المُفضّلة System Of A Downوالتي لم يكن يستمع لموسيقى غير موسيقاهم تقريبًا. وضعَ الأسطوانة في ستيريو السّيارة واختار أغنية Lonely Day

واستمع إلى المقطع الأوّل منها وهو مغمَض العينيْن مُتمعّنًا في معنى حياته التي كان يعيشها وحيدًا...

ضغطَ على دوّاسة الوقود وانطلق ناحيّة حانة طارزو القريبة لمّا شعرَ فجأةً برغبةٍ كبيرة في الشُّرب، أراد أن يستعين بالكحول ليتغلّب على مزيجِ المشاعر التي كانت تبدو مثل عاصفة خَراء داخل خلاّطٍ آليّ.

وبينما هو يخرج بسيّارته إلى الطّريق المُعبّدة مرّت العجلات بحُفرةٍ لم يرَها فوقع غِلاف الأسطوانة بجانب قدمه، انحنى ليلتقطه دون أن ينظر في المرآة الجانبية فلَم ينتبه إلى شاحنة كبيرة لنقل أكياس الإسمنت قادمة من الخلف بسُرعة. وبينما هو منشغلٌ بالتقاط الأسطوانة خُيّل له أنّه سمع صوت "هُدى" تُناديه من المقبرة باسمه...

ولمّا رفعَ رأسه رأى الشّاحنة على بُعد مترين من سيّارته فلعَنَ يومه ذاكَ.. وتلك كانت آخر ما نطق به سفيان قبل أن تُسحق سيّارته تحت عجلات الشّاحنة...

كان في النّزع الأخير عندما أحاط به جمعٌ من النّاس بعد أن أخرجوه من حُطام السّيارة وهو مضرّج بالدّماء، لم يرَ ملامح أو هيئة أيٍّ منهم إلاّ كما لو كانوا ملائكة حَزانى على مماته وهو يغادر دُنياهم محمولاً على ذراعيْ أمّه المكلومة، كما صوّر William Adolphe Bouguereauيسوع ميّتًا في لوحة Pietàوهو في حُضن مريم العذراء الحزينة عليه.....

قُربان پان

في الطابق السُّفلي من بيتٍ مكوّنٌ من ثلاثةِ طوابق تسكنه عائلةٌ كبيرة، أبٌ وأُم وأربعة أبناء، وَلدان وبِنتان. الأب عبد الصّمد والأُم نرجس كانا يسكُنان في الطّابق الأول، وأبنائهما الثّلاثة خديجة وسكينة وشريف كانوا يسكنون في الطّابق الثّاني. أمّا الطّابق الثّالث فكان لإبنهما بالتبنّي، الذي كان يسكن فيه مع زوجته وابنتهما الرّضيعة.

كان بالبيت جراجٌ كبير رُكِنت فيه سيارة الـ406 الخاصّة بإبراهيم، وهو الابنُ الأكبر لعبد الصّمد الذي كان قد تبنّاه فيما مضى في سنوات زواجه الأولى قبل أن يُرزق بأبناء، وذلك كان إيعازًا من زوجته نرجس التي ألحّت عليه وقتها بأن يأتوا بأحد الأطفال اليتامى من مركز العناية بالأيتام بِبلدة بكّارية حيث كانوا يقطنون، وذاك ما كان.

بجانب سيارة إبراهيم كان هناك خروفٌ وتيسٌ مربوطان بحبليْن بجانب بعضهما، وُضع أمامهما كومةٌ من التّبن ودلوُ ماء، وكان ذانكَ أُضحيتا عيد الأضحى لسنة 2022, أخذ التّيس يتحرّك ويدور حول نفس محاولاً الإفلات من الحبل، فبينما هو يتحرّك

دفع الدّلو بحافره الخلفي فاندلق الماء على الأرض الأسمنتية. فهو لم يتعوّد على الرّبط في الزّريبة التي وُلد وتربّى فيها.

كان التّيس مُتوسّط الطّول والعُلوّ، يكسو الشّعر الطّويل الأبيض كلّ جسمه عدا رأسه الذي كان لونه أسودًا بالكامل، والذي لم تكن فيه قرون. لم تكن تعلو ملامح التّيس تلك النّظرة البلهاء التي تعلو ملامح الأتياس والمواعز عادةً، فعيناه كانتا تبدوان كما لو أنّهما كُريّتان زُجاجيتان رماديتان، وداخلهما تسبح قزحيتان على شكل مستطيلٍ أُفقيٍّ أسود تثير الرّيبة وأحيانًا الخوف في نفس من يحدّق فيهما.

كانت عيناه ساكنتان متجمّدتان كعينيْ حيوانٍ ميّت، إلاّ أنّهما كانتا تتْبعان النّاظر إليهما أينما كان يقف أو يتحرّك وهو بالقرب منه، كان تيسًا هادئًا صامتًا لا يصدُر منه أيّ ثُغاء. حتى إنّه في اليومين اللّذيْن قضاهما في منزل عبد الصّمد لم يره لا هو ولا أحد أبناءه وهو يأكل أو يشرب. فحسبوه خجولاً لا يسمح لأحد بأن يراه وهو يأكل، والغريب في الأمر أن محمود - مُربّي المواشي الذي اشتراه عبد الصّمد من عنده - أخبره أنه لم يسبق وأن رآه أحد وهو يأكل أو يشرب منذ أن كان جدْيًا صغيرًا، رغم محاولاتهم العديدة

لمراقبته في الزّريبة أو في المرعى إذا ما كان يأكل أو يشرب حتى لكن دون جدوى، ومع ذلك كان يكبر ويسمَن كبقية القطيع. إلاّ أنّ الأمر لم يكن بتلك الأهميّة، فقد رجّح الكلّ أنّه يأبى أن يأكل على مرأى من الناس، فعلى الأرجح كان يأكل في ساعات متأخّرة من اللّيل عندما تنطفئ الأضواء وينام الجميع.

إلاّ أنّ الحقيقة غير ذلك تمامًا، فما كانت تراه الأغنام والأتياس التي كانت في الزّريبة مع الجدْي شيء مختلف، فبعد منتصف كل ليلة -منذ أن ماتت المعزة أُمّه- كان يدخل من إحدى نوافذ الزّريبة المتواجدة في أعلى الجدار رجلٌ ضخم طويل القامة، فيتقدّم من الجدْيِ ويضع أمامه كيسٌ من الخيْش وجرّةً ثم يغادر من النّافذة بنفس الهدوء حتى لا يُزعج بقيّة القطيع فيُحْدثوا ضجّة، وقبل طلوع شمس الصُّبح يعود الرّجل ليأخذ الكيس والجرّة اللّذان سيجدهما فارغيْن، ليضعهما في كيس أكبر كان يحمله دائمًا على ظهره، ثم يغادر المكان ولن يعود إلاّ في اللّيلة التّالية في نفس التّوقيت، كشبحٍ لا هيئة محدّدة له ولا ملامح، لا تتّضح مقدّمته من مؤخّرته، فقط في تلك اللّيالي المُقْمرة تستطيع الأغنام والأتياس أن ترى على ضوء القمر صدره العاري مفتول

العضلات، يكسو رداءٌ صوْفي أسود كتفه الأيسر، أمّا نصفه السّفلي فالصّوف الأبيض ما كان يكسو ساقيْه بالكامل، صّوفٌ ينمو عليهما ويصل حتى حافِراه اللّذان كان يشبهان حوافر الأغنام. أمّا رأسه فلم يكن يظهر منه إلاّ لحيته الطويلة وأذنان كبيران كأذان المواشي، يتوسّطهما قرنان متوسّطا الطول يقعان في مقدّم رأسه الكبيرة التي يكسوها شعرٌ مجعّد كثّ.

في اللّيلة التي سبقت يوم عيد الأضحى، وعلى السّاعة الثّانية والنّصف، وهو الوقت الذي اعتاد التّيسُ أن يتناول طعامه فيه، مرّ يومان لم يأكل أو يشرب فيهما شيئا حتى تلك اللّحظة، وقد نفد صبره وهو ينتظر من شاعبان كي يأتيه بطعامه المعتاد ككلّ ليلة منذ أن وضعته أمّه، شاعبان السّاتير ذاك المخلوق الأسطوري الذي كان نصفه رجل ونصفه الثّاني كبش، فمنذ أن وضعته أمّه وهو يعتني به ويحرُسُه ويحرص على سلامته، كما أنّه كان يؤمّن له وجبة طعامه اليوميّة المتمثّلة في أحشاء ودماء أطفال رُضّع يقوم باختطافهم وقتلهم ثم ينتزع أحشاءهم ويضعها في كيسٍ من الخيشةِ، وذلك بعد أن يترك دم ضحيته في كلّ مرّة يقطُر فيتجمّع في جرّة فخّارية. ثم بعد ذلك يتخلّص من بقايا الجثّة برميها داخل

بئرٍ من الآبار الجافّة داخل دواميس مجهولة كانت تسكنها الجنّ قبل أن تهجرها لمّا سكنها هو، وذلك بعد أن اكتشفها في أحد المرّات عندما كان يرافق والده سليم ليرعى الأغنام في الجبال والهضاب البعيدة عن البلدة. والده الذي ضاجع فيما مضى معزةً أعجبته، وذلك في أحد الأيام الصّيفيةِ الحارّة لمّا اهتاجَ واُستثيرت غريزته الجنسيّة لمّا رأى ملاك، وهي إحدى الفتيات الطّالبات التي كانت تسكن في القرية الصّفراء الواقعةِ في البَحِيرة، والتي تبعد مسافة 10 دقائق عن بلدة بكّارية.

فلمّا كانت مَلاك إبنة أحد سكّان القرية الصّفراء عائدةً من المدرسة رآها سليم الذي كان يرعى أغنامه في حقل يقع على إحدى جهتيْ الطريق المؤدّي للقرية، وكان كلّما رآها يتشهّاها ويتمنّى الإختلاء بها ومضاجعتها وهو يحدّق في مفاتنها البارزة من تحت ملابسها الضّيقة المثيرة. وفي ذلك اليوم لم يتماسك سليم ولم يستطع التحكّم في نزوته، خاصّة بعد أن استعمل في اللّيلة الفائتة مُرهم لزِج اشتراه من أحد الباعة الزّنوج الذين كانوا يبيعون أعشابًا وأدوية طبيعية ووصفات طبّية غريبة في قوارير وقراطيس لا أحد يعلم من أين يحصلون عليها أو ما إذا كان لها تلك المنافع

الكثيرة التي يعِدون بها زبائنهم. وقد كان سليم أحدهم، فكثيرًا ما اشترى من عندهم أعشابًا لمعالجة قُرحة في معدته أو آلام الظّهر التي كان يعاني منها، ولأنّه زبونٌ دائم قام أحد أولئك الباعة -الذي كان يُدعى "إدريس صالو"- في يومٍ ما بإعطائه مُرهم سرّي كان سيبيعه لزبون آخر، ولأنّ ذاك الزّبون لم يعُد قرّر إدريس أن يبيعه لسليم حتى لا يخسر المال الذي أنفقه للحصول على تلك المادّة السّحرية - كما كان يقول- من بلده النّيجر. ولأنّ سليم يثق به اشترى منه المُرهم على أن يدفع له ثمنه على مرّات لكونه باهض، فوافق البائع. وظلّ سليم يدهن عضوه الذّكري بذاك المُرهم طيلة أسبوع ظنّا منه أنّه سوف يزيد من حجمه وقوّته الجنسية كما أوهمه إدريس الذي أخبره أنّ ذاك هو سرّ ضخامة أعضاء الأفارقة السُّود الذّكرية.

في تلك الأُمسية اختار سليم أجمل معزة وأكثرها نظافةً من بقيّة المَعيز، فقادها إلى منحدرٍ تنمو فيه نباتات الصّبار وانزوى بها هناك وراح يضاجعها وهو يتخيّلها الفتاة ملاك، فأشبع رغبته فيها وأفرز مَنيّه بداخلها. لتحمل تلك المعزة بعد ستّة أشهر وتضع جدْيًا له ملامح إنسان. وضعت له ما يشبه "فون" في البداية، كذاك

الذي كان يسمع بعض أطفال القرية في صِغره يتحدّثون عنه لمّا شاهدوا قصصًا خُرافيّة عنه في مسلسلات الكرتون. أولئك الأطفال الذين كانت لدى عائلاتهم أجهزة تلفزيون حيث يمكنهم مشاهدة أفلام ومسلسلات الكرتون، التي لم يحظَ في حياته بفرصة الجلوس أمام ذاك المكعّب الأسود المزوّد بشاشة زجاجية يتحرّك من خلفها أناسٌ آخرون يعيشون في عوالم موازية، أو هكذا كان يُخيّل لسليم الأُمّي المُعدَم الذي لم يولَد ولم يوجد إلاّ لكي يرعى أغنام محمود، والده المتسلّط الذي كان يُعامله كما لو كان عبدًا عنده، كنُسخةٍ مُعاصرة من عنتره الذي عاش نصف عمره عبدًا عند والده شدّاد. ولكنّه لم يكن بذكاء وفصاحة وفراسة وقوّة عنتره، فقد كان متخلّفًا عقليًّا يعاني من التوحّد وطفولة متأخّرة، فيبدو لمن يرى تصرّفاته أنّه طفلٌ كبير، فعلى الرّغم أنّه تجاوز سنّ الثّلاثين إلاّ أنّه بقي في مستوى عقلية طفلٍ في الثّالثة من العمر، وربما هذا ما جعل والده يسخّره إلاّ لأعمال السَّخَرة ويكلّفه فقط بالمهام الشّاقة كالرّعي وتنظيف الزّريبة ونقل الأحمال وغير ذلك من أعمال المزرعة التي لا تقوى حتى الحمير على تحمّلها.

لم يظهر السّاتير شاعبان بعد رغم أنه تتبّع حُبيْبات الرّوث التي تركها التّيس عمدًا على طول الطّريق من المزرعة حتى المنزل الذي هو فيه، وذلك حتى يتمكّن السّاتير من العثور عليه من خلال تتبُّع حُبيْبات الرّوث. ولكنّ حتى بعد أن وجد السّاتير المنزل الذي يتواجد به التّيس لم يتمكّن من الدخول إلى بيت فريد أو التسلّق فوقه بسبب الجدران العالية والأبواب المعدنية المغلّقة من الداخل، كان التّيس يتضوّر جوعًا وكلّما زاد جوعه تغيّرت ملامحه واحمرّت عيناه أكثر، ازداد طوله في اليومين الأخيرين وبرز له قرنان، كما تقلّص حافرا قدماه الأماميتان وبدآ يأخذان شكل أصابع إنسان، وكذلك تغيّر شكل وجهه فأصبح قريب الشّبه من وجه الإنسان، كما نما له ذقنٌ بعُثنون طويل، عدا أذناه بقي لهما شكل أذنيْ تيس.

كان صوت بُكاء الرّضيعة ابنة إبراهيم في الطّابق العُلويّ يصل إلى أُذنيْ التّيس الذي زاد حجمه وصار ضِعف حجم العِجل وهو يقف على قائمتيْه الخلفيتيْن رافعًا رأسه الأسود إلى السّقف متتبّعًا مصدر صوت البكاء الذي كان بطريقة ما يثير غريزته، يجذبه إليه وكأنّ الطّفلة الرّضيعة تنادي عليه، أو هكذا خُيّل له

بوسوسةٍ من شياطينه التي كانت تسكن جسده كما تسكن قبيلةٌ من القُراد جسد كلبٍ مشرّد.

كان السّاتير في الخارج يشعر بالخطر المُحدِق بأفراد تلك العائلة وهو ينظر من خلال شقوق باب الجَراج إلى التّيس الذي صار في مثل طوله وشكله، إلاّ أنّه كان يختلف عنه في التحكّم بالذّات، فمن دون طعام سوف يرتكِب هذا الفون الشّيطاني مجازر في سبيل حصوله على دماء الأطفال الرُضّع!

ولهذا كان في كلّ ليلة يُرسِل الإله پان عبده وخادمه السّاتير شاعبان على ظهر «يانماو» البِ ِساط الصّوْفي الطّائر ليصطاد ويختطف الأطفال الرُضّع من أمّهاتهم من كلّ ربوع الأرض، أينما وُجد رضيعًا بمفرده أو غفلت عنه أمّه للحظات دون أن تترك معه أحد ليراقبه أو يعتني به، سيكون مصيره محتوم...

فبعد أن كلّف الإله پان ساتيرًا آخر من أتباعه ليقتل سليم وجعل السّاتير شاعبان يشرب من دم والده ويأكل من أحشائه كما جعله من قبل يشرب من دم والدته ويأكل من أحشائها، وذلك حتى ينتزع أي عاطفة من قلبه ليظلّ ولاءَهُ له هو وحده، عبدًا وخادمًا لإلهِه پان إلى آخر يوم من عُمره.

كانت دماء الأطفال الرُضّع بمثابة مُخدِّر يُبقي على السّاتير أو الفون هادئًا طيلة الأشهر السّتة الأولى من حياته، قبل أن يحين وقت بلوغه مرحلة التحوّل ليصبح فيها ساتيرًا ناضجًا كامل النموّ، أما في حالة الفون "استيبان" - وهو الإسم الذي أُطلق عليه عند الولادة - فهو لم يتجاوز شهره الرّابع عندما انتقل إلى مرحلة التحوّل، وهذا يعني أن عقله لم يكتمل ممّا يجعله غير قابلٍ للتحكّم فيه وتوجيهه من قِبل حارسه السّاتير المكلّف بالعناية به، وهذا سيجعله عبارة عن آلة قتل، ذات قِوى خارقة وقُدُرات عالية تفوق قُدرة البشر أو الحيوانات إذا ما تعرّض لهم.

أقلق هذا الوضع السّاتير شاعبان الذي كان يقف بجانب باب الجراج وهو يفكّر في حيلة للدّخول إلى هناك قبل أن يتسبّب تلميذه في كارثة هو غير مستعدّ لعواقبها. فقد كان ذاك أول إمتحان تجريبي كلّفه به الإله پان، وعليه أن يجتازه بنجاح إذا أراد أن يصبح مسموحًا له المرور عبر سرداب پانكاريا الذي يؤدّي إلى مملكة الشّيطان عبر تجويف أرضي لا يعرف مقرّها إلاَّ مخلوقات السّاتير والقنطور والماينوتور وحوريات الجِنّ والأمازونيات، وأيضا طيور العنقاء والغريفين التي كانت من حينٍ لحين تأتي لتصطاد

وتقتات من جبال بلدة بكّارية. أمّا إذا أخفق في مهمّته فسوف يظلّ هو وتلميذه عالقيْن في أرض البشر إلى الأبد، وذاك كان بمنزلة سجنٍ مؤبّد بالنسبة للسّاتير.

في تلك الأثناء كانت إنشراح تتأوّه وتتلوّى تحت جسد زوجها إنشراح الذي كان يهزرُها وهو يعتليها فوق السّرير الذي كان صوت صريره بفعل الإهتزاز يصل إلى أذنيْ شريف المُستلقي في غرفته الواقعة تحت غرفة أخاه المتزوّج. في حين كان هو يشاهد أحد الأفلام الإباحية ويَستمني مُتخيّلاً نفسه يضاجع سارة بنت الجيران وشقيقة صديقه المقرّب عبد الكريم؛

توقّف شريف للحظة عن فرْك عضوه لمّا خُيّل إليه أنّه سمع وقْع خطوات أحدهم يصعد السّلالم المؤدّية إلى الطّابق العُلويّ، فبعد أن أصاخ السّمع رجّح أنّ ما سمعه هو صوت أرداف النّجمة الإباحية Sophie Dee وهي تهزّ وركيْها العظيميْن بعد أن دهَنهما لها المُدلّك بزيْت جوز الهند وهي نائمة على بطنها فوق كنبة التّدليك قبل أن يضاجعها.

كانت إنشراح في غمرة نشوتها الجنسيّة وهي ترى زوجها إبراهيم على ضوء مصباح الكومودينو الخافت كالإله إيروس، رَبّ الحُبّ

الجسدي والرّغبة كلّما ولَجها بعُضوه ليُقحِمه في فرْجها المُبلّل مُسبقًا، كما اقتحم جيش طارق بن زياد شبه جزيرة ايبيريا عند الفتح، فيبدو لها في تلك الدّقائق بطل الأبطال وأوسمَ الرّجال وأحسنهم خِلقةً، رغم أنّه في الحقيقة لم يكن بتلك الوَسامة أو الشّهامة.

فجأةً رأت أذناه تتمدّدان ويصبح لهما شكل آذان الحمير فراعَها ذلك، خاصّةً لمّا رأت انعكاس ظلُّ ذيْلٍ على الحائط، ولم يكن ذلك إلاّ ذيل الفون استيبان الذي كان قد باغت زوجها من الخلف ووضع يديْه الكبيرتيْن على كتفه المُشعّر المُتعرّق، فشعرَ إبراهيم كما يشعر النّائم عندما يشدّه الجاثوم فيشُلّ جسمه ويعجز تمامًا عن الحركة. أحسّت إنشراح بارتخاء عضو زوجها وهو ينسحب إلى خارج فرْجها كما خرج أبو عبد الله الصّغير مغلوبًا من غرناطة، ليُسلّم مفاتيح قصر الحمراء إلى خصمه فرديناند ليحُلّ محلّه فيها. ففي الحين الذي ارتخى أيْر إبراهيم الذي كان نصف واعٍ بما يجري من حوله، مُستسلمًا للفون الجاثم على ظهره، انتصب أير الفون وولجَ دُبُر إنشراح. فصاحت بأعلى صوتها لمّا أحسّت بطعنةٍ قويّة غير متوقَّعة في دُبُرها من أيْرٍ أكبر

وأطول من أيْرِ زوجها الذي لا يصل إلى رُبع طول أيْر الفون، صدرتْ منها صيْحةُ ألمٍ عالية وصلت إلى مسامع سكينة وخديجة اللّتان كانتا تغُطّان في نومٍ عميق في تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل فأيقظتهما، وعلى ضوء مصباح جوّال سكينة نظرت الأُختان البائِرتان إلى بعضهما البعض نظرةً مِلؤها الغيرة والحسد، مُتمنّيتان لو أنّهما هما أيضا كانتا في أحضان زوجيْن يجامعانهما كما كان يجامع أخوهما زوجته. عادتا بصعوبة إلى النّوم وهما تعُدّان في سرّهما سِنين عُمريْهما التي اقتربت من الخمسين، ونار الحسرة والقنطة واليأس تحرقهما كلّما تذكّرتا أنّهما شارفتا على بلوغ سنّ اليأس.

هلعت إنشراح لمّا رأت رأس مسْخٍ قبيحٍ يُطلُّ عليها بعينيْن مخيفتيْن من وراء رأس زوجها فاقد الوعي، وحينها فقط تبيّن لها أنّ الأذنان الكبيرتان كانتا تنموان في رأس ذلك الوحش وليست في رأس زوجها كما تهيّأ لها قبل ثواني. راح الفون استيبان يطعن دُبُر إنشراح بجِربته الكبيرة بكلّ قوّته وبسرعة توازي سرعة الأرانب عند التزاوج، كان يلهث كلُهاث كلب عطشانٍ في يومٍ صيفيٍّ قائظ وهو مستمتعٌ بغمرة تلك النّشوة، وعندما بلغت به ذروتها مدّ

لسانه الأحمر الطّويل وأقحمه في فم إنشراح حتى وصل إلى حلقها فكادت أن تختنق به، وقبل أن تنتهي نشوته الجنسيّة أمسك برأس إبراهيم الذي كان ما يزال غائبًا عن الوعي وغرز أنيابه في عنُقه من جهة الوريد الأيسر، ومزّق لحمه مُحدثًا فيه ثُقبًا كبيرًا انفجرت منه عينٌ من الدّم فتناثرت قطراته في كلّ مكان، أخذ يشرب من دمه إلى أن توقّف النّزيف ثم أبعد جثّته لتسقط على جانب السّرير بِلا روحٍ فيها.

أمسك الفون برأس إنشراح التي كانت تشهق وتبكي وتصرخ بشكل هستيريّ أيقظ طِفلتها فراحت تبكي بصوتٍ عالٍ هي الأخرى، وضغط عينيْها بإبهاميْه بقوّة حتى فقعهما، وكطفلٍ صغيرٍ يمسك بكرة بولينغ بكلتا يديْه، أمسك بالرّأس واقتلعه من العُنق ورفعه للأعلى وترك الدّم الذي سال من الأوعية يقطر في فمه قبل أن يُلقي به على قوارير العِطر ومُزيلات العرق التي كانت مُرتّبةً فوق مِنضدة الزّينة الموجودة في الجانب الآخر من الغرفة، فسقطت كلّها وتحطّم زجاج المرآة لمّا ارتطمت الرّأس به وتتطايرت شظاياه في أرجاء الغرفة.

قام الفون من على السّرير الذي صار غارقًا في الدّم والمنيّ والبوْل والعرق، وتوجّه إلى مهد الطّفلة الرّضيعة التي لم تتوقّف عن البكاء، حدّق بها طويلاً وهو يلعقُ ما علِق على شفتيْه من بقايا الدّماء كما تحدّق لبؤةٌ صيّادة في الأدغال بصغير غزالٍ قبل أن تنقضّ عليه، كان متعطّشًا لدمِها النّقي ومُتلهّفًا لتذوّق لحمها الغضّ.

في تلك الأثناء سمع الفون صوت جلَبةٍ في الأسفل، اعتقد أنّه السّاتير يحاول كسر باب الجَراج، فهو لم يكن يعلم بوجود أشخاصٍ آخرين في البيت غير الزّوجيْن وطفلتهما.

لمّا سمع شريف صوت إنشراح قبل دقائق قام فورًا من مكانه واتجه إلى السّلالم المؤدّية إلى الطّابق الثالث ليرى ما الذي كان يجري، فوجد أختاه خديجة وسكينة أمام باب غرفتهما وهما بصدد الصّعود لرؤية ما الذي كان يجري في بيت أخوهم هما أيضًا. لكنّ ثلاثتهم توقّفوا فجأةً عندما سمعوا صوت والدتهم تستنجد بهم في الطّابق السُّفلي، نزل الإخوة الثّلاثة بسرعة ليجدوا والدتهم تبكي وتُولوِل وتلطم وجهها وهي تُشير إلى مخلوقٍ مُخيفٍ كان يقف في رُدهة بيتهم، تسمّر شريف وأختاه في مكانهم لمّا رأوا رجلاً فارع

الطّول ضخم الجثّة له قوائم كبش مُمسِكٌ بوالدهم من عنقه وقدماه تتدلّيان في الهواء والبوْل يقطر من تحت منامتِه وهو يحاول في يأسٍ تخليص نفسه من قبضته القويّة. كان ذاك السّاتير شاعبان بعد أن أسقط باب الجَراج بنطحتيْن قويّتيْن من رأسه الكبيرة واقتحم المنزل، وذلك لكي يمنع الفون من قتل الطّفلة الرّضيعة ووالديْها فيوقِعه وإياه في ورطةٍ هو غير مستعدّ لها. ولمّا حاول عبد الصّمد التصدّي له بواسطة مِكنسة انتزع السّاتير المِكنسة من يده وصفعه على وجهه ثم شدّ قبضته على عُنقه كي يقتله لتجرّأهِ عليه، لم يعرف شريف ما الذي يجب فعله فراح في ارتباكٍ يصيح مستنجدًا بالجيران من خلال شبّاك النّافذة كي ينقذوهم من ذلك الوحش الذي لم يسبق له ولا لأفراد عائلته أن رأوا مثله ولا حتى في الكوابيس. ولكن دون جدوى، فهو يعلم مسبقًا أنّ الجيران لن يلبّوا نداءه ولن يهبّوا لنجدتهم حتى لو رأوا ألسنة لهب النّار تستعر في دارهم، وذلك بسبب سوء معاملتِهم لجيرانهم الذين كانوا يحتقرونهم ويتكبّرون عليهم لكون عائلة عبد الصّمد أغنى عائلة في الحيّ، فحسبوا أنفسهم خيرًا من البقيّة فقط لأنّهم يمتلكون مالاً أكثر.

لـم يـتمكّن شـريف مـن إنقـاذ والـده، فقـد لفـظ هـذا الأخير أنفاسه الأخيرة وألقى السّاتير بجثّته على زوجته التي كانت ما تزال تندبُ، فأسقطها ثِقل جثّة زوجها على الأرض وارتطم رأسها بحافّة طاولة الطّعام الموضوعة هناك فأُغمي عليها.

هرعـت خديجـة إلى والـدتها لمّـا أُغمـيَ عليهـا غير مكترثـةً بمـا سـيفعله بهـا ذاك الـوحش بعـدما حصـل لوالـديْها، أمّـا شـريف وسكينة فقد فرّا مذعوريْنِ إلى الأعلى عندما رأياه يتقدّم متوجّهًا إلى السّـلالم، فـدخلا إلى غرفـة سـكينة وخديجـة وأوصـدا بابَهـا مـن الدّاخل وكتما نفسيْهما بعد أن أطفآ النّور، ومن وراء باب الغرفة سمع شريف وسكينة وقْع حوافر الوحش الذي لم يعرفا ماهيتَه وهو يصعد إلى الطّابق الثّالث، داعييْنِ الله وهما يرتجفان خوفًا أن ينجّيهما وينجّي أخوهما وزوجته وابنتهما الرّضيع، غير عالميْنِ بعد أن المحظور قد وقع سلَفًا.

دفـع السّـاتير شـاعبان بـاب غرفـة الـزّوجيْن الـذي كان موارَبًـا، فـرأى تلميـذه جالسًـا فـوق سـجّادٍ على الأرض بجانـب المَهـد وهـو مُمسِكٌ ببقايا جثّة الطّفلة الرّضيع التي كان قد أتى على معظمها، كان يبتسم ابتسامة انتصار وهو ينظر إلى السّاتير وكأنّه يقول له:

"لقد انتصرتُ عليكَ وتمكّنتُ من الحصول على طعامي دون الحاجة إليك!"

بعد قليل سمِعا ضجّةً في الأسفل فعرف شاعبان أن الجيران قد هبّوا لنجدة العائلة، فنداء الواجب الإنساني غلب في الأخير وتجمّعوا أمام باب المنزل، فيما دخل بعضهم لينقذوا شريف وسكينة لمّا ترجّتهم خديجة التي كانت ترشّ الماء على وجه والدتها التي لم تستفق من إغمائتها بعد، فلم يكن أمام السّاتير شاعبان إلاّ أن يغادر المكان، فأشار بيده لاستيبان الذي كان مُنهمكًا في التهام ما تبقّى من جسد الرّضيعة لكي يخرُجا من هناك، فألقى قِطع اللّحم المُمزّقة على السجّاد وتبع راعِيه الذي سبقه إلى السّطح، وهناك نادى السّاتير شاعبان على بساط اليانماو الطّائر فأتاه في ظرف ثانيتيْن، صعد الإثنان على متنه وحلّقا عاليًا في السّماء مبتعديْنِ من هناك.

في أحد النُزُل الرّخيصة بمدينة تبسة كان إدريس صالو متّكئًا على حصيرٍ في غرفته يبتسم ابتسامةً عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء التي تعلوها طبقة بُنّية خلّفتها سجائر والقهوة اللّتان يتعاطاهما منذ سنين، أخذ إدريس يعُدّ ما جناه من دراهم من

بيعه للمَراهم الزّيتية والأعشاب الطبّية والمساحيق السّحرية التي باعها للمغفّلين التبسّيين في ذلك اليوم، سقطت من يده ثلاثُ قطعٍ نقدية من فئة 10 دنانير، فالتقط إثنتان منها وبقي يبحث عن الثّالثة التي تدحرجت واستقرّت تحت منضدة التلفاز، فترك أمرها ليبحث عنها لاحقًا وتابع عدّ نقوده.

أخذ بعد ذلك قارورةً بلاستيكية بيضاء مُلطّخة ببُقعٍ صفراء، فتحها وشمّها ثم أغلقها بسرعة لعدم تحمّله لرائحتها القويّة الزّنخة، فقد وصلته تلك القارورة في ذلك المساء من أحد أبناء قبيلته النّيْجيريين الذي أتاه بها من عند أحد أكبر مشعوذي بلادهم، وقد كانت تلك القارورة تحتوي على خليطٍ من بوْل نساء زنجيات عقيمات ومَني شياطين الجنّ الذين كان يتعامل معهم ذاك المُشعوذ. وقد كان يستخدمها إدريس في خلطاته السرّية ليمزُجها مع مساحيقه وزيوته وأعشابه ثم يبيعها كمقوّيات جنسيّة، وهي نفس الخلطات السّحرية التي كان سليم الرّاعي قد أخذ منها قبل سنةٍ ونصف.

كان الغرض من تلك الخلطات هو نشر بذور الشّيطان في سُلالة الجزائريين والمغاربة ككُلّ، وذلك لتقليل نسلهم عن طريق خَصبِهم ومنع أكبر عددٍ منهم من الإنجاب، وذلك بواسطة المُغفّلين الجَهلة ضِعاف الإيمان بالله الذين يتركون الأطباء والأخصّائيين عند الحاجة للعلاج، ويلجأون إلى أولئك الزّنوج السّحَرة المنتشرين في كلّ مكانٍ من البلاد تحت مُسمّى باعة أدوية أعشاب، والذين كانوا مبعوثين ومكَلّفين من قِبل طوائف متطرّفة تابعة لمنظمة الآفروسنتريك التي يسعى مؤسّسوها منذ سنين وبكلّ الوسائل المُمكنة لخلق بَلبلة داخل بلدان شمال أفريقيا وإشعال نيران الفِتن بين الشّعوب المُسلمة التي تسكنها، وذلك لأغراضٍ سياسيّةٍ شرّيرة يطول الحديث عنها...

تحت منضدة التلفاز بغرفة إدريس كان هناك شقّ ضيّق في الأرضية المُبلّطة ببِلاطات مُربّعة باللّونيْن الأسود والأبيض، كان الشّقُ يتّسع لمرور قطعة نقود، فما إن وصلت القطعة النّقدية إلى هناك حتى سقطت داخل الشّق واستقرّت على أرضية غرفةٍ سرّية موجودةٌ في الأسفل، كانت في أربعينات وخمسينات القرن الماضي تُستخدم كقبوٍ لتخزين دِلاء الزّيوت وأكياس الطّحين وغيرها من

المواد الغذائية، وذلك عندما كان المكان محلاً يملكه تاجرٌ يهوديّ مُعمِّر يُدعى لَحْبيب، فاتّخذ من القبو كمخزنٍ كان يُخزّن فيه البضاعة النّادرة بِنِيّة الإحتكار، لكونه تاجر الجُملة الوحيد الذي كان يُموّل التُّجار الصّغار كتُجّار التّجزئة والباعة المتنقّلين في المنطقة. وذاك كان قبل أن يتحوّل المحلُّ إلى نزْلٍ بعد سنة 1962 لمّا تمّ ترحيل اليهود من البلاد. فأُغلِق المخزنُ من قِبل صالح مالِك المكان الجديد، وجعل منه غرفةً إضافية توضع فيها أغراض وأدوات لم تعُد صالحةً للاستعمال، أو أيّ أثاثٍ قديمٍ لا يحتاجه.

إلى أن حلّ مكانه إبنه عزّوز ليُديرَ النّزْل لمّا كبُر صالح ولم يعُد قادرًا على إدارة النّزْل بنفسه، فغيّر إبنه إسم النّزْل من "نُزْل الأحِبّة" إلى «بيتر بان & ويندي»، وصار القبو عبارةً عن غرفةٍ سرّية يستخدمها عزّوز لإشباع نزواته وتلبية رغباته الجنسيّة الشّاذة، فكان يأتي بفتياتٍ عذارواتٍ وفتيانٍ قُصَّر فيحبسهم هناك لأيّامٍ وأسابيع فيغتصبهم ويعذّبهم بعد أن يكون قد صوّرهم خِفيةً بعدسات كاميرا مخفيّة في زاويا محجوبة من غُرف النّزْل أثناء إقامتهم فيها، فكانوا يرضخون له ويصبحون طوْع أمره عندما يروا نُسخًا من مقاطع فيديوهات فاضحة قد تشوّه سُمعتهم

وتُسيء لعائلاتهم المعروفة في المدينة لو قام عزّوز بإرسالها لمن يهُمّهم الأمر، فقد كان يختار ضحاياه من أبناء وبنات أشراف وأثرياء مدينة تبسة بُغية ابتزازهم، أولئك الذين يختار أولادهم وبناتهم نُزُلاً رخيصة كنَزْل «بيتر پان & ويندي» حيث لا يمكن لأحدٍ أن يخطُر له أن يعثُر عليهم هناك، فهم غالبًا ما يأتون رفقة شريكٍ أو عشيق كي يقضوا معًا ليالي حمراء هناك، خاصّةً وأنّ نَزْلاً كنَزْل «بيتر پان & ويندي» يسمح لزبائنه المخلصين بالإقامة فيه دون الحاجة لإظهار بطاقة هوّية أو دفتر عائلي كما تشترط معظم النُّزُل والفنادق المُرخَّصة في المدينة، كما أنّه يسمح لهم بإحضار مشروباتٍ كحوليّة وحشيش وحبوب هلوسة أو أيًّا ما يرغبون في تعاطيه مثلما يحبّون، فصار نَزْل «بيتر پان & ويندي» بمثابة ملهى ليليّ سرّي بالنّسبة لأولئك الشّبان الذين كان معظمهم طلبةً جامعيين.

غير أنّهم لم يكونوا مُدركين أنّ أغلبهم سوف لن يخرجوا من هناك كما دخلوه، بعضهم - كأولئك الذين صارت أسماءهم ضمن قائمة المفقودين- لم يخرجوا من هناك أبدًا، لا أحد يعلم ما الذي حدث لهم في ذلك النُّزُل، أو ما الذي آلَ إليه مصيرهم!

سقطت قطعة النّقود على الأرضيّة الخشبية الرّطْبة واستقرّت هناك، في الظّلام الدّامس الذي كانت تغرق فيه تلك الغرفة إلاّ من شُعاع ضوءٍ رفيع يتخلّل ذاك الشّق، فتحت كلبةٌ كبيرة الحجم كانت نائمة هناك عيناها لمّا سمعت صوت رنين القطعة النّقدية تسقط بالقُرب منها، رفعت رأسها إلى حيث الشّق الذي سقطت منه فبانت عينها الرّمادية بقزحيّةٍ شاقولية حمراء، اتّسعت حدقتها قليلاً لمّا تحرّك كلبٌ ثانٍ كان ينام بجانبها، فتقدّم ببطءٍ إلى حيث سقطت القطعة النّقدية وراح يتشمّمها بأنفه الطويل، ثم قام واستقام على قائمتيْه الخلفيتيْن وقرّب وجهه قدرَ الإمكان من الشّق الذي في السّقف محاولاً النّظر من خلاله، جذبه من ذيله كلبٌ ثالث كان مستيقظًا ويراقب حركاته منذ أن قام، فاستدار له الكلب الثّاني ليخلِّص ذيله من فكّ شقيقه المزعج، أبى شقيقه أن يترك ذيله فثار بينهما شجارٌ تبادلا فيه اللّطمات والعضّات فسمع إدريس الجلبة التي في الأسفل فأخذ عصاه التي كانت ملقاةً بجانبه وطرق بها عدّة طرقاتٍ على أرضيّة غرفته وهو يلعن تلك المخلوقات المتوحّشة القابعة في الأسفل، ناعتًا إيّاها بـ"الكلاب الهجينة اللّعينة...!"

فسكت الكلبان على الفور وسكنت حركتهما وعادا إلى مكانيْهما دون أن يصدُر منهما أيّ صوت آخر، أمّا الكلبة الأخرى والتي كانت تتابع تصرّفات شقيقيْها في سكون فقد تثاءبت وألقت برأسها على قائمتيْها الأماميتان وعادت لتنام. في حين التقط الكلب الثّاني عظمة ساق طفلٍ عليها بقايا لحم وراح يُنهي أكلها وهو يزمجر بينه وبين نفسه كإشارةٍ تحذيريّةٍ منه للإثنيْنِ الآخرين كي لا يقتربا من طعامه، غير أنّهما لم يكونا مكترثيْن لحركاته تلك، إذ أنّ كليهما كانا قد أكلا حصّتيْهما من اللّحم والعِظام حتى التّخمة.

شُرحبيل

حقّق الكاتب التّركي ذو الأصول السّورية يوليان البعقوبي سنة 2021 نجاحًا كبيرا لمّا أصدر روايته الرّومانسية الجديدة التي عادت عليه بالرّبح الكثير والشُّهرة الواسعة في أوروبا وفي عدّة بُلدانٍ عربية، نجاحٌ لم يحلُم بالوصول إليه عندما كان يكتب عن الخيال العِلميّ، وهو نوع الأدب الذي عُرف به منذ أن دأبَ على الكتابة فيه لأكثر من عقدٍ من الزّمن. وقد كانت روايته الجديدة مفاجأةً لقُرّاءه الذين لم يتوقّعوا منه أن يكتب في هذا المجال يومًا.

لاقت رواية ((سُخرية القدر)) رواجًا كبيرا بين القُرّاء خاصّةً بين فِئة الشّباب والمُراهقين الذين أُفتتنوا بأحداثها المشوّقة التي كان بطلاها "شِهاب" و "منال" اللّذان عاشا قصّةً غراميّة دراميّة كانت نهايتُها سعيدة كالنّهايات التي يحلُم العُشّاق دومًا أن يعيشوها في عالَم الواقع.

فتمنّى كلٌّ من قرأها أن يكون مكانهما، وتلك كانت نقطةً تُحتسب للرّوائي المُبدع يوليان الذي استطاع أن يصل إلى قلوب قُرّاءه من خلال قلمه الذي لم يُخيّب كلٌّ من قرأ أعماله السّابقة. وهذا ما بيّنته آراء العديد منهم في آلاف التّعليقات التي تركوها في

مئاتٍ من المنشورات المُتعلّقة بروايته في مختلف مواقع ومِنصّات التّواصل على رأسها .Goodreads

في مكانٍ آخر من العالم وتحديدًا في مدينة تولوز الفرنسية، كان شُرحبيل يتميّز غيْظًا وهو يقرأ المنشورات والتّعليقات التي كانت تمدح وتُروائيّالكاتب يوليان البعقوبي على النّجاح الذي حقّقته روايته. فشُرحبيل زْريبي هو الآخر روائي وقاصّ فرنسيّ من أصولٍ تونسيّة، وله عِدّة أعمال أدبيّة بين القصّة والرّواية. غير أنّه لم يُحقّق بما يكتُب أيّ نجاحٍ يُذكر، بالكاد كان معروفًا في السّاحة الأدبيّة، خاصّة وأنه كان يكتب باللُّغة الفرنسيّة، فكانت تنحصر كتبه بين قُرّاء تونسيين وجزائريين وقِلّة من القُراء المغاربة. أمّا في فرنسا فلم يلقَ إلاّ السُّخرية والاستهزاء بسبب المواضيع الاجتماعية الرّكيكة التي كان يتطرّق إليها في رواياته، فقد اعتبروه موضةً قديمة لكوْن أسلوبه يشبه إلى حدٍّ ما أسلوب كتّاب أمثال عبد الحميد بن هدوقة ومولود فرعون وياسمينة خضرا، وهو الذي كان يشبِّه نفسه بالكاتب الوجودي ألبير كامو، حتى أنّه لقّبَ نفسه بألبير كامو المُعاصِر، ممّا جعله أكثر عُرضةً للسُّخرية من قِبل كثيرٍ من القُرّاء والنّقاد.

سبّب له ذلك عُقدة نفسيّة فدفعت به في سنة 2017 إلى التخلّي عن الكتابة واعتزل النّاس لقُرابة ثلاث سنوات ونصف قضاها بين عمله ككاتب مقالات في جريدة Libérationالفرنسيّة، وبين الصّيد هوايتُه المفضّلة. فقد كان متأثّرًا جدًّا بشخصيّة الملك لويس السّادس عشر الذي كان معروفًا بولعِه بالصّيد.

في تلك الفترة لما كان شُرحبيل يتردّدُ كثيرًا على القُرى والأرياف التولوزيّة القريبة من مكان إقامته، هناك تعرّفَ على عجوزيْن التقى بهما في إحدى المُتنزّهات، فأصبحا مع مرور الوقت صديقاه المُقرّبان، فبدأ شُرحبيل يحكي للعجوزيْن آرماندين وزوجها تريستان عن نفسه وكيف هاجر من بلده واستوطن في فرنسا. كما أنّه أخبرهما بقصّته مع الكتابة والأزمة النّفسيّة التي مرّت به بسبب ذلك، فالعجوزان صارا مُتنفَّسه الوحيد ولهما فقط كان يفتح مكنونات صدره.

كما أنّهما هما أيضًا حكيا له عن نفسيهما وكيف كانا يعيشان حياتهما الهادئة في منزلهما الرّيفي بقرية لوبياك الجميلة، ولمّا توطّدت علاقة الصّداقة بين الثّلاثة حكتْ له آرماندين في أحد الأيام عن قصّة تعارف أبويْها إبّان الحرب العالمية الثّانية وكيف

خاض كلّ منهما مغامرة قبل أن يحُلّ السّلام في البلاد فتزوّجا واستقرّا تحت سقفٍ واحد.

أخبرته بأنّ والدها نيكس كان ألمانيًّا ووالدتها ماري كانت فرنسيّة، فبعد أن احتلّ الجيش النّازي فرنسا وقعت ماري أسيرةً لدى الجنود الألمان، وتعرّضت للاغتصاب على أيديهم مع كثيراتٍ أمثالها من النّساء الفرنسيات طيلة فترة أسْرِها رهنّ وقتها، ثمّ أرغموها بعد ذلك على مُمارسة البَغاء لتُمسي مومسًا تُمتّع الجنود الألمان، قبل أن تُعيَّن جاسوسةً تعمل لصالح حكومة فيشي النّازية التي ظلّت فرنسا تحت ظِلّ حُكمها طيلة أربع سنوات.

وبعد أن سقطت العاصمة برلين على يد السّوفييت واستقلت عنها فرنسا بمساعدة الحُلفاء، تمّ القبض على ماري من قِبل الفرنسيين مع من تمّ القبض عليهنّ من آلاف النّساء اللّواتي تعاونّ مع النّازيين، فأجبروهنّ على السّيرِ حافيات الأقدام في شوارع باريس لإذلالهنّ أمام النّاس، وذلك بعد أن حلقوا شعورهن وجرّدوهنّ من ملابسهنّ، إلاّ من الملابس الدّاخلية.

كما رسموا علامة الصّليب المعقوف على جِباههنّ وصدورهنّ بواسطة أحمر الشّفاه، وذلك للتّشهير بهنّ وبكُلّ الخائنات اللاّتي خَدمنُ الحكومة الفيشيّة آنذاك...

غير أن حياتها تغيّرت بالكامل بعد أن تعرّفت على نيكس الجُندي الألماني السّابق في القوّات الألمانيّة، والذي كان قد تخلّف عن رفاقه وبقي مُتخفّيًا في شوارع باريس على أنّه لاجئٌ يهوديّ فارْ من النّظام النّازي، وذلك لمّا علِم أنّ مصير بلاده صار محتومًا.

وعندما هدأت الأوضاع في البلاد وبدأت تستقرّ الحياة شيئًا فشيئًا سنة 1946، اشتغل نيكس في محلٍّ لبيع الورود عند أحد التّجار اليهود، وهناك التقى بماري لمّا جاءت في أحد الأيام لكي تشتري باقة ورد لتُهديها لصديقتها المُقرّبة المُقبِلة على الزّواج وقتها. فوقع الاثنان في حُبّ بعضهما البعض عندما تقابلا هناك، وتزوّجا بعد ذلك وانتقلا من العاصمة باريس إلى قرية لوبياك بمدينة تولوز مسقط رأس دراتانيان، بطل أسطورة الفُرسان الثّلاثة التي كتبها الرّوائي الكبير ألكسندر دوما الأب، حيث استقرّا فيها وأنجبا ثلاثة أولاد. وقد كانت ماري من أشدّ المُغرمين بتلك الأسطورة

لدرجة أنّها أطلقت أسماء پوتي وأوتييل وآرماندين على أبنائها، تيمُّنًا بأسماء أبطالها الثّلاثة پوتوس وآتوس وآراميس.

وقد عرف منها شُرحبيل أن قصّة والديْها تلك ألهمت المُغنّي الفرنسي المعروف Johnny Hallidayلتأليف أغنيته الشّهيرة "Marie" سنة 2002.

ومن هنا طرأت عليه فكرة تأليف رواية استلهم أحداثها من قصّة نيكس وماري والِدا آرماندين، فقد رأى أنّه إذا ما ألّفَ قصّةً مبنيّةً على أحداثٍ واقعيّة لسوف تنجحُ أكثر من القصّة المُستوحاة من خياله كما كان يكتب عادةً. فباشرَ بكتابة قصّته تلك، وقد قضى معظم وقته في منزل صديقيْه آرماندين وتريستان اللّذان لم يُمانعا بقاءه عندهما متى شاء، وذلك لمّا اكتشفا أنّه كان يُخفي بداخله شخصًا مرِحًا لطيفًا وطيّب القلب. وقد ساعده ذلك على معرفة تفاصيل أكثر من القصّة كلّما جلس الثّلاثة في حديقة البيت ليحتسوا نبيذ سانت مونت محلّي الصُّنع الذي كانت تقدّمه لهم الخادمة راما ذات الأصول اللاّتينية، والتي بدأ شُرحبيل يُعجب بها كُلّما طالت فترةُ بقائه هناك. وقد لاحظ العجوزان الودودان انجذاب الخادمة إلى شُرحبيل بدورها، فذكّرهما ذلك بأيّام

شبابهما وهما ينظران إلى الشّابين كلّما تبادلا نظرات الإعجاب متى سنحت لهما الفرصة للجلوس والتحدّث، أو خرجا ليتجوّلا معًا في جادة 91 ديودا دو سيڤيراك وما جاورها في حي آرين العريق.

بعد سنة من ذلك كان شُرحبيل قد انتهى من كتابة مُسودّة روايته الجديدة التي اختار لها عنوان ((نِداء القدر)). ولم يبقَ أمامه إلاّ أن يبحث عن دار نشر مناسبة ليعرِض عليها روايته لتنشرها له.

لكن في أحد أيام شهر كانون الثاني/ يناير من سنة 2022 عندما خرج من مقهى كافي دو فلور في شارع سان جيرمان دي پري بالعاصمة پاريس، وبينما كان يهُمّ بقطع الطّريق مرّت من أمامه درّاجةٌ ناريّة من طراز Suzuki Burgman يركبُها شابّان فاختطف أحدهما المِحفظة التي كان يُعلّقها على كتفه، فتركاه مُتسمّرًا في مكانه كالصّنم ينظر إليهما في ذهولٍ وهما يبتعدان بمحفظته. وقد كان ذيْنك الشّابيْن لصّان مُحترفان في انتشال الهواتف المحمولة وحقائب السّيدات، ومن سوء حظ شُرحبيل يومها أنه كان يضع مُسودّة روايته في تلك المِحفظة.

وبأقصى سُرعة قاد اللّص الذي كان يقود الدرّاجة النّارية باتّجاه مدخلٍ على اليمين يؤدّي إلى مُربّعٍ سكني مباشرةً إلى المَخرج الذي يقود إلى شارع سان بينوا ومنه إلى شارع جاكوب، ليجوبا بعد ذلك عدّة شوارع في محيط الدّائرة السّابعة من باريس 7th ARR، وإيقاع أغنية سولكينغ Vroom Vroom يصدحُ في سمّاعات السّائق الذي كان مُنتشيًا بما حقّقاه في ذاك الصّباح، ولم يتوقّفا إلاّ عندما وصلا إلى زُقاقٍ ضيّق يكاد يخلو من المارّة في شارع ڤيرنوي. وهناك قاما على عَجَل بتفتيش ثلاث حقائب يد كانا قد انتشلاها في ذلك الصّباح وأخذا منها كلّ ما هو ثمين ورميا بالحقائب وما بقي فيها ممّا لا يحتاجان إليه، ثمّ فتحا مِحفظة شُرحبيل وأخذا منها حاسوبه المحمول وألقيا بها على الرّصيف كذلك بعد أن أبقيا فقط على دفتر وأقلام وبطاقة هويّته وعدسات طبّية تكسّر زجاجها إثر ارتطام اللّصان بأحد الأشخاص وهما يعبُران مُسرعيْن في أحد أزقّة المدينة المُكتظّة. بعد ذلك وضع أحدهما كلّ الأغراض المسروقة في حقيبة ظهرٍ جلديّة وتوجّه إلى دراجته النّارية الـ Kupman المركونة بجانب صفٍّ من درّاجات السكوتر في شارع لانيقرسيتي هناك، أمّا شريكه فقط

سلك الطّريق المُعاكس الذي سلكه هو حتى يُضلّلا الشّرطة في حال ما تقفّت أثرهما.

بعد حوالي نصف ساعة من ذلك مرّ من ذاك المكان رائف الذي كان عائدًا من التسوّق إلى الفندق الذي كان يقيم فيه منذ يومين، وهو شابٌّ سوريّ جاء إلى باريس سائحًا لمّا دعاه عشيقه الفرنسيّ لقضاء عُطلة نهاية الأسبوع معًا.

لم يكن رائف ليُعير تلك المحفظة المُلقاة على الأرض أيّ اهتمام لولا أنّه رأى جزءً من النظّارات المكسورة يظهر منها، فأثار ذلك فضوله وانحنى ليلتقطها فوجد بداخلها كذلك دفتر وأقلام، أخذ ذاك الدّفتر ليرى ما كان مكتوبًا فيه وهو يلعقُ بوظة الفراولة التي اشتراها قبل قليل من عربةٍ مُتنقّلة تبيع الآيس كريم. سقط من يده كورنيه البوظة على الأرض سهوًا لمّا اكتشف أنّ الدّفتر في الحقيقة هو مُسودّة رواية مكتوبة باللّغة الفرنسيّة!

لاحقًا عندما عاد إلى فندق كِي فولتير في شارع كِي فولتير المُقابل لنهر السّين حيث يقيم، جلس رائف على طرف السّرير وراح يُقلّب صفحات المُسودّة، فاندهش لمّا وجدها روايةً كاملةً من الألف إلى الياء، مُدقَّقةً لغويًّا ومُراجَعة إملائيًّا ولا تحتاج إلاّ أن تُنشر. كان

عشيقه فابيان ذو الـ25 عامًا قد استيقظ من النّوم لتوّه، فقام ليصُبّ لنفسه كوبًا من عصير البُرتقال وهو يلفّ نصف جسده بالمَلاءة، سأل رائف إذا ما كان يريد كأسًا فأجابه برأسه أنَّ نعم وهو يبتسم له، فأتاه فابيان بالكوب وناوله إيّاه من الخلف ثم جلس وراءه على السّرير وراح يطبع عُنقه بقبلاتٍ لطيفة، أغمض رائف عينيْه ورفع رأسه تلقائيًّا لمّا أحَبَّ ذلك، التفت إلى فابيان وقبّله من شفتيْه عدّة قُبلات ثم ارتشف رشفتيْن من العصير ووضع الكوب والمُسودّة على الكومودينو، ارتمى في حُضن عشيقه الذي احتضنه بذراعيْه وراح يلثَمُ فمه بقُبلاتٍ فرنسيّة حارّة أشعلت نار شهوة رائف، فنزع ملابسه وراح يُقبّل جسد فابيان الأبيض ذو العود الفرنسيّ ببشرتِه البيضاء النّقية الخالية من العيوب فيبدو مثل دُميةٍ خَزفيّة صُنعت في العصر الفيكتوري، فلوْ وقفت فتاةٌ متوسّطة الجَمال بجانبه فلن تشعُر بأنوثتها أمامه لفرط نعومته. استمرّ رائف في لعْق حلَمات فابيان فلم يتحمّل هذا الأخير الإثارة أكثر فانحنى على رُكبتيْه وراح يمُصّ له أيرهُ قبل أن يستلقي على ظهره ويرفع ساقيْه وترَكه يلِج دُبره الأحمر الحليق بأيره الطّويل.

ثم بعد ذلك تبادلا الأدوار وأقحمَ فابيان أيره في دُبر رائف الذي كانت تحيطه دائرةٌ من الزّغب الخفيف، وذلك بعد أن لعقَ له فُتحة شرَجه بلِسانه ليُبلِّلها...

بعد أن أشبعَ كلٌّ منهما رغبته في الثّاني استلقيا على السّرير وتعانقا وهما أشبهُ بزوجيْن مُتحابّيْن يتبادلان الحديث، ويُخطّطان للارتباط بشكلٍ رسميّ ثمّ يستقرّا في مكانٍ ما بپاريس أو ليون.

بعد ساعاتٍ من ذلك تواصل رائف عبر منصّة واتساپ بأخيه يوليان القاطن في تركيا ليُخبره بما وقع في يده في ذاك الصّباح، وما إن سمِع أخاه بأمر مُسودّة الرّواية حتى تَملّكه الفضول ولم يعُد يُطيق صبرًا حتى يعود بها رائف إلى تركيا. وقد كان أخاه هذا كاتبًا معروفًا له العديد من المؤلّفات التي نُشرت في تركيا وأنحاءٍ عدّة من أوروپا، فهو الرّوائي يوليان البعقوبي الغنيُّ عن التعريف. بعد أن قضى رائف أجمل نهاية أسبوع في عاصمة الحُب رفقة حبيبه فابيان عاد إلى مدينة يلوا حيث يسكن مع أخيه يوليان، والتي تبعُد عن العاصمة إسطنبول بنحو 175 كلم.

ولمّا وصل فتحت له خليلة زوجُ أخيه الباب فركض إليه يوليان ورحّب به ثمّ أخذ من عنده المُسودّة قبل حتى أن يمنحه دقيقةً

للاستراحة من سفره، وتحت نظرات زوجته وأخيه المستغربيْن راح يوليان يتصفّح محتوى المُسودّة بحماسٍ والدّهشةُ التي علَت ملامحه جعلت عيناه المفتوحتان على اتّساعهما تلمعان من وراء العدسات كما تلمعُ عينا طفلٍ حصلَ على جهاز پلايستيشن 4، فقد غمره نفس الشّعور الذي غمرَ لصّ الآثار الإنكليزي هاورد كارتر وهو يفتح تابوت توت عنخ آمون لأوّل مرّة، فقد اكتشف في تلك اللّحظة أنّه عثر على كنزٍ أدبيّ ثمين، ولشدّة فرحته قام من مكانه وقفز على رائف وعانقه بحرارةٍ حتى سقطا معًا على الأرضيّة، وزوجته وولداه ينظرون إليهما في غرابة وهم يضحكون.

وفي الصّباح التّالي توجّه مباشرةً إلى دار النّشر أوفاكتوزيوم ليبريز المتواجدة في مدينته، فعرض المُسودّة على رئيستها كاليجي حوزكان التي سبق له وتعامل معها من قبل.

بعد أربعة أشهُرٍ من ذلك وبينما كان شُرحبيل جالسًا في منزل صديقته السّمراء راما المتواضع الواقع في حي لارين بشارع 15 دي زارك سان-سيپريان حيث نشأت، فبينما هي تقوم بإطعام أسماكها الصّغيرة التي تُربّيهم داخل حوض الآكواريوم كان هو يتصفّح موقع فيسبوك من حسابه الجديد الذي أنشأه حديثًا، رأى منشورًا في

مجموعة "نادي القُرّاء المُحترفين" لفتَ انتباهه، اعتدل في جلسته عندما قرأَ على غلاف رواية عنوان ((سُخرية القدر)) للكاتب يوليان البعقوبي، والذي كان قد سمع عنه من قبل. كان صاحب المنشور أحد الشّبان المصريين النّشطين بكثرة في المجموعة، والذي كان قد قرأ تلك الرّواية التي راح يُشيد بها وبإبداع كاتبها الذي قلّما يكتب مثله الكتّاب العرب، خاصّة المُعاصرين منهم؛

استوقف شُرحبيل إسما بطلا تلك الرّواية واللّذيْن لم يكونا غريبيْن عليه، بل كان يعرفهما جيّدًا. فهما "شِهاب" و"منال" اللّذان كثيرًا ما مَشى خلفهما بين أسطُر روايته وهما يتجوّلان في شوارع مدينة البليدة الجزائرية، وجلس على مقرُبةٍ منهما في حرَم جامعة سعد دحلب التي درسا فيها، وركض خلفهما في سُهول بلدة أولاد سلامة مسقط رأس منال، ومن فوق غُصن شجرةٍ شاهد كيف يضع أحدهما لُقمةً في فم الثّاني أثناء تنزّهُهما بإحدى مَحميّات مَشجر المَرجة لمّا خرجا ليتناولا طعام الغداء هناك.

كما سبَحَ في شاطىء بروك بولاية بومرداس الذي سبَحَ فيه شِهاب مُتباهيًا بمهارته في السّباحة والغوْص أمام منال وهي مُستلقية على رماله بينما تلتقطُ صورًا لشِهاب تارةً وتارةً تلتقط

صورةً لقُرصِ الشّمس المُنعكسة أشعّتهُ على زُرقة البحر. ثمّ تعود لتستظلّ بالمظلّة وتقرأ رواية أبابيل للكاتب أحمد آل حمدان، أحد كتّاب الفانتازيا العرب المفضّلين عندها، ولأجل ذلك أهداها حبيبُها شِهاب مرّةً روايتيْ أرض زيكولا وأماريتا لعمرو عبد الحميد تعبيرًا منه عن حُبِّهِ لِما تُحبُّه حبيبتهُ.

توقّفت راما التي كانت تقوم عمّا كانت تفعله وراحت تنظرُ باستغرابٍ إلى حبيبها الذي وقف على قدميْه فوق الأريكة المُهترئة، فوَلج إلى موقع جوجل وكتب في خانة البحث ((نداء القدر))، لتظهر له رواية مؤلّفها يوليان البعقوبي منشورةٌ في عدّة مِنصّات إلكترونيّة، ولمّا تأكّد من أنّها روايته فعلاً دخل إلى موقع ويكيبيديا ليعرف أكثر عن هذا الكاتب الذي يعتقد أنّه مَن سرق روايته التي ظلّ لسنةٍ كاملة يعمل عليها ليل نهار.

نامت راما باكرًا في تلك اللّيلة وهي مُستاءة من شُرحبيل الذي رفض مضاجعتها، فقد قضّ مضجعه ذاك الكاتب ليلتها وجافاهُ النّعاس وبقي مستيقظًا إلى ساعةٍ متأخّرة من اللّيل. لقد قضى اللّيل بطوله وهو يبحث ويُقلّب ويُنقّب عن ذاك الرّجل في الإنترنت، فقرأ عن سيرته الذّاتية ومسيرته المِهنية وماضيه الأدبيّ وحاضره،

كما تقصّى أيضًا عن أحواله الشّخصية. فوجد أنّه كاتبٌ معروفٌ في السّاحة الأدبيّة العربية، ويهتمّ بكتابة أدب الخيال العلميّ منذ نحو عقدٍ من الزّمن، وقد عرف من إحدى المقالات التي كتبها عنه ناقدٌ أدبيّ أردنيّ بأنّ الكاتب يوليان يحاول دائما تقليد أسلوب الرّوائيْن هربرت جورج ويلز وفيليب. ك. ديك.

ولكن صيته ذاع بشكلٍ أكبر بعد أن أصدر روايته الجديدة والتي كانت مختلفةً تمامًا عمّا كتبه من قبل.

كانت السّاعة في شاشة جوّاله الذي وصلت طاقة بطّاريته إلى 12٪ تُشير إلى 4:14 فجرًا عندما قرّر وضع رأسه على المِخدّة لينام، ولكن حتى بعد أن تمكّن من إغماض عينيه ونام أخيرًا كان هاجِس روايته المسروقة يلاحقُه في الأحلام المُزعجة التي رآها في منامِه.

في صباح اليوم التّالي وبعد أن احتسى فِنجان قهوة مُرّة على عَجل خرَج واتّجه مباشرةً إلى حيّ كارم المُحاذي لنهر غارون ودخل إلى مكتبةٍ تبيع كُتبًا باللُّغة العربيّة في شارع سان جان، وكانت المفاجأة عندما سأل عن رواية ((سُخرية القدر)). فقد جاءه البائع بأربع نُسخٍ منها ووضعها أمامه على النّضد، ليُصعَق شُرحبيل لمّا وجدها قد تُرجِمت إلى ثلاث لُغاتٍ عالميّة، الألمانيّة والإيطاليّة

والعربيّة! وقد أخبره صاحب المكتبة بأنّ كاتبها يعملُ على إعادة كتابة نُسخةٍ جديدةٍ منها باللّغة التُّركيّة، لم يُصدّق شُرحبيل ما كان يراه ويسمعه لتوّه وهو يتخيّلُ النّجاح الذي كان سيُحقّقه وأفلتَ منه كما تُفلِت الطّريدة من الفهد بعد أن يسرقها منه الغُرِيْر! فكزّ على أسنانه وكأنّه يسحقُ شيئًا صَلبًا بين فكّيْه!

أخرَج ورقةً نقديّة مُنكمشة من جيْبه ودفع ثمن النُّسخة المكتوبة بالفرنسيّة للبائع دون أن يُعلّق أو يُعقّب بكلمة.

أخذ الفكّة وغادر المكتبة ساخطًا على حظّه العاثر وساخطًا على اللّصّيْن اللّذيْن سرقا مِحفظته قبل بِضعة أشهر، ساخطًا على ذاك الكاتب الذي حرَمه من حُلمه، ساخطًا على پاريس وعلى تولوز وعلى فرنسا كلّها، ساخطًا على الأدب والكتابة والكُتّاب والقُرّاء وعلى العالَم أجمع!

اظلمّتْ كلّ الشّوارع والطّرُقات أمامه رغم نور الشّمس السّاطع في تلك الصّبيحة، أصبح العالَم من حوله مُعتَمًا برؤيةٍ ليليّة كخاصيّة التّصوير Neo-noir في فيلم Sin City، فلم يعُد يرى غير أضواءٍ تومِض من وراء زُجاج باب حانة ذو لندن تاون بشارع دي پياتر القريب، دخل إلى تلك الحانة وجلس عند

الكونتوار وطلب من السّاقي أن يقدّم له كأسًا من التّيكيلا، تجرّع أوّل كأسٍ دُفعةً واحدة، ثمّ طلب ثلاث كؤوسٍ أخرى منها فتجرّعها أيضًا دُفعةً واحدة عساها تساعده على ابتلاع الغُصّة التي كان يشعر بها في حلقه منذ أن رأى روايته المسروقة وقد تُرجمتْ إلى ثلاث لُغات...

أحسّ برغبةٍ كبيرة في ضرب أحدهم خاصّة بعد أن بدأ مفعول الشّراب يؤثّر فيه، توهّم نفسه أثناء الشُّرب بمثلِ جسارة ومهارة شخصيّة Dwight McCarthy الغامضة في القتال، عندما تذكّر ذاك المشهد في نادي Kadi's اللّيلي لمّا كان Dwight جالسًا يتناول مُكسّرات والقلق بادٍ عليه، بينما ينتظر أن تقدّم له Shellie الشّقراءُ الفاتنة كأس الويسكي التّالي. لكنّه لم يكن بقوّة Marv ليقوم بكلّ بساطة ويوجّه اللّكمات القاضية إلى وجوه وبطون خصومه. غير أنّه كان بحماقة شخصيّة Jackie Boy!

ففي غفلةٍ من السّاقي الذي كان منهمكًا بتقديم الشّراب لزبائن آخرين أقبلوا في تلك اللّحظة، أخذ شُرحبيل زجاجةَ التّكيلا التي كانت مازالت موضوعةً أمامه على الكونتوار وأخفاها تحت مِعطفه وغادر المكان دون أن ينتبه له أحد.

فهو لم يكن يملك ثمن الزجّاجة بأكملها، كما أنّ الحانة لا تبيع الشّراب إلاّ بالكأس أو بالجُرعة.

خرج من هناك مُهرولاً قبل أن يراه أو ينادي عليه أحد عُمّال الحانة، ولحُسن حظّه لم يكتشف السّاقي اختفاء الزّجاجة إلاّ بعد دقائق من مغادرة شُرحبيل.

ما إن وصل إلى حي آرين ودخل إلى المبنى الذي توجد به شقّة راما تناول جُرعةً من التّيكيلا وهو يصعدُ السّلالم المؤدّية إلى الطّابق الثّالث أين يسكُنا، وما إن دلف إلى الشّقة توجّه مباشرةً إلى المطبخ حيث كانت راما تقوم بتقطيع حبّة خِيار لأجل السّلطة، فأخذ كأسًا دون أن يوجّه إليها ولا كلمة، دخل إلى غرفة الجلوس ووضع الزّجاجة والكأس أمامه على الطّاولة الخشبيّة ثمّ تهالكَ على الأريكة ليستريح قليلاً قبل أن يُباشر بقراءة الرّواية التي وضعها بجانبه. في ذلك اليوم لم يتناول شُرحبيل غذاءه ولا عشاءه، فلم يدخل معدته غير التّيكيلا التي كان يحتسيها مع فصول الرّواية التي راح يلتهِمها صفحةً تلو الأخرى، ولم يأكل ما وضعته راما أمامه من طعام إلاّ بعد أن انتهى من قراءة صفحات الرّواية الـ311 في جلسةٍ واحدة، وكان ذلك على حوالي السّاعة السّابعة مساءً. لم

يقرأها بدافعِ الفضول أو حُبًّا في المعرفة أو شغفًا بالقراءة كما يفعلُ عادةً عندما ينتهي من قراءةِ كتابٍ ما في جلسةٍ واحدة، بل كان يتحرّى ويتقصّى كما لو كان تحرّي سِرّي يبحث عن دليل جريمة، وقد وجد أكثر من دليلٍ واحد.

وجد آلاف الأدلّة وأكبرُها وأكثرُها إثباتًا على إدانة الجّاني هو أنّه لم يُضِف أو يحذف كلمةً أو حرفًا واحدًا من تلك المُسودّة التي وقعت بيده، فكلُّ ما قام به هو أنّه وضع إسمه عليها وكتب إهداءً صغيرًا يذكُر فيه زوجته وطفليْه وأخوه.

اشتد حَنق وغضب شُرحبيل على ذاك الكاتب وقرّر أن ينتقم منه ومن كلِّ أفراد عائلته شرّ انتقام.

كان لدى شُرحبيل مبلغٌ من المال يحتفظ به داخل إناءٍ من الفُخّار ادّخره لشراءِ أثاثٍ للمنزل الجديد الذي لم يكتمل بناؤه في مدينة بوردو، حيث كان يخطّط لينتقل إليه مع راما ويتزوّجا ويستقرّا فيه. وبدلَ ذلك عزَم على السّفر بذاك المبلغ إلى تُركيا، فأخبر راما بقراره وهو يقوم بتوضيب ملابسه في حقيبة ظهر، ألحّت عليه كي يترك عنه ذاك الأمر ويعدِل عن فكرة الانتقام ويتوجّه إلى السُّلطات ويقدّم شكوى بالرّجل الذي سرقَ عمَله، رُغم

توسّلاتها له كي يتصرّف إزاء ذلك بطريقةٍ حضاريّة ويستردّ حقّه منه عن طريق القانون، غير أنّه لم يصغِ إلى نُصحِها، فتأكّدَ لها أنّه أعندُ ممّا كانت تتصوّر لمّا التفتَ لها وهو يهمُّ بفتح الباب ليغادر وأخبرها باختصار بأنّه قد اختارَ العُنف.

شهقت وهي تضع يدها على صدرها عندما استحضرتها لقطةً من مسلسل Game of thronesعند مواجهة Cercei Lannister لكتائب الدّين التّابعين لـ High Sparrowالمُتشدِّد، وأخبرتهم باختصار بأنّها تختارُ العُنف «! choose violenceالمّا قاموا بتهديدها...

فعرفت راما في تلك اللّحظة أنّها كانت كمن يُحاول إيقاف قطارٍ بُخاري حادَ عن سِكّته وعلى وشك أن يتسبّبَ في إحداث كارثة!

بعد يومَيْنِ من ذلك كان شُرحبيل في مطار العاصمة أنقرة، ومِن يومها بدأ في رحلته بالبحث عن مقرّ إقامة الكاتب يوليان البعقوبي الذي صار يُردّد إسمه ليلَ نهار كما لو كان ترتيلةً، مثلما كانت Arya Starkتُردّد أسماء أعدائها كلّ يوم قبل النّوم.

سافر من هناك إلى مُحافظة يلوا التي تبعد نحو 175 كلم عن مدينة أسطنبول، فاستقل سيارة طاكسي أقلّته إلى شارع نهير 16،

وهناك عثر على منزل الكاتب الواقع في حيٍّ هادىء به مِساحاتٌ خضراء مزوَّدة بشُرُفات مُزيّنة بالأزهار ومختلف أصناف النّباتات المغروسة داخلها، تحيط بها أسوارٌ بعضها مبنيّ وبعضها الآخر مُسيّج. بعد أن دارَ حول المنزل المقصود وتمشّى بجواره كما لو كان سائحًا أو مُستثمرًا يتجوّل في المنطقة للبحث عن منزلٍ للبيع. لاحقًا قام بحجز غرفةٍ بنَزْل ماي آكي پانيسيون لأربعة أيّام، وقد اختار هذا الفُندق لأنّه يقع بعيدًا عن الحيّ الذي يقطُن به الكاتب يوليان، كما أنّ ثمن الإيجار فيه رخيصٌ مقارنةً بفنادق أخرى.

في اليوم التّالي قصد أقرب وكالة تأجير سيارات في مدينة تشينارجيك المُطلّة على البحر ليستأجر منها سيارة، وذلك حتى يسهُل عليه الاقتراب من مسكن الكاتب يوليان البعقوبي دون أن يُثير الرّيبة، وظلّ شُرحبيل للأربعة الأيّام التّالية مُرابضًا في ذلك الحي ويتنقّل بين جادّتيْ أنيلار وجمهوريات داخل السّيارة التي أجّرها وهو يراقب خصمه ويترصّد تحرّكاته، فتارةٌ كان يركُنها على جانب طريق شبهُ خالٍ من المارّة في شارع إرماك، وتارةً أخرى يركُنها في مساحةٍ تخلو من السّكنات بشارع ڤولكان، وأينما ركنها كان

يبقى بداخلها ويحرِص على إبقاء مجالٍ لرؤية مَدخل منزل يوليان إلى أن حفظ برنامجه اليوميّ هو وكلّ أفراد عائلته.

في إحدى اللّيالي وبينما كان يُشغّل أُغنية Buried (remix) لـ2 Pacفي ستيريو السّيارة، وأثناء مُراقبته للمنزل كجاسوسٍ محترف مثل Lockmanوهو جالسٌ داخل شاحنة التجسُّس في فيلم Bad Boys 2عندما تحرّكَ فريق المُحقّقين بقيادة Mike و Marcusوتسلّلوا إلى المِشرحة بعد أن حصلوا على معلوماتٍ تُفيد بأنّ تاجر المخدّرات Johnny Tapiaيهرّبُ بِضاعته داخل جُثث الموتى...

أجفلَ عندما نقرَ أحدهم بإصبعه نافذة السّيارة! التفت فوجده رجلٌ عجوزٌ لديه ملامحٌ مُخيفة كملامح جُثّة مات صاحبها منذ أيّامٍ قليلة؛ كان يشبه إلى حد ما المُمثّل التّركي Metin Çekmez بلِحيته البيضاء وجهته العريضة وعينيْه ذات النّظرات القاسية. وقد بدا عليه أنّه شخصٌ غير ودود، خاصّةً وأنّه كان يصحبُ معه كلبَ حِراسة مُستعدٌّ للانقضاض عند أوّل إشارة من سيّده!

أنزلَ شُرحبيل زُجاج النّافذة بالقَدر الذي يسمح له بالتّحدّثِ معه فقط، خاطبه العجوز بالتّركية فلمْ يفهم ما الذي كان يقوله

له، إلاّ أنّه فهِم من نَبرته أنّه كان يريد أن يعرف ما الذي كان يفعل رجلٌ غريبٌ في حيّهم، ردّ عليه بالفرنسيّة وشرَح له مُستعينًا بالإشارات أنّه ينتظر خروج صديقه وهو يعتذر منه على ركن سيارته هناك، إلاّ أنّ ذلك زاد من توجّس العجوز فراح يكرّرُ له نفس السّؤال بلهجةٍ حادّة. وعلى الفور أدار شُرحبيل مُحرّك السّيارة وغادر المكان مُسرعًا وهو ينظر إليه في المرآة الأمامية فرآه وهو يُخرج جوّاله ليتّصل بأحدهم، ومنذ تلك اللّيلة توقّف عن مراقبة المنزل وفي اليوم التّالي أعاد السّيارة إلى وكالة التّأجير.

طيلة مُدّة مُكوثه في الفُندق كان شُرحبيل يتواصلُ مع يوليان على صفحته الرّسمية في فيسبوك على أنّه مراسلٌ من جريدةٍ فرنسيّة، وقد طلب لقاءه ليُجري مقابلةً صُحفيّة معه غير أنّ هذا الأخير قابلَ طلبه بالرّفض لكثرة انشغالاته، إلاّ أنّه وافق في الأخير بعد أن ظلّ شُرحبيل يُلحّ عليه بالرّسائل النصيّة والصّوتية على ماسنجر. فقد استطاع وهو الذي مارسَ مهنة الصّحفي لسنواتٍ إقناع كاتبٍ عنيد كيوليان بإجراء المُقابلة.

في اليوم المُحدّد لموعد المُقابلة رحّبَ يوليان بشُرحبيل الذي قدّمَ له نفسه على أنُه سيباستيان مُراسل جريدة Libération، استمرّت المُقابلة القصيرة حوالي 20 دقيقة دار بينهما فيها حوارٌ شيّق طرحَ عليه شُرحبيل عدّة أسئلة تتعلّق بمؤلّفاته السّابقة عمومًا، وكان كلّما وجّه له سؤالاً حول إصداره الجديد لاحظَ توتّرًا على يوليان الذي كثيرًا ما كان يتلعثمُ عندما يُجيبه، فهو أكثرُ من يعلَم بأنّه كان لصًّا انتهازيًّا وفوق ذلك كذّاب.

حصلَ شُرحبيل على نُسخةٍ فرنسيّة مُوقّعة من رواية ((سُخرية القدر))، كما أهداه يوليان القلمَ الذي وقّع له بهِ على أنّه القلمُ الذي كتبَ به الفصليْن الأخيريْن من الرّواية. كان يوليان يقصد النُّسخة التُّركية التي كان قد انتهى من كتابتها قبل أيام، فظنّ شُرحبيل أنه يسخرُ منه فزاد ذلك من سَخطه عليه. قام من على الأريكة ومدَّ يده ليُصافح الكاتب موَدّعًا، وما إن وضع يده في يد يوليان شدّهُ بِقوّة وجذَبه إليه وراح يطعنُه في عُنقه بواسطة القلم الذي أهداهُ إيّاه، ولم يتوقّف عن طعنه به حتّى سقط يوليان على الطّاولة الزّجاجية والدّم يتفجّر عيونًا من الثُّقوب التي أحدثَتها طعناتُه الأربعةَ عشرَ كإنفجار عيون الماء الإثنتيْ عشرَ عندما

ضربَ نبيّ الله موسى الحَجر بِعصاه؛ وقد تعمّدَ شُرحبيل طعنهُ أربعةَ عشرَ مرّةً لتُساوي فصول الرّواية الأربعةَ عشرَ.

التفتَ خلفهُ في تلك اللّحظة عندما سمِع صوت صينيّةٍ تقعُ على الأرض ليجد أنّها خليلة زوجة يوليان قد أوقعت صينيةً كان عليها كوبا عصيرٍ وطبق حلوى. وقبل أن تصرخَ أو تقوم بأيّةِ ردّة فِعل ركضَ إليها وانقضّ عليها وأمسكَ بذِراعها ولَواه، ثمّ كَمّم فمها بكفّ يده وأجلسها على الأريكة قريبةً من جُثّة زوجها السّابحة في دِمائها التي سالت على الأرضيّة والسَّجاد، فنظرت إلى زوجها المقتول وأخذت تنتحِبُ في فزعْ.

التقط شُرحبيل وِسادةً من على الأريكة ووضعها على وجه الزّوجة المُرتعِبة وضغط بكُلِّ قوّتهِ على جسدها النّحيل برُكبته وهي تحاول التملُّص منه ورِجلاها تتخبّطان، فلَم يُرخِ يديهِ حتّى تأكّدَ أنّها لفظتْ آخر أنفاسها. نهضَ فورًا عندما رأى سيْلاً من البوْل يجري من تحت بِنطالها الجينز الأبيض الذي تلطّخَ ببُقعةٍ صفراء على مستوى الفِخذيْن وابتعد عن جُثّتها مُتقزّزًا.

لم يكن شُرحبيل قد انتبه بعدُ إلى الشّخص الذي كان يشاهدُ كلّ ذلك من وراء باب الحمّام المُوارَب!

لِلحظةٍ لم يصدّق ما ارتكبه لتوّه، فهو لم يسبق له في حياته أن قتل خُنفساء أو صُرصار حتّى، وها هو الآن يقف أمام جثّتيْنِ لزوجيْن قام بقتلهما بيديْه وبدمٍ بارد. بدأ على الفوْر يُفكّر في كيفية إخفاء الجُثّتيْن ومسْح آثار الدّماء قبل عودة طِفلا يوليان من المدرسة، لكي يُلحقْهما بأبويْهما أيضًا. فهو لم يكتفِ بعد... لم يقطع كلّ هذه المسافة من أجل قتل الكاتب يوليان وأفراد عائلته فقط، فهو لن يُشفى غليله إلاّ عندما يرى كلٌّ من استمتعوا بقراءة روايته المسروقة يموتون أمامه فردًا فردًا... أو جماعةً، فالأمرُ سِيّان عنده!

جالَ في أرجاء المنزل بطابقيْه وتفقّده غُرفةً غُرفة ولم يجد أفضل من دولاب ملابس في غرفة الزّوجيْن ليُخفي الجُثّتيْن بداخلها، وذاك ما قام به فعلاً. فنقلهُما على التّوالي وصعِد بهما السّلالِم بدءً بجثّةِ الزّوج ثمّ سحبَ جثّةَ الزّوجة بواسطة بِساطٍ لفّها فيه لأنّها كانت متّسخةً بالبوْل. لم يتّسع الدّولاب لكِلا الجثّتيْن لكثرة ما فيها من رفوفٍ وأدرُج، فاضطُرّ إلى تعليق كلٍّ منهما في عَلاّقة ملابس بعد أن ألبسهما إثنتان من سُتْراتْ بِدَل يوليان المُعلّقة في الدّولاب ثم أغلقها. قام بعد ذلك بجمع بقايا زجاج

الطّاولة الذي تحطّمَ وتناثرَ هنا وهناك ورماه في حاوية المُهمَلات، ثمّ أخرَج السّجاد المُبقّع بالدّماء وأخذه إلى القبو الذي اكتشف مكانه لاحقًا، وقرّر أن يُخفي الجُثّتيْن هناك عندما ينتهي من تنظيف بِلاط الأرضيّة من الدّماء.

لكن عندما ذهب إلى الحمّام لكي يبحث عن أيّ مواد تنظيف ودفع الباب الموارَب فوجِئ بوجود طفلٍ صغير لا يتجاوز عمره عشر سنوات مختبئًا هناك، وقد كان ذاك ريان ابن يوليان الأصغر الذي كان شُرحبيل يحسِب أنّه مازال في المدرسة. فقد سبق له ورآه عندما كان يراقب المنزل ويتتبّعُ أفراد العائلة إلى حيث يذهبون، لكنّه لم يكن يعلمُ أنّ ريان كان مُصابًا بالرّشحِ في ذاك اليوم فأعفته مُعلّمتهُ من البقاء في الصّف لذا عادَ إلى البيتِ مُبكّرًا.

كان ريان يبكي ويشهقُ بحُرقة وبصوتٍ خافت يكاد يكون غير مسموع، وذلك جرّاء الصّدمة التي تعرّضَ لها لمّا رأى أبوه وأمّه يُقتلان أمامه قبل لحظات، وقف شُرحبيل ينظر في عينيْ الطّفل المرعوب لثوانٍ وهو يفكّر في أسرع طريقةٍ لقتله دون أن يتعذّب، ثمّ اقترب منه ورفعه من ساقيْه عاليًا وريان يترجّاه أن لا يؤذيه، وبكلّ قوّةٍ خبَطه داخل المَغطِس الفارغ مرّتيْن حتى سمع صوتَ

عظام رسغيْه تتحطّم إثر ارتطامه بقعر المَغطِس، صرخ ريان بصوتٍ عالٍ من شدّة الألم واختلطت دموعه مع الدّم الذي نزفَ من فمه وأنفه، وذلك لمّا ارتطم وجهُهُ أيضًا بجانبٍ المَغطِس. في تلك اللّحظة سمِع صوت نُباح كلبٍ قريب فخاف أن يسمع صُراخه الجيران أو أيّ شخصٍ قد يمُرّ بالمنزل، لذا عمَد على التّعجيل بقتله!

أفلتَ شُرحبيل الطّفل لينزلق داخل الحوض الجاف إلاّ من دمِه الذي كان ينزف بغزارة من أنفه، وقف هناك لدقيقةٍ ينظر إليه وهو شِبه مغمًى عليه، وإلى مُعصميْهِ المكسوريْن اللّذين لم يعُد يستطيع تحريكهما وقد برز عظْم الزّنَد من إحداهما، فتح صنبور الماء البارد وراح يشاهده وهو يمتلىء إلى أن بدأ منسوبُ المياه يغمُر جسد الطّفل الذي كان يرتعِد من الخوف والبرد وهو يتألّمُ مُترجّيًا إيّاه كي لا يقتله، لكن شُرحبيل تلَبَّسهُ شيطانُه وتحَجّر قلبُه ولم يعُد يرى أو يسمعُ غير عِبارتيْ: " أُقتُل قتَلة أحلامك... " ،"انتقم من سارقي نجاحك... "!

مِثلما تلبّسَ الشّيطانُ القاتل المُتسلسِل الأمريكي المعروف بـ Son of Samالذي ادّعى أنّه كان يتلقّى أوامر القتل من الشّيطان الذي تهيّأ له في صورة كلبِه الأسود!

ضغط شُرحبيل بيده على رأس ريان حتى لا يسمح له برفعه ليتنفّس، وبينما كان الطّفلُ يختنقُ بالماء مسَحَ على رأسِه وشعره الأملس بيده الأخرى بحُنوّ مُعبّرًا له عن أسفِه عمّا فَعله به وبعائلته؛

وما هي إلاّ ثواني حتى لفظَ ريان آخر أنفاسه مع آخر فُقّاعةٍ خرجت من فمه وطفتْ إلى سطح الماء...

لاحظ شُرحبيل وجود غرفةٍ صغيرة داخل الحمّام كانت عِبارة عن غرفة ساوْنا مُصغّرة تُستخدَم للتّدليك والاسترخاء يفصِل بينها وبين الحمّام بابٌ خشبيّ مصنوعٌ من خشب الجوْز الرّفيع، فتعجّب وهو يحاور نفسه إذا ما كانت الكِتابة حقًّا تعود بالثّراءِ على صاحِبها!

ثم تذكّر أنّ يوليان كان يشتغلُ وكيل عقّاري، كما أنّ زوجته كانت طبيبةٌ ناجحة في إسطنبول كما سبق وقرأ عنها من قبل

عندما كان يبحث في سيرتهما الذّاتية، وقد تكون ساعدت زوجها في شِراء أو بِناء ذاك المنزل الفخم.

فتحَ غطاء كُرسي المِرحاض وبالَ فيه فشعرَ بشيءٍ من الرّاحة وكأنّ الشّعور بالذّنب إزاء ما ارتكبه قد زالَ مع البوْل المُتدفّق، لكنّ شعوره بالرّاحة لم يدُم طويلاً، ففي تلك اللّحظة رنَّ جرسُ البابِ فأحسّ شُرحبيل بنبضاتِ قلبه تكادُ تتوقّف، حتّى أنّه نسيَ أن يشطَفَ المياه بعد أن انتهى من استخدام المِرحاض. تساءلَ في نفسه عمّن يكون الطّارق ثمّ تذكّر ابنة يوليان التي قد تكون عادت من المدرسة، نظر إلى ساعة يدهِ فكانت تشيرُ إلى 16:09 فرجّح أنّها قد تكون هي.

نزع سُترته المُبلّلة بالماء والمُلطّخة بأثار الدّم، رفعَ كُمّيْ قميصه وتقدّم من الباب ثمّ نظر من العين السِّحرية فرأى فتاةً يافعة في غاية الجمال تقفُ وراءه وقد بدا عليها الضّجر، فعرف أنّها آريام ابنةُ يوليان. لكنّه استغربَ من عودتها باكرًا، فدوامُ المدرسةِ عند الأتراك ينتهي على السّاعة 16:30 عادةً!

فكّر في تجاهُلها فتُغادر ليقوم هو بتنظيف الفوضى التي أحدَثها ثمّ يفتحُ لها لمّا تعود لاحقًا، ولكنّه خشيَ أن تسأل جيرانهم

إذا ما هي اتّصلت هاتفيًّا بأبويْها ولم يرُدّا، والأسوأ من ذلك قد يتّصل الجيران بالشّرطة إن هم طرقوا الباب ولم يستجِب أحدًا، فمِن خِلال مراقبتِه للمنزل طيلة أربعة أيّامٍ لم يحدُث وأن عاد يوليان أو زوجته إلى بيتهم بعد السّاعة الثّانية زوالاً، ولابدّ وأنّ الجيران يعرفون ذلك، خاصّةً وأنّ سيّارته التي لا يغادر بدونها بقيت مركونةً أمام المنزل، لذا قرّر أن يفتح لها الباب.

استغربت آريام صاحبةُ الثّمانيةَ عشرَ عامًا عندما رأت شخصًا غريبًا يفتحُ باب بيتهم، حتى أنّها حسِبت نفسها لوهلةٍ قد طرقت الباب الخطأ، ابتسمَ لها شُرحبيل وألقى عليها التّحيّةَ بالفرنسيّة فاندهشتْ وردّت عليه التّحيّة بالفرنسيّة أيضًا، فقد كانت تُجيد التحدّث بها إلى جانب اللّغتيْن الإنجليزيّة والرّوسيّة. نظرَ شُرحبيل يمينًا وشِمالاً وعندما تأكّد من خُلوِّ الشّارع من المارّة اقترب منها بهدوء ليُباغتها ثمّ أمسكَ بها من ذراعِها وأدخلها عُنوةً إلى المنزل وأوصد الباب خلفهُ.

حاولت آريام مقاومتهُ وهي تدفعه وتصرُخ فيه كي يتركها، أمَرها بأن تتوقّف عن الصّراخ لكنّها أبتْ إلاّ أن تصرُخ بصوتٍ أعلى مِثل لبؤةٍ شرِسة في مُواجهة ذئبٍ مفترِس، فلطَمها على وجهِها بظاهرِ

يدِه كي تخرَس. خافت منه وتراجعت إلى الخلف خاصّةً لمّا أدمَتها اللّطمة وأحسّت بخيطٍ من الدّم يسيلُ على جانب فمها، التصقت آريام بالحائط وكانت ترتعدُ خوفًا منه مثل قطّةٍ وديعة. كانت ضعيفةُ البُنية وهزيلةُ الجسم إلاّ أنّها كانت تتمتّعُ بقوامٍ ممْشوق كعارضات الأزياء الإيطاليات، كانت تُشبه إلى حدٍّ كبير Özge Gürelبطلة مُسلسل "موسم الكرَز" التُّركي الشّهير. ولعلّ ذاك ما لفتَ شُرحبيل فيها وجذَبه إليها فقرّر تأجيل قتْلها إلى وقتٍ لاحق...

قام بتقييد ذراعيْها خلف ظهرها بواسطة خيْطٍ انتزعهُ من أحد الأحذية الرّياضية الموضوعة في المَدخل، كما أنّه قيّدَ قدميْها من الأسفل وأيضًا ربطَها بخيْطٍ ثالث حوْل ساقيْها عند الرُّكبتيْن. ولكي يضمُن أن لا تصرُخ مرّةً أخرى كمّمَ فمَها بالشّال الذي كانت تضعه والدتها حول عُنقها، ثمّ أجبَرها على الجلوس في رُكنٍ من أركان الرُّدهة فتكوَّرتْ هناك مثلُ قطّةٍ لمّا يُحاصرها كلبٌ شرِس!

قام بعد ذلك بنقل جُثّة ريان من الحمّام أمام عينيْها فصُعِقتْ لمّا رأت أخاها جُثّةً هامدة أطرافه الأربعة ورأسه مُتدلٍّ وهو يحمله على ذراعيْه، أخذ شُرحبيل الجُثّة ليضعَها في القبو فيما راحت آريام تبكي وتحاول يائسةً الصُّراخَ ومُناداة أخاها بفمِها المُكَمَّم من

تحتِ الشّال الذي كتمَ صوتها، لسببٍ ما ذكَّرها ذلك بأطفال العِراق وسوريا وفلسطين عندما يركضُ بهم أهاليهم وهُم أشلاءٌ في الشّوارع المُدمَّرة بفعلِ القصف الذي سبَّبهُ إرهاب العُدوانِ الغربي عند غزوِهِ لبُلدانٍ من الوطن العربي. للحظةٍ أحسّتْ بمأساة العرب ومُعاناتِهم لمّا اختبرتْ الفقْد لأوّل مرّةٍ في حياتها، بعد أن كانت ترى مُعاناتهم ومأساتهم كما لو كانت مَشاهِد دراميّة مبالَغًا فيها ولا تختلف عمّا تراه في أفلام الإثارة والحرَكة الأمريكيّة؛

أخذ شُرحبيل جُثّة ريان إلى القبو ووضعها خلف غسّالةٍ قديمة تبدو مُعطّلة وتركها هناك، لاحقًا وبعد مُضِي قُرابة ساعة كان قد انتهى من تنظيف مسرح جريمته من كلِّ أثرٍ للدِّماء بواسطة مواد تنظيفٍ عِدّة وجدَها في دولابٍ بالمطبخ، كما تخلّص من الطّاولةِ المُحطَّم زُجاجها ورتّبَ الفوضى التي أحدَثها وأعاد كلّ شيءٍ إلى ما كان عليه تقريبًا.

تناول بعد ذلك شيئًا من الطّعام الذي وجده في قِدرٍ بالمطبخ وقدّمَ قليلاً منه لقطٍّ من نوع Siameseكان يجولُ في أرجاء المنزل ويموءُ، وقد كان ذاك "سيزار" قِطُّ آريام المُدلّل وأكثر فردٍ تُحبّه في عائلتها. ترك شُرحبيل القطُّ الجائع يستمتعُ بوجبتهِ وأخذ لنفسه

عُلبتا جُعّة من الثّلاجة فأنعشَ نفسه بهما، وبينما هو يحتسي العُلبة الثّانية رأى رفًّا به عدّة زُجاجاتٍ من مُختلف أصناف الويسكي والنّبيذ وحتّى الشودكا. فتح باب الرّف الزُّجاجي وأخذ منه زجاجة الجوني وولكر، تناول كأسًا من دُرجٍ أمامه وملأهُ حتّى فاض، اكترع الكأسيْن الأولى والثّانية في جُرعةٍ واحدة ثمّ ملأَ الكأسَ الثّالثة إلى النّصفِ وأخذ الزُّجاجة معه إلى الرُّدهة حيث جلسَ على طرف الأريكة، حدّقَ في الفتاة الخائفة منه بينما كان يفكّر بِمَ سيفعلُه بها مِثلما حدّقَ المُحارب الأسطوريّ أخيل في أسيرتِه الطُّروادية برسيس داخل خيْمَته عندما حاصرَ الإغريقُ طُروادة؛

راحَ شُرحبيل يتأمّلُها ويرتِشف النّبيذ وهو يُمَنّي نفسه بالحُصول على بعض المُتعة معها قبل أن يُلحِقها ببقيّة أفراد عائلتها، وقد ذكّرته ملامحُها المَليحة بقحبةٍ تُركيّة إسمها "هاندي" لديها نفسُ القِوام ولوْن البشرة كان يعرفها في غُرَف للدّردشة الحَيَّة في موقع Tango، والتي كان يدفعُ عشرات اليوروهات أحيانًا لكي يَستمْني عليها كُلّما قدّمتْ عرضًا جِنسيًّا مُغريًّا على المُباشر للمُتابعين.

أخـذ شُـرحبيل جهـاز الـتحكُّم وشـغّل التلفـاز ذو الشّاشـة العريضـة المُعلّـق في جـدار الرّدهـة أمامـه، وذلـك ليُشْـغل الفتـاة ليتسـنّى لـه التّفكير بهـدوء. انتقـل بين القنـوات إلى أن رأى مشـهدًا لفـيلم إسـپانيّ سـبقَ لـه وشـاهده، حـين كـان الـبطلان جالسـان باسترخاءٍ في المقعدِ الخلفيّ يُدخّنان الماريخوانا، وذلك بعد أن قاما بالسّـطوِ على بنكٍ ببلدة صغيرة ثم هربا وركنا سيارتهما تحت أحد الجسور ليتواريا عن أعيُن الشُّرطة.

نظـرَ "مـاركيز" إلى "آريـا" وقـال لهـا بصـوتٍ مـنخفض بلُكنتـه الإسـپانيّة العَذبـة: - حبيبتي، هـل تعـرفين أنّـي كلّمـا نظـرتُ إليـكِ ووجـدتُكِ تُحـدّقين فيّ صُـدفةً بتَيْنـك العينـيْن الخضـراويْن، أحترق عِشـقًا كما يحترقُ جمرُ هذه السّيجارة اللّعينة!

ابتسـمت لـه آريـا واقتربـتْ منـه وقَبّلتـهُ قُبلـةً طويلـة من شـفتيْه فاحتضنها وبادلها قُبلاً حارّة، نظرَ إلى السّيجارة التي مازالت بين سبّابته وإبهامه والتي كانت قد انطفأتْ، فأطلق سبّة وقال مُستاءً: -اه تبًّا لقد انطفأتْ..

آريا: لقد انشغلنا بالتّقبيل فنسيناها وانطفأت..

ماركيز: أنسى حتى سنوات عُمري وهي تمضي لمّا أقبّلكِ.. أين هي الولاّعة؟

-آريا: لقد سقطت تحت المقعد على ما اعتقد.

ماركيز: لقد كانت هناك على لوْح عدّاد السّيارة.

آريا: ليست هناك.. بل تحت مقعدك.

ماركز: بل هي تحت مؤخّرتكِ.. ارفعي جسدكٍ وسوف تجدينها هناك.

آريا: وما الذي جعلكَ تعتقد أنّها تحت مؤخّرتي يا ماركيز؟!

ماركيز: لأن مؤخّرتكِ جذّابة ولابدّ وأن الولاّعة قد انجذبتْ إليها..

آريا: هههه.. كفاكَ عبثًا ماركيز، بجِد حبيبي أين هي؟

ماركيز: هيا أزيحي جسدكِ النّحيل قليلاً وستجدين الولاّعة تحتكِ.

آريا: هااه.. أنظر إنّها ليست هنا... اووه مهلاً.. إنّها هنا فعلاً!!.

-ماركيز: ألم أقل لكِ.

آريا: وما الذي أتى بها إلى أسفل مؤخّرتي.. غريب!

ماركيز: لقد أخبرتكٍ للتوّ، الولاّعة انجذبت إليكِ هههه..

آريـا: بـل أنـت مـن وضـعها على المقعـد لمّـا نزلـتُ لأبـول قبيْـل لحظات.

ماركيز: ولمَ سأضعها هنا بربّكِ؟!

آريا: لتولع النّار في طيزي هههه..

ماركيز: وما حاجتُنا للولاّعة ولديّ أي..

آريا: اششششت.. لا تنطق بها، يا لكَ من فتى لعوبٍ ماركيز!

مـاركيز: اححمـم.. هـااي.. سـتطلُع الشّـمسُ بعـد قليـل.. هيـا بنـا ننقلِـع مـن هنـا قبـل أن يعثُـر علينـا أوغـاد دوْريـات الشُّـرطة في هـذا المكـان ونحـن داخـل سـيارة بـلا أوراق نـدخّن حشـيشًـا، وبحوزتنـا 4 ملايين يورو مسروقة.

آريا: معك حق.. هيا هيا..

فـانتقلا إلى المقعـديْن الأمـاميْن وتـولّى مـاركيز القيـادة لأنّ آريـا كانت تخشى القيادة ليلاً...

شـعرَ شُـرحبيل بالمَلَل مع أنّ ((آريـا خوانـا)) كان فـيلم مغـامرات شـيّق، إلاّ أنّه لم يكن ذاك وقته ولا هو في مزاجٍ أو ظرفٍ يسـمحُ لـه بمشـاهدته، في حين كانت آريام تبكي والخـوف بـادٍ عليها وهي تنظرُ إليـه بعينيْن باكيتيْن، وفي نفس الوقت كان هناك مزيجٌ من الحِقدِ

والغضب يتطايرُ شررَهُما من عينيْها الخضراويْن الواسعتيْن، ولِوهلةٍ أحسّ شُرحبيل بشيءٍ من الرّهبة لمّا خُيّلَ إليه كأنّ الذي كان ينظرُ إليه هو لوسيفر من لوحةِ "المَلاك السّاقِط" The Fallen Angel للرسّام Alexandre Cabanel. فكأنّما عيْنا ألكسندر كابانيل أثناء رسمِه لِلَوحته الشّهيرةِ تلك كانتا تنظُرانِ إلى عينيْ آريام وهو يرسُم الملامِح.

أفرغَ شُرحبيل بقيّة الكأس في جوْفه.. ثمّ وكردّةِ فعلٍ لتجرُّأها على النّظر إليه بتلك الطّريقة الفَجّة قذَفها بالكأس ليُصيبها به في وجهها، إلاّ أنّها تفادتهُ بتحريكِ رأسها جانبًا في اللّحظة المناسِبة فتحطّمَ الكأسُ على الحائط وتناثرت شظاياه على الأرضيّة. نهض شُرحبيل من على الأريكة والغضب يتملّكهُ، فَكّ وَثاق قدميْها وقادها إلى الحمّام وفي طريقه التقطَ زُجاجة الشّراب، سارتْ عبر الرُّدهة وهي تتعثّرُ بسببِ الخيْط الذي بقي مربوطًا حول ساقيْها، ولمّا أدخلها إلى الحمّام أجبَرها تحت ضرباتِ حِزام بِنطاله الجِلديّ على نزعِ كلّ قِطعةٍ من ملابسها ودموعها تسيلُ أنهارًا. وكم بدتْ لهُ تُشبه المرأة التي تُزيل حُبيْبات الرّمل من على عَقب قدمها في لوحة "بعد الحمّام" After The Bath التي رسَمها William Adolphe

Bouguereau, وذلك عندما انحنت آريام لتنزع جَزمتها بنفس الوضعيّة وهي نصفُ عارية، وقد سبق لشُرحبيل وأن رأى تلك اللّوحة البديعة معروضةً للبيْع قبل أشهُرٍ في أحد معارض التُّحف الفنّية، وذلك عندما ذهب إلى باريس لينشُر روايته...

فتح صُنبور الماء السّاخن وأوقفها تحتهُ ثمّ ناولها قارورة شامپو وإسفنجة أخذهما من على أحد الرّفوف وأمَرها بأن تضع القليل منه على جسدها وتفرِكه، رفضت آريام فعل ذلك فلَكمها بقوّةٍ على وجهها فأسقطها لتقع على ردفيْها فوق الأرضيّة الزّلقة.

ركلَها على جنْبها بقدمه ليحُثّها على الوقوف فوقفت ترتجفُ خوفًا وهي تضعُ يدها على عيْنها التي احمرّتْ، ناولها قارورة الشّامپو والإسفنجة مُجدّدًا دون أن يُعيد عليها كلامه وهو يشزُرها بنظراتٍ بثّتْ فيها الرُّعب فانصاعت لأمره هذه المرّة وراحت تفرُك جسدها بالشّامپو، فتح هو سحّاب بِنطاله وأخرج أيره قُرمزيّ الرّأس وأرغمها على وضعهِ في فمِها، فلمّا رفضت وجّهَ لها لكمةً أخرى إلى العيْن ذاتها فارتدت إلى الخلف وارتطم مؤخَّر رأسها بالجِدار.

أذعنتْ لأوامِره في الأخير ومصّتْ له أيرهُ ومارستْ معه الجنس مثلما أَحَبّ واشتهى، ولبّتْ له كلّ رغباته بعِدّة وضعياتٍ مختلفة. وقد فوجِئَ عندما وجدها فاقدةً لعُذريتها رغم صِغر سِنّها، فالعائلات الثّرية عادةً ما يكونون مُتحفّظين ومُحافظين على سُمعتهم من هاته النّاحية.. أو هكذا كان يعتقد؛

بعد أن أفرزَ مَنيّه في فمِها وعلى وجهِها مرّتيْن جعلها تغطِس في الحوض المُملوء نصفه بالماء وهي ماتزال مُقيّدة اليديْن، فيما كانت هي تتساءل عن مكان والدها كي يأتي وينقذها من براثن ذاك الوحش البشريّ!!

نزع ملابسه هو الآخر وغطَس معها في الحوض بعد أن شغّل شاشة البلازما المُعلّقة أمامه والمُزوّدة بخِدمة الواي فاي فانبعثت منها موسيقى هادئة تبعثُ على الاسترخاء، لم تُعجبه تلك الموسيقى فبحث بواسطة الرّيموت عن موسيقى غيرها إلى أن عثر على أغاني الدي جي Pakitoالرّاقصة، فاختار أغاني ألبوم Videoوتركَها تصدحُ في الوضعِ التّلقائي ثمّ استلقى على ظهرِه داخل الحوْض. وبينما هو يرتشفُ من الزُّجاجة أمَر آريام بأن تمُصّ له أيْره وتلعَق كُرتيْه كي تستثيره مُجدّدًا، لبّتْ له ذلك وكلُّ ما أمَرها به أن تفعله

كما لو كانت Anna De Villeالنّجمةُ الإباحيّة التي يحلو لها أنْ تُذَلّ وتُهان!

تساءلتْ آريام في نفسها ودموعها لم تُكفكِفْ ما الذي فعَلَته حتّى تستحقّ ما كانت تمُرّ به!! راحت تترجّى الله في نفسها كي يُنجّيها، لكنّها تذكّرت كيف كانت تترجّاهُ وتبتهِلَ إليه في كثيرٍ من المرّات كي يتقبّض على روحها ويُلحِقها بوالدتها التي توفّيتْ منذ بضعِ سنوات بسبب مرضٍ عُضال، وكيف صارت الحياة لا تُطاق بالنّسبة لها إلى درجة أنّها دخلت في دوّامةٍ من الاكتئاب الحادّ لفترةٍ من الزّمن. حتّى أنّها قبل أيّامٍ فقط كانت قد طلبتْ من زميلها الجزائريّ المُغترِب أن يقوم بقتلها مُقابل أن تمنحَهُ سيّارتيْن ومبلغًا كبيرًا من المال، غير أنّ هذا الأخير رفض عرْضها ذاك خوْفًا من عواقب ذلك إن هو قُبض عليه. في كلّ الأحوال تقبّلتْ الأمر على أنّه قضاءٌ وقدَر، ثمّ تذكّرت تغريدةً نشرتها إحداهنّ على موقع تويتر في أحد الأيام: «إذا ما تعرّضتِ للاغتصاب ولم تستطيعي المقاومة فما عليكِ إلاّ أن تستسلمي وتستمتعي بالزَّب!»، والحقيقة أنّها وجدتْ الجِنس مع مغتصِبِها ممتعًا، أكثر مُتعةً مِن مُمارسَتْه مع حبيبها الحالي أو السّابق. وقد استغربتْ أن يكون للفرنسيين أيورٌ كبيرة وتلك

القُدرة على العَطاء عند المُمارسة، فما تعرفه عنهم أنّهم محدودي القُدرة عندما يتعلّق الأمر بالجنس، كما أن أيورهم صغيرة مقارنةً بأير شُرحبيل، والذي لم تكن تعلم أنّه تونسيّ عربيّ الأصل؛

في تلك اللّحظة أيقنتْ أنّ الله قد استجاب لدُعائها، وها هو ذا أحدهم على وشكِ أن يقتلها وبدون مُقابل. قطع عليها حبلَ أفكارها أيرُ شُرحبيل لمّا أقحمهُ في فمها عميقًا حتى وصل إلى حلْقها فشرِقت بالماء الممزوج بالشّامپو عندما اندفع قليلٌ منه داخل فمها فأخذت تسعُل. وضع شُرحبيل سَبّابته وإبهامه تحت ذقنها ورفع رأسها برفقٍ وراح يُحدّق في عينيْها السّاحرتيْن لثواني دون أن تظهرَ على وجهه أيّ تعابير، تأمّلَ عينها اليُسرى المُحمَرّة بفعل الكَدَمة التي سبّبتها قبضتُه، مسحَ لها دموعها بإبهامه ونصفُ ابتسامةٍ ترتسِم على فمه، اقتربَ منها ولثَمها بقُبلاتٍ دافئة كالقُبلات التي طبَعها Brad Pittفي دور " «Achillesعلى فَم Rose Byrneفي دور " «Briseisلمّا كانت تودّعه وهو يُحتضَر في فيلم .Troyثمّ وبصوتٍ ناعمٍ طلبَ شُرحبيل من آريام أن تستدير!

اعتدل خلْفها وجعل مؤخِّرتها في وضعيّةٍ مُناسِبة ثم أدخلَ أيره في دبُرها بحنُوٍّ حتى لا يوجِعها، أنّتْ آريام قليلاً ثم بدأت تتعوّد

حجم أيره الكبير داخل فُتحتها الضّيّقة وراحت تتأوّه وهي تعَضّ على شفتها السُّفلية وتعتصر الماء بقبضتيْها الصّغيرتيْن. فيما هو يشدُّها بيده اليُسرى من ذيْل شعرها الذي كان ما يزال معقوصًا، وبيده الأخرى كان يحتسي من زجاجة الويسكي مُباشرةً، وعلى إيقاع أغنية (remix) ?Are U Ready المُنبعثة من شاشة التلفاز والتي ضاعفت من نشوته، أفرزَ شهوته فيها للمرّةِ الثّالثة وبلغت به ذُروتها حتّى انقلبت قَزحيّتا عينيْه إلى الخلف فلَم يعُد يظهر غير بياضهما المُحمَرّان بفعل الكحول مثل عيون محاربي السايا جين Saiya-jin لحظة تحوُّلهم عندما ينظروا إلى القمر في آنمي Dragon Ball، وبينما هو كذلك قام بشدِّ ظفيرة شعرها جيّدًا ثمّ رفع زُجاجة الويسكي عاليًا ونزل بها بكلّ قوّته على رأسها فهشّم لها جُمجمَتها. شخرتْ آريام مرّةً واحدة لمّا لفظتْ آخر أنفاسها فأفلت شُرحبيل شَعرها فاستقرّ وجهُها – الذي ارتسمتْ عليه تعابير وجوه الشّخصيات التي تموت مقتولةً في آنمي المحقّق كونان– فوق صفحة الماء الممزوج بالشّامپو والدّم. وبشكلٍ تلقائيّ أطلق جسدُها ضرطةً وذلك بعد ثوانٍ من وفاتها. فكانت تلك أغربُ ضرطةٍ سمِعها شُرحبيل في حياته، ورائحتها كانت جدّ كريهة ممّا

يدلّ على أنّ آريام كانت تُكثِر من تناول الأطعمة الجاهزة والمأكولات السّريعة والمشروبات الغازيّة!

صرفَ شُرحبيل المياه القذِرة عبر بالوعة المغطِس حتى فرَغ منها تمامًا ثمّ نظّفه ونظّفَ أرضية الحمّام جيّدًا، وذلك بعد أن نقل جُثّة آريام ليضعها بجانبِ جُثّة ريان في القبو.

عاد إلى الدّاخل وهو يفكّر في كيفيّةٍ لاستدراج أكبر عددٍ من القُرّاء ومُحبّي الكاتب يوليان البعقوبي والمُعجبين بروايته الجديدة، وذلك كي يُلحِقهم بكاتبهم المحبوب. أكثرُ شخصٍ صار يكرهُه شُرحبيل في هذا العالَم، فحتى بعد أن قتله لم يُشفِ غليلَه منه بعد.

استلقى على الأريكة وفي يده عُلبة جُعّة أحضرها من الثّلاجة، وفي يده الأخرى كان يمسك بهاتف يوليان، وعلى مقعدٍ بلاستيكي كان موضوعًا أمامه إبهام يوليان المقطوع ملفوفًا في منديلٍ ورقيّ في حال ما احتاج إلى بصمته ليتصفّحَ مِلفّات الهاتف.

وَلج إلى صفحته الرّئيسيّة على فيسبوك ودخل إلى قائمة الرّسائل المُرسَلة مؤخَّرًا، فوجد بينها رسائله مع كاليجي حوزكان مُديرة دار النّشر التي كان قد تعاملَ معها، فراسلها شُرحبيل باسم

يوليان وأخبرها بأنه يعتزم تحضير حفل توقيعٍ خاص في بيته، وطلب منها أن تُرتّب له موعدًا مع القُرّاء والمُعجبين لكي يحضُروا إلى بيته يوم غد، كما أنّه قام بالإعلان عن ذلك في منشورٍ على صفحة الكاتب الرّئيسيّة كي يعلَم بالأمر القاصي والدّاني.

وقد ذكّرهم في المنشور بأنّه سوف يحصُل كلٌّ من يحضُر على نُسخةٍ مجّانية مُوقَّعة من روايته الجديدة، فتفاعل المتابعون مع الخبر في غضون دقائق، خاصّةً أولئك الذين يسكنون في يلوا والنّواحي القريبة منها. فبالنّسبة لهم لا يحدث كلّ يوم أن يقيم كاتبهم المُفضّل حفل توقيع في منزله ليدعو إليه مُعجبيه.

وقبل أن يطفىء شُرحبيل الجهاز أعلَمَ كلّ أصدقاء يوليان على فيسبوك – بعد أن أشار إلى أسمائهم جميعًا – بأنّه سوف يأخذُ صبيحة يوم غد استراحةً له من عالَم التّواصل الاجتماعي ليُصفّي ذهنه قليلاً من ضغط العمل والكتابة، فقد عزَمَ هو وكلّ أفراد عائلته أن يتركوا هواتفهم الخلَوية مُغلقة لبعض الوقت ويخرجوا من المنزل ليتجوّلوا ويتفسّحوا معًا وينعموا ببعض الرّاحة في أحد مُتنزّهات الحدائق العامّة بالمنطقة.

أعاد شُرحبيل نشر منشورٍ مُشابهٍ للأوّل من جهاز خليلة، وقد حرصَ على الإشارة إلى إسم حِساب آريام حتى يراهُ أصدقائها في المِنصّة فلا يضطرّوا إلى الاتّصال بها هاتفيًّا، وذلك لأنّه لم يستطع الوُلوج إلى هاتفها لعدم حصوله على كلمة السّر خاصّتُها، على عكس جهاز والدتها الذي لم يكن موصدًا بكلمة سرّ ولا بِبصمة فسهُل عليه تصفّح حِسابها وكلّ ملفّاتها. قام بتلك الحركة حتّى لا يستغربَ كلٌّ من قد يتّصل بأحد أرقام هواتف العائلة إذا ما وجدوا هواتفهم غير شغّالة، ثمّ أعدمَ الأجهزة الثّلاثة في المِدفئة التي كانت نارُها تلتهب.

بعد ذلك أطفأ أنوار المنزل عدا نور الواجهة الخارجية ثم مرّ بالمطبخ وأخذ مزيدًا من عُلب الجُعّة من الثّلاجة ليصعَد إلى الطّابق الثّاني فيستريح في غُرفة الزّوجين، لكن قبل ذلك راح يتفقّد بابَ الحديقة التي كانت في الخلف ليعرف ما قصّة الكلب الذي لم يكُفّ عن النّباح في الشّارع، فقد خشيَ أن يكون كلبُ ذاك العجوز الذي رآه منذ ليلتيْن والذي يمكن أن يكون قد تتبّعه. وما إن فتح الباب حتى انقضّ عليه كلبٌ وعضّه على ذراعه الأيمن فأوقع عُلب الجُعّة على الأرض لمّا ضغط بأنيابه على ساعدِه. لم

يتوقّع شُرحبيل أن يكون في الدّار كلب، فرغم أنّه كان داخل حديقة المنزل إلاّ أنّ صوت نُباحه كان يبدو وكأنّه آتٍ من الخارج. كان كلبًا متوسّط الحجم من نوع Koyunبُنّي اللّون أحضرته خليلة زوجة يوليان من مزرعة جدّها منذ أن كان جروًا صغيرًا سنة 2005، فربّتهُ وأطلقت عليه وقتها إسم "كيڤانش".

عندما أحسّ الكلب كيڤانش بأنّ الغريب الذي في المنزل على وشك أن يفتح باب الحديقة اختبأ وراء إحدى الشُّجيْرات وما إن رآه باغته وانقضّ عليه، ومع ذلك كان شُرحبيل سريع البديهة وبسرعةٍ استطاع أن يدفع الكلب بعيدًا بركلةٍ قويّةٍ من ساقه حتّى لا ينهَشهُ، ثم عاد إلى الوراء وأغلق الباب على نفسه قبل أن يُهاجمه مجدّدًا.

على الفور ركض إلى مِغسلة الحمّام وفتح الصّنبور وقام بغسل مكان العضّةٍ جيّدا بالماء والصّابون وهو يشتُم ويلعنُ ذلك الكلب متوعّدًا إيّاه بعقابٍ أليم، بعد أن نظّف مكان العضّة أخذ مُرهم المُضاد الحيويّ من عُلبة الإسعافات الأوّلية المُثبَّتة في رُكنٍ من الحمّام ودهنَ به الجُرح ولفّهُ بعد ذلك بضِمادةٍ مُعقّمة. لم يكن شُرحبيل مُمرّضًا أو سبقَ له ودرسَ الطّب، ولكنّه تعلّم بعض

أساليب النّجاة من الصّيادين الذين كان يخرُج معهم للصّيد في قُرى وضواحي مدينة تولوز، وذلك لأنّ بعضهم كان يتعرّض أحيانًا لعَضّات كِلاب الصّيد التي يأخذونها معهم أو حتّى تلك البريّة التي تعترض طريقهم عندما تشمُّ رائحة الطّرائد التي يحملونها.

توجّهَ بعد ذلك إلى حاوية القُمامة والتقط منها قطعًا من زُجاج الطّاولة المكسور ووضعه داخل إناء هاون خشبيّ وجده في دولابٍ بالمطبخ، قام بطحن الزُّجاج المكسور بواسطة الرّزامة حتّى صار يبدو مثل الطّحين، وقد استغرق منه ذلك بعض الوقت لأنّ الرّزامة لم تكن ثقيلةً مثلما هي رزامة الهاون النُّحاسي. أخرَج بعد ذلك نصف دجاجةٍ من الثّلاجة وراح يحشوها بالزُّجاج المطحون بحيث لا تظهر ذَرّاته خارجها، ولمّا تأكّد أنه حشاها بما يكفي عاد إلى باب الحديقة ففتحه ورمى نِصف الدّجاجة المحشُوّة إلى الكلب وأعادَ غلْق الباب بسُرعة قبل أن يأتيه!

كانت ساعةُ الحائط تُشير إلى الحادية عشر إلاّ أربعون دقيقة عندما أحسّ بالإرهاق، فقرّر أن ينام لأنّه في الغد صباحًا لديه الكثير ليقوم به. فصعِد إلى الطّابق العُلويّ وقصد غرفة الزّوجيْن لينام هناك، لكنّه سُرعانَ ما شعرَ بشيءٍ من الوِحشة وهو مُستلقٍ

على السّرير العريض، شرب عُلبة البيرة الأخيرة المُتبقيّة معه، فعُلب البيرة الأخرى وقعت منه في عَتبة الحديقة الخارجيّة لمّا هاجمَه الكلب قُبيْل ساعة...

لذا نزل إلى المطبخ وأتى بزُجاجة نبيذٍ عساها تُساعده على النّوم، لكن دون فائدة حتّى بعد أن شرِب رُبعها إلاَّ أنّ عيناه ظلّتا مفتوحتان رغم شعوره بالتّعب، ثمّ تذكّرَ أنّه لمَح في المساء بضعة عُلَب أدوية في غُرفة نوم آريام بجانب أدواتها فوق مكتبها، وذلك عندما ألقى نظرةً سريعة على غُرف المنزل سابقًا. دخل إلى تلك الغرفة وتوجّه إلى المكتب حيث وجدَ أربع عُلبٍ لحُبوب الاكتئاب حسبما فهِم من بعض المُصطلحات المكتوبة بالانجليزية، Ketya، Xanax, Aripaو .Sulpirوقد كان معظم ما كُتب عليها باللّغة التُّركية. لم يدرِ أيٌّ منها قد تساعده على النّوم فاختار كبسولةً من حُبوب الكيتيا وكبسولةٌ أخرى من الآكساناكس وعاد بهما إلى غرفة نوم الزّوجيْن حيث ترك شرابه، سكب رُبع كأسٍ من النّبيذ ثمّ وضع حبّتا الدّواء في فمه وابتلعهما مع الشّراب الذي اكترعهُ في جُرعةٍ واحدة!

لم يكُن يثق بقوّة مفعول تيْنك الحبّتيْن لذا نزلَ إلى الطّابق الأول ليبحث عن شيء يُشغِل به نفسه بما أنّ النّعاس جافاه، وهو يمُرّ بالرّواق المؤدّي إلى باب القبو سمِع ما يشبه صوت طفليْن يتهامسان صادرًا من هناك، توجّه إلى القبو خافت الإضاءة بخطواتٍ بطيئة. رأى البطّانية التي لَفّ فيها جُثّة آريام في المساء، فاقترب منها ورفع الغطاء على وجهِها بحذر فوجد أنها تنظر إليه بعينيْن جاحظتيْن وتضحكُ بصوتٍ خافت! فزِع منها وتراجع إلى الوراء وهو يهزّ رأسه بقوّة ثم مسّد عينيْه كي يتأكّد أنّه لا يتوهّم، عاد ليكشف عن وجهِها مرّةً أخرى فوجدها ميّتة لا حياة فيها كما تركها آخر مرّة، فكّر قليلاً ثمّ حمَلها على ظهره وهي ملفوفةٌ في البطّانية وخرج بها، وقبل أن يُغلق الباب وراءه خُيّل إليه أنّه رأى الطّفل ريان يُطلُّ عليه من وراء الغسّالة حيث وضعه، لكنّ ذاك الخيال اختفى لمّا حدّقَ شُرحبيل جيّدًا في تلك الزّاوية، فشكّ بأنّ ذلك راجعٌ لمفعول حبّتيْ الدّواء اللّتان تناولهما! صعد بالجُثّة إلى غرفة أبويْها ثم وضعها على السّرير ورمى بالبطّانية على الأرضيّة، استلقى بجانب الجُثّة العارية واحتضنها متوسّدًا نهديْها الصّغيريْن الباردين، كان جِسمُها قد بدأ يتيبّسُ بسببِ البرد والجَفاف، فنزل

إلى الطّابق السُّفليّ مرّةً أخرى وأحضرَ إناء زيْت الخَروع الذي رآه سابقًا في غُرفة التّدليك بالحمّام، وبينما هو هناك كان يسمعُ أنين وعُواء الكلب الذي كان يتلوّى من الآلام بسبب الزُّجاج الذي ابتلعه مع لحم الدّجاجة والذي كان يُمزّق له أمعاءه في تلك اللّحظة، فابتسم شُرحبيل في رضًى وهو يصعدُ عائدًا إلى الغُرفة.

ما إن دخل نزعَ بِنطاله وقميصه وجلس على السّرير واعتدل بجانب الجُثّة المُمَدّدة على ظهرها وبدأ ينقعُ أصابعه في الإناء ثمّ يُمرّرُ يده المُغَمّسة بالزّيْت ويمسِّدُ بها النّهديْن والوَركيْن والفِخذيْن وما بينهما. كان مفعول الكبسولتيْن اللّتيْن ابتلعهُما قد بدأ يؤثّرُ في دِماغه، ففي تلك اللّحظة خُيِّل له أنّهُ سمِع صرير باب دولاب الملابس وهو يُفتَح، ابتلع ريقه والتفت ببُطء ليجده ڤلاد الثّالث (دراكولا) يخرجُ من الباب الأيسر للدّولاب الذي كان قد وضع فيه يوليان من قبل. تجمّدَ شُرحبيل في مكانه وهو ينظر إلى ذلك المُخوزِق الذي كان الشّررُ يتّقدُ في عينيْه، بعد لحظاتٍ قصيرة فُتِح بابُ الدّولاب الأيمن لتخرُج منه الكونتيسة إليزابيث باثوري، والتي لم تكن أقلّ دمويّةً من ڤلاد. التصق شُرحبيل بحائط السّرير لمّا أشهَر دراكولا سيْف Tapionوتقدّمَ منه وهو يلوّحُ به في الهواء

راسِمًا حرف X، تبِعته الكونتيسة مُبرزةً نابيْن حادّيْن مثل أنياب السِّيميلودون المُنقرِض وهي تلعقُ شفتيْها مُتعطّشةً لدمِه!

فجأةً تغيّرَ شكل الغُرفة وأصبح كلّ ما فيها مرسومًا بخاصّية الأنيميشن وتحوّلوا جميعًا إلى شخصيات أنمي، نظر شُرحبيل إلى يديْه وساقيْه فتعجّب في شيءٍ من الخوف عندما رأى نفسه في مرآة منضدة الزّينة المُقابِلة وقد تغيّر شكله الذي أصبح في هيئة Trunks! ثمّ نظر إلى قلاد الثّالث وإلى إليزابيث باثوري اللّذان أصبحا مرسوميْن بجودةٍ عالية وكأنّ الذي رسَمهُما هو Akira Toriyama. جُثّة آريام أيضًا كانت مرسومةً بِحرفيّة فبدت أكثر جمالاً وإثارةً حتّى وهي ميتة، وذلك لأنّها صارت في هيئة Naoko من مُسلسل الهينتاي Fella Hame Lips. 4545

في تلك اللّحظة سُمع صوت أزرار إلكترونيّة يصدُر من داخل الدّولاب الأيسر ليظهرَ منه بعد ثوانٍ السّايبورغ Android 17، لم تمُرّ دقيقة على وقوفه هناك حتّى ظهرتْ من بابِ الدّولاب الأيمن السّايبورغ Android 18 فوقفت إلى جانب أخيها التّوأم.

لم يُسرَّ دراكولا والكونتيسة بظهور ذيْنك الشّخصيْن اللّذيْن اعتبراهما دخيليْن في منطقة نفوذهما، فدار حوارٌ بين أربعتهم وقد لاحظ شُرحبيل انفعال ڤلاد الذي كان عدائيّ في طريقة كلامه على عكس الأخويْن الآليـيْن الهادئيْن، ضاق Android 17 ذرْعًا من فضاضة ڤلاد وألفاظه البذيئة، خاصّة وهو الذي كان معروفًا عنه اطلاق رذاذ التُّفال من فمه أثناء الكلام؛ تقزّز منه 17 فركض نحوه ثمّ قفز في الهواء ودار حول نفسه بحركةٍ لوْلبيّة وركل وجهه بقوّة فاقتلع له رأسه الذي تدحرجَ على الأرضيّة بشكلٍ دائريّ تاركًا وراءه خطًّا من الدّم، فيما سقط جسدُه في الجانب الآخر من الغُرفة والدّم ينزّ من العُنق المقطوعة.

تقدّمت Android 18 من الكونتيسة بخطواتٍ ثابتة وهي تضعُ يدها اليُسرى على خصرها، صوَّبت يدها اليُمنى نحوها وأطلقت منها شُعاع طاقةٍ حارق أحدثَ دويًّا هزّ أركان البيت، فاخترقَ الشُّعاع جسد الكونتيسة التي اصطدمت بالحائط لتسقُط صريعةً والدّخان يتصاعدُ من الثّقب الذي أحدثته 18 في صدرها.

لم يصدّق شُرحبيل أنّ ما كان يراه أمامه يحدثُ فعلاً، شعرَ كما لو أنّه كان جزءً من أحداث سِلسلة الآندرويدز في آنمي

Dragon Ball Z!كان قد سبقَ له وشاهد بضعةَ حلْقاتٍ منه، وما يعرفه هو أنّ الآندرويدز كانوا في مَهمّة البحث عن Gokuلقتله، لذلك لم يكن هو هدفهم...

لكنّه حبَسَ أنفاسه وتجمَّدَ الدّمُ في عروقه عندما التفتتْ إليه 18 وصوّبتْ يدها ناحيتهُ وقد بدأت تتجمّعُ طاقةٌ في كفّها استعدادًا لإطلاقها عليه! لكنّها ولسببٍ ما تراجعت في قرارها بشأن قتله وبدلَ ذلك أشارت له بسبّابتها أن يقترب منها، ابتلع شُرحبيل ريقه واقترب منها زحفًا على السّرير ولم يقوَ على النّهوض منه لشدّة خوفه. ابتسمت له وداعبت بأصابعها شعره الأزرق النّاعم ثمّ طبعتْ قُبلةً على خدّه وهي تنعته بالفتى المؤدّب، قبل أن تهُمّ هي وشقيقها 17 بمغادرة المنزل.

فجأةً ودون سابِق إنذار سمِع الثّلاثة أصوات عشرات الخطوات تصعد السّلالم، ثمّ ومِن وراء باب الغرفة تكلّم رجلٌ بصوتٍ جهوريّ مُخاطبًا من كانوا بداخل الغُرفة باللّغة التُّركية بأن يُسلّموا أنفسهم. عرَف شُرحبيل من خلال لهجة المتكلّم بأنّه أحد رجال الشُّرطة، وقد رجّحَ أنّ ذاك قائدهم. لم ينتظر عناصرُ الشّرطة طويلاً فرموا بقُنبلةِ غازٍ مُسيّلة للدّموع داخل الغرفة،

وعلى الفوْر قام 17 بإطلاق شُعاعٍ طاقة تجاه النّافذة فحطّمها وخرج منها ولحِقت به 18 وأيضًا شُرحبيل في هيئته الجديدة ((Trunks، بسرعةٍ خاطفة التقطَ من الأرض السّيف الذي كان مع دراكولا، ولم ينسَ كذلك أن يحمِل معه آريام النّائمة في هيئة ((Naoko 4545وخرج بها من النّافذة.

كان الشّارع في الخارج مُحاصَرًا بالكامل بعد أن طوّقه عشراتٌ من رجال الشُّرطة من كلّ جانب، وذلك بعد أن تلقّى قائدهم تعليماتً تُفيد بأنّ الجاني الذي قتل أفراد عائلة البعقوبي في ذاك المكان! لكن الشّقيقان 17 و 18 وشُرحبيل ((Trunksلم يُعيروهم أيّ اهتمام لعِلمهم بأنّهم يتفوّقون عليهم قوّةً حتّى لو كانوا ألفًا. لم يصدّق أعوان الشَّرْطة أعينهم وهم ينظرون إلى ثلاثة شُبّان يُحلّقون في الهواء بدون أجنحة أو طائرة أو حتّى بواسطة حِزامُ الطّيران .Jetpack

حطَّ ثلاثتهم على الأرض ووضع شُرحبيل ((Trunksآريام ((Naokoفي مكانٍ عُشبيّ نظيف على الأرض، اقترب منها 17 وانحنى عليها ثمّ أدار جسدها المُسجّى قليلاً وأدخل إصبعه الوسطى في حُفرة طيزها وضغط على زِرُّ تشغيلٍ خفيّ بداخلها فاستفاقت!

فتحت آريام ((Naokoعينيْها واعتدلت في جلستها، وما إن رأى عناصر الشُّرطة نهديْها الكبيريْن اللّذان كانا مكشوفيْن كُلّيًّا حتّى احمرّت أعينهم وأصبحت قَزحياتها على شكل قلبٍ أحمر، وتدلّت ألسنتهم مثل ألسنة الكِلاب وهي تقطرُ باللُّعاب. وما إن وقفت آريام ((Naokoوبانت بقيّة مفاتنها سقط عناصر الشُّرطة على رِكابهم فتخلّوا عن مُسدّساتهم ورشّاشاتهم وتقدّموا نحوها –بمن فيهم القائد وأتباعه الذين خرجوا من المنزل لاحقًا– يَحْبون على أربع وهم يلهثون وينبحون ويعوون مثل الذّئاب عندما يرون القمر وقد طلعَ بدْرًا.

تبِعهم من رآها من رجال الحيّ حبْوًا وهم يعوون بدورهم، لحِقت بهم نسائهم يبكيْنَ وينـدُبنَ ويلطُمنَ فكشّرَ الرّجال عن أنيابهم وأمروهنّ بالعودة إلى بيوتهنّ، لكنّ النّساء اللّاتي اشتعلت نيران غيرتهنّ ثارت ثائرتهنّ وركضن خلف رجالهنّ ليُعدْنهُم إلى ديارهم، فكانت ردّة فعل رجالهنّ أن التقطوا أسلحة عناصر الشُّرطة المَلقية أمامهم على الأرض وراحوا يطلقون النّار على زوجاتهم وخليلاتهم فأردينهنّ قتلى! ثم ألقوا بالأسلحة أرضًا وتابعوا حبْوَهم نحو آريام ((Naokoالتي أذهبت عقل كلّ رجلٍ رأى

جسدها الأبيض الفاتن عارٍ، بنهديْها الكبيريْن المتدلّيَيْن ووركيْها العريضيْن وردفيْها العظيميْن، وكُسّها المُنتفخ الحليق الذي يتوسّط خصرها المُنحني، والذي كان يُغطّيها إطار Blurلتغبيش العضو كما تظهرُ الأعضاء التناسُليّة في الأفلام الإباحيّة اليابانيّة.

سُمع صوتُ ضجيجٍ يقترب من بعيد فظنّت 18 أنّها قوّات دعمٍ جاءت لتهاجمهم، فلمّا حلّقت إلى الأعلى قليلاً لترى ما هنالك فوجئت عندما رأت في الأفُق البعيد جحافلٌ من الرّجال الأتراك القادمين حبْوًا من كلّ بلدةٍ ومدينة في تركيا ليروا أجمل قحبةٍ في العالم، آريام ((Naokoالتي أذهبت العقول وأذابتْ القلوب. وذلك بعد أن قتلوا جميعًا زوجاتهم وخليلاتهم فلم يُبقوا على امرأةٍ واحدة حيّة في كامل أرجاء تركيا؛

فكانت أصوات النُّباح والعُواء الصّادرة من ملايين الحناجر المُزمجِرة تملأُ المكان، فما كان من 17 إلا أن جعلهم جميعًا يقفون في صفٍ واحد يتقدّمُهم قائد الشُّرطة، ثم أمرهم بنزع سراويلهم لينتظر كلٌّ منهم دورهُ لينيك آريام ((Naokoمُقابل 10 ليرات للواحد، فكُشِفت أيورهم جميعًا والتي كان يغطّيها إطار التّغبيش أيضًا، في حين استدارت لهم بمؤخّرتها وانحنت على صخرة هناك

استعدادًا لأعظم مَهمّة ستقوم بها قحبةٌ على وجه الأرض، إنجابُ عِرقٍ مُنحرف جديد ومختلف من بني الإنسان.

في حين أخذت 18 بيد شُرحبيل ((Trunksوتداريا وراء شجرةٍ قريبة وهناك قام بمضاجعتها، لكنّ أملُه خاب لمّا وجدها فاقدة لعُذريتها بعد أن حسِبها بتولاً. وقد أخبرته 18 بأنّ صانِعها الـ .Dr Geroهو من فضَّ بَكارتها عندما ضاجعها قبل سنوات وهي ما تزال إنسان، أي قبل أن يُبرمِجها ويُحوّلها إلى آليّ...

فجأةً وبينما كانت 18 مُنحنيةً على رُكبتيْها تمُصّ أير شُرحبيل ((Trunksالمُغبّش بإطار الـ Blurظهر من وراءهما وحشٌ أخضر ضخم فارِع الطّول له ذيل طويل ينتهي برأسٍ مُدبّب مثل إبرةُ الحُقنة. أطلقت 18 صيْحة ذُعرٍ لمّا رأته، فقد عرفت أنّ ذاك Cell الذي كان يبحث عنها هي وأخوها، فهو الآخر صنيعة العالَم العبقريّ المجنون !Dr.Geroوقد استشعر طاقتها القِتالية فقادتهُ إلى ذاك المكان، وكانت غايتُه من إيجادهما لكي يبتلِعهما من أجل إكمال تحوّله المطلوب...

التصقت 18 بشُرحبيل ((Trunksلتحتمي به فاستغلّ الفرصة وراح يفركُ رأس أيرهُ بِمفرَق مؤخّرتها من الخلف، فيما كان Cell

يقترب منها وقد رفع ذيله الطّويل إلى الأعلى ثمّ فتح نهايته المُدبّبة فأصبحت بحجم فوّهة بئر يكفي اتّساعها لابتلاع إنسان، وقبل أن ينتهي شُرحبيل ((Trunksمن الوصول إلى ذروة اللّذة انقضّ Cell بذيله على 18... فاستفاق ليجد نفسه على السّرير غارقًا في العرَق، نظر حوله مفزوعًا فوجد جُثّة آريام ماتزال في مكانها، نظر إلى السّاعة في جوّاله فكانت 3:02 صباحًا، فاستدار إلى شريكته الميتة واحتضنها ولم ينمْ إلاّ بعدما شعَر بالإعياء الشّديد بعد أن ضاجع الجُثّة المغمورة بزيتِ الخَروع مرّتيْن.

كانت السّاعةُ في جوّاله 10:43 عندما استيقظ في الصّباح على نور الشّمس التي كانت أشعّتُها المُتكسِّرة تخترقُ ستائر النّافذة، تَمطّى بكسَلٍ والتفتَ إلى جُثّة آريام فبدتْ له بوجهِها الملائكيّ رغم شحوبه وكأنّها تغُطّ في نوْمٍ عميق تمامًا مثل الأميرة النّائمة. فذكّرته بالمُمثّلة Elle Fanningلما لعِبتْ دور " "Auroraفي الفيلم الخيالي Maleficent، ففكّر ماذا لو تستيقظ كما حدث في الأسطورة إن هو طَبع قُبلةً على شفتيْها!

فانحنى على الجُثّة وقَبّل فمَها ثم بقي ينظر إليها منتظرًا منها حقًّا أن تستفيق، ضحِك على حاله ناعتًا نفسه بالمخبول المعتوه

وهـو على يقـين بأنّـه لـو يحـدُث معـه السِّحر الـذي قـرأَ عنـه في الأساطير لتَحوّلتْ تلك الجُثّة إلى صَرصارٍ كبير، إلى مسخٍ قبيح كما حدث لـ"غريغور" في رواية ((المَسخ)) لفرانتس كافكا؛

قـام شُـرحبيل مـن السّـرير ودخـل إلى المِـرش التّـابع لغُرفـة الزّوجيْن الكبيرة فأخذ دُشًّا سريعًا دافئًا، فخرجَ منه منتعشًا قليلاً لـولا أثارُ الثُّمالة والصُّداعُ الـذي اسـتيقظ بـه بسـبب ما تعاطاه في اللّيلة الفائتة، كان يشعُر كما لـو أنّ السّنافر يقيمون حفلةً داخل رأسـه، أو كمـا لـو أنّ "سـنفور قـويّ" يتنقّـل بداخلـه بعـدما تضخّم حجمه عندما انسكبت عليه التّركيبة السّحرية التي حضّرها "بابا سنفور" في حلقة ((مسحوق التكبير))...

التقط بنطاله وقميصه ليرتديهما فوجد عليهما لطخات الدّم وبُقـع البيرة والزّيـت، ألقى بهمـا على الأرضـيّة وتوجّـه نحـو دولاب الملابس وفتح أبوابها الواحد تلو الآخر باحثًا عن ملابس يوليان، شـعر بالغثيـان لمّـا رأى جثّتيْ يوليـان وزوجتـه اللّـذين بـديا وكأنّهمـا محفوظان هناك منذ أسابيع، لم يتحكّم في معدته فتقيّأ على رأس يوليان ثم مسح فمه بربطةِ عُنق معلّقة مع عشرات ربْطات العنق الأخرى. كان هنـاك ما يملأ مَتجر ملابس بمختلـف أنـواع الأقمشـة

ومن عِدّة ألوان من ماركات عالميّة ومحلّية عديدة. سراويل، قُمصان، ربْطات العنق، سُترات، معاطِف، قُبّعات، أحذية، أحزِمة جِلديّة، سراويل داخليّة.. وغيرها، ونفس الشّيء في الجانب المُخصَّص لخليلة زوجته. جرّب شُرحبيل قطعتان أو ثلاث من قُمصان وسراويل يوليان فلم يناسبا مقاسه، إذ أنّ يوليان كان أطول قامةً منه. لذا فقد توجه إلى غرفة ثانية كان بابها يقابل باب غرفة آريام، بحث في دولاب الملابس المعلقة هناك عما قد يناسب مقاسه فوجد أن معظم ما فيها من ملابس يناسله تمامًا، لكنه تساءل في نفسه لمن تعود تلك الغرفة! ثمّ رجّحَ أنّها رُبّما يكون ليوليان إبنٌ أكبر من زوجته الأولى! فهو لم يكن يدري أن رائف أخ يوليان غير الشّقيق كان يقيم هناك في منزل أخيه، إلاّ أنه كان مسافرًا خارج البلاد منذ أسبوعيْن، شُرحبيل لم يكن يعلْم أصلا بأنّ رائف يقيم في بيت أخيه، وقد صادفَ أنّ رائف كان مُسافرًا في ذيْنك الأسبوعيْن فلم يتسنّى لشُرحبيل رؤيته أثناء مُراقبته لعائلة يوليان.

اختار قميصا قُطنيًّا بُنيّ اللّون وبنطالاً رماديًّا داكنًا، فجرّبهما فكان مقاسهما مناسبً جدًّا، اختار أيضًا حذاءً أسود وجوربيْن جديديْن وخرج من الغُرفة تاركًا جُثّة آريام هناك على السّرير.

نزل إلى الطّابق السُّفلي وحضّر لنفسه قهوة والقطُّ سيزار سكَب له حليبًا في إناء ونقعَ فيه حبّاتُ بسكويتٍ وجد عُلبةً منها على رفّ المُكسّرات. وبينما هو ينتظر أن تنضُج القهوة راح يُفكّر في أفضل وأسهل طريقة لقتل أكبر عددٍ من ضيوف حفلة المساء، قام وهو يلوك الكعك المُحلَّى في فمه وفي يده كوبُ القهوة بتفقُّد الكلب في الحديقة، فتح الباب بحذر فرآه مَلقيًّا على الأرض جثّةً هامدة وآثار الدّم الذي نزفه من الدّاخل ولفظه من فمه وأنفه مازالت ظاهرة. وبينما هو يتجوّل في الحديقة اكتشف أنه يوجد بها مِساحة مُخصّصة لزراعة عدة أصناف من الخُضروات والفواكه والحبوب كذلك، وكانت كما يبدو مزروعة للاستهلاك الخاص، وذاك كان شأنُ العائلات الثّرية في مُعظم أوروبا، حيث تهتمُّ تلك الطّبقة باتّباع حِميات غذائيّة صِحيّة لذا يستهلكون أطعمتهم التي يُنتجونها بأنفسهم حتى يتجنّبوا الأطعمة المُعلّبة والمُصبَّرة خاصّةً المُستورَدة منها.

وبينما هو يتنقّل بين النّباتات والشُّجيْرات لاحظ وجود نبتة الخَروع والتي لم يتوقّع رؤيتها بين بقيّة المزروعات، وهنا تذكّرَ حمّام السّاونا بالداخل، ففهِم أنّ العائلة كانت تستخرِج زيت الخَروع الطّبيعي من تلك النبتة حتى يستخدموه للتدليك لكونه أحد أفضل وأجود أنواع الزيوت المفيدة للجلد. وبينما هو يُفكّر في هذا لمعتْ في ذِهنه فِكرةً شَيطانيّة!

صَبَّ شُرحبيل ما تبقّى في الكوب من قهوةٍ على الأرض وراح يقطف ثمرات إحدى نباتات الخَروع الشّائكة، ثمّ فلَقها واحدةً واحدة وأخرَج منها عشرات البُذور التي ملأَ بها الكوب.

عاد إلى الدّاخل وتوجّه إلى مكتب الزّوجة في الغرفة المقابلة حيث وجد أنّها تحتفظ هناك بقُفّازات وكِمّامات طبيّة داخل دُرج. فوضع كِمامة على وجهه وارتدى القُفّاز وعلى طريقة Walter White في المُسلسل الأمريكي Breaking Bad قام بِطحن وطبخ وخلْط بُذور الخَروع ليستخرِج منها سُمّ الرّيسين القاتل، وهو نفس السُّم الذي دسّتْ بعض شرِكات تصنيع التّلقيحات المُضادّة لمُتحوّر أوميكرون جُرعاتً منه في سنة 2021، والذي تسبّبَ في مقتل عشرات الآلاف من النّاس الذين أذعنوا ووافقوا على أخذ

ذاك اللِّقاح، في حين نسَبت القنوات الإخباريّة العالميّة منها والمَحلّية، وكذلك الصُّحف والجرائد وقتها إلى أنّ سبب كلّ تلك الوِفيات هو مُتحوّر أوميكرون المزعوم!

جمع شُرحبيل كميّةً كافية من سُم الرّيسين ووضَعها في عُلبة بهارات أخذها من المطبخ ثم أقفل غِطائها وخبّأها هناك.

سمِع في تلك اللّحظة مفتاحًا يدور في قِفل الباب الخارجيّ فتوقّف عن الحركة، توقّف عن التنفّس، حتى قلبُه على الأرجح توقّف عن النّبض لثوانٍ حتّى يتأكّد إذا ما كان الذي سمعه صوت قفل الباب حقًّا.

أخذ سكّين تقطيع خُضر من حامِل السّكاكين وتقدّم بخطواتٍ حذِرة من باب المطبخ وأطلَّ ليرى من ذاك الذي سيدخُل، فُتِح الباب فظهر شابٌّ في عشريناته على قدرٍ من الوسامة يضعُ نظّارات طبيّة بإطارٍ أسود. اشمئزَّ منه شُرحبيل ما إن لاحظ أنّ حاجباه مُنمّصان وعلى شفتيْه الرّقيقتين يبرُق مُرطِّب الشّفاه، شعره الأسود اللّامع كان مُصفّفًا بعناية كما لو أنّه خرج لتوّه من محلّ "زيزو" للحِلاقة في الفيلم المصري ((حلاّق السيّدات)). دلَف الشّاب إلى الدّاخل وهو يحملُ حقيبة ظهر

ومَطريّةً زهريّة اللّون في يده، وما إن أغلق البابَ وراءه حتّى فوجىء بوجود رجلٍ غريب في بيت يوليان!

كان هذا فابيان عشيق رائف، والذي لحِق به إلى موطنه لمّا أطال غيابه، بعد أن وعَده بأنّه سوف يعود إلى فرنسا في غضون أسبوع، لكنّه كان قد مَرّ شهرٌ ولم يفِ رائف بوعده لحَبيبه الذي بقي ينتظِره على أحرّ من الجمْر. فرائف كان قد سافرَ إلى الجزائر في ذلك الأسبوع ولم يُخطِر أحدًا عن وِجهته، ففي تلك الفترة كان قد بدأ يُواعد ليندا التي تعرّف عليها قبل بضعة أشهر على منصّة Tinder، وبقيا يتحدّثان عبْرها إلى أن قرّرَ أخيرًا زيارتها في العاصمة حيث كانت تُقيم، والذي شجّعه على لِقائها هو أنّه وجدها ساذَجة وسهلةُ المَنال كونها تذوبُ فيه عِشقًا وتعبُدُه عِبادةً كما هو حال الكثيرات أمثالها من الجزائريات المهووسات بالمشارِقة والمعروفات بلقب ((أُم شنطه)) –حيث أن هذا النّوع من المُغفّلات يتصوّرنَ رجال المشرِق تمامًا مثل أبطال المُسلسلات السّورية والتُّركية التي يُدمنَّ مُشاهدتها على مدار اليوم – إلى درجة أنّها كانت تكشِف له جسدها على الكاميرا أثناء الدّردشة وتُريهِ مفاتنها، ولا تتردّدُ في إرسال فيديوهات وصورًا لها وهي عارية حتّى دون أن يطلُبَ منها

ذلك. استغلّ رائف تلك النّقطة ليستدرجها ويُمتّع نفسه بها مؤقّتًا كما فعل كلّ عنكبوتٍ سوريّ وتُركيّ وقعت في شِباكهم الذّبابات الذّائبات حُبًّا وغرامًا في من يغمُرهنّ حُبًّا زائفًا وهُم يُطرِبون سمْعهنّ بعباراتٍ سَمِجة مثل «تُأبري آلبي» و « seni seviyorum aşkım؛ »

بعد أن وعدَ رائف ذُبابتهُ ليندا بالزّواج اندهشَ عندما طارت من الفرحة غير مُصدّقةً أنّ رجلاً فلسطينيًّا سيتقدّمُ لطلب يدها، حيث أن رائف كذَب على ليندا في بداية علاقتِهما وأخبرها بأنه فلسطينيُّ الجِنسيّة. وكان كلّ ما اشترطته عليه هو أن يأتيها بحَفنة تُراب من أرض بيت المقدس كمَهرٍ لها، لا أكثر!! وكان لها ما طلبت في الأخير، فعندما ذهب إليها أخذ معه عُلبةً پلاستيكية ملأها لها بتُراب من حيّ نهير 13 الذي يسكن فيه بيَلوا على أنّه من القُدس.

كان يوليان وبقيّة أفراد عائلته يعلمون بعلاقة رائف وفابيان ويتفهّمونها كونهم عائلة عِلمانيّة مُتفتّحة، وقد قبِل يوليان بأن يستضيف فابيان عنده ليلتقي برائف كلّما رغب بذلك، حتى أنّه سمَح له بالحصول على نُسخةٍ من مِفتاح باب المنزل ليدخُل إليه

متى شاء كُلّما جاء من فرنسا، وذلك لمّا استلطفه وصار يثق فيه كفردٍ من عائلتهم.

لكن في ذلك الصّباح صُدم فابيان عندما رأى شُرحبيل في بيت يوليان، فقد اعتقد أنه عشيق رائف الذي كان يخونه معه ويواعده سرًّا في تركيا. وذلك بعد أن راودته شكوك حول الأمر بعد أن توقّف حبيبهُ عن التّواصل معه والرّد على مكالماته الهاتفيّة. لم يتمالك فابيان نفسه وراح يصرُخ في وجه شُرحبيل ناعتًا إيّاه بالدّخيل بينه وبين حبيبه، لم يفهم شُرحبيل شيئًا من الذي كان فابيان يتحدّث عنه كونه لم يكن يعلم أنّ رائف شاذ جنسيًّا ولديه عشيقٌ من فرنسا ويلتقيان أحيانًا في منزل أخيه الكبير. ممّا زاد ذلك في تأكيد شكوك فابيان الذي حسِب أنّ شُرحبيل ينكِر علاقته برائف. كان صبر شُرحبيل يوشك أن ينفد وهو ينظر إلى ذاك الخُنثى الذي كان يتحدّث مثل فتاةٍ مُراهِقة مُدلّلة.

أخفى السّكين وراء ظهره وراح ينظر إلى جُدران وأرضيّة الرّواق وهو يتخيّل الدّماء تُلطّخها بعد أن يقوم بذبح ذاك الشّاب المتشكّي المُتباكي مثلما تُذبَحُ الشّاة، فرأى أنّه سوف يجد صعوبةً كبيرة في تنظيفها وإخفاء أثرِ الدّم الذي سيأخذ منه وقتًا وجُهدًا كبيريْن،

لذا تراجع عن ذلك وبدأ يُفكّر في طريقة أخرى لقتله بها. ثمّ تذكّرَ الحديقة!

حشرَ شُرحبيل السّكين داخل كُمّ القميص دون أن يلحظ فابيان ذلك ثمّ ابتسم له ابتسامةً مُصطنعة وهو يُشير إلى باب الحديقة، سبقه إلى الباب فتبعه فابيان وهو يمسح دمعةً سالتْ على وجنتِه، خرج شُرحبيل إلى الحديقة وتوجّه مباشرةً إلى حيث رأى أدوات الزّراعة مُعلّقة في الصّباح، فأخذ منها المِنكاش. أمّا فابيان فقد سار بين النّباتات من جهةٍ أخرى ثمّ توقّف فجأةً وصاح مفزوعًا وهو يضعُ يديْه على خدّيْه مثلُ الفتيات عندما رأى جُثّة الكلب كيفانش مرميّةً بين شُجيْرات طماطِم حبّاتُها مازالت خضراء لم تنضُج. تراجعَ إلى الوراء وتهالكَ على رُكبتيْه الهزيلتيْن يبكي بحُرقةٍ على الكلب غير مُصدّقٍ أنّه سيراهُ يومًا ما ميّتًا أمامه، إذ أنّه سبقَ له وخرج عدّة مرّات في مواعيدٍ غراميّة مع حبيبه رائف ومعهما كيفانش، فيتجوّلوا ثلاثتهم في أرجاء يلوا. بينما هو سارحٌ في ذكرياته المعدودة مع الكلب مُتحسّرًا على خسارتهم إيّاه، في تلك اللّحظة تذكّر عائلة يوليان ونهض من على الأرض ينفُض برؤوس أصابعه التّراب الذي علِق بسرواله الجينز المشدود، بحثَ بعينيْه

عن ذاك الشّاب الغريب ليسأله عن سبب موت الكلب وعن مكان يوليان والبقيّة، ليجده واقفًا خلفه وفي يده مِنكاش. تلعثمَ فابيان وهو يبحث عن الكلمة المناسبة ليطرح بها سؤاله، لكن شُرحبيل لم يُمهله فُرصة لِلكلام ومُباشرةً رفعُ المِنكاش وضربهُ به على رأسه فانغرزت أسنانه الثّلاثة في صدغه فتناثر دمُه على بَتلات أزهار المانوليا القريبة فتلطّختْ ببُقع الدّم، توقّف جسدهُ عن الحركة كُليًّا وكأنّه رجلٌ آليّ نفدت بطّاريته، ثم مالَ جانبًا وسقطَ على شُجيْرة طماطِم فتكسّرتْ أغصانُها.

وجد شُرحبيل نفسه مُضطرًّا لإخفاء الجُثّة قبل أن يفاجئه شخصٌ آخر، فقضى السّاعتيْن التّاليتيْن في حَفْر حُفرةٍ كبيرة بين شُجيْرات الطّماطِم وشُجيْرات الفاصولياء ودفَن فيها فابيان والكلب معًا ثمّ واراهُما التُّراب.

بعد أن أخذ حمّامًا وبدّل ملابِسه التي تشبّعتْ بالعرق، تناول القليل من الفاكهة وشرِب عصيرًا ليستعيد طاقتَه. بحثَ بعد ذلك داخل مِحفظة النُّقود التي كانت في جيْب سُترة يوليان المُعلَّقة على مِشجب الرّواق، فوجد بها بِضعة مئاتٍ من اليوروهات، ثم فتّشَ في حقيبة يد الزّوجة الموجودة بمكتبها فعثر على مئتيْن وأربعون

يورو وبعض الفَكّة، وضع النّقود في جيْبه وقبل أن يخرُج بَسَّ للقطِّ سيزار فقدّم له بعض اللّحم المفروم الموجود في الثّلاجة، ثمّ ذرّ فيه كمّيةً من طحين الرّيسين ليرى مدى مفعوله على القطّ ويتأكّد من أنّه سيكون فعّالاً مع ضيوفه القادمين، أوصدَ باب المنزل بعد أن خرجَ توجّه إلى أقرب سوبرماركت في النّاحية، فاشترى منها كميّةً كبيرة من المشروبات الغازيّة والكُحولية وكذلك العصائر، كما اشترى أصنافًا عديدة من الحَلويات والكعك من أجل حفلة عيد الميلاد التي كان يحضّرها مالكُ البيت الذي كان يشتغل هو خادمًا عنده، أو هذا ما أخبرَ به شُرحبيل الباعة الذين ساعدوه في توضيب مُشترياته في أكياسٍ ورقيّة وعُلب كرتونيّة.

استقلّ بعد ذلك سيارة أُجرة ونقل على متنها كلّ المُشتريات إلى المنزل، كان باستطاعته استخدام سيارة يوليان ولكنّه أراد أن يتحاشى ضغط حركة المرور في بلدٍ لا يعرف قوانينه المُروريّة جيّدًا، خِشية أن يرتكب أيّ خطأ فتوقفه الشُّرطة ويصبح في ورطةٍ هو في غنًى عنها.

عندما وصَل نقدَ السائق وحرص على أن يترك له بقية الفكّة كإكراميّة حتّى يجعله ينسى أنّه رآه. أمّا عمّن رآه من الجيران وهو

يـدخل فمـا مِـن أحـد مـنهم اهـتمّ للأمـر، فالكـلّ مُهـتمٌ بشـؤونه الخاصّـة. كمـا أنّـه لـيس إلاّ رجـلٌ يقـوم بتوصـيل طلبيّـة مُشـتريات ويضـعُها في منزل الكاتـب لا غير، أو هـذا مـا كان يبـدو ظاهريًّـا لكلّ من سيراه.

كانـت السّـاعة تقتـرب مـن الثّالثـة زوالاً عنـدما انتهى شُـرحبيل من التّحضير للحفلة التي كان يتوقّع أن يـأتي إليها عـددٌ كبيرٌ من المدعوين، أو الضّحايا الـذين سيسـقطون قتلى في تلك اللّيلة كما كان يُخطّط... أمّا القـطُّ سـيزار فقـد كان منزويًـا في الرُّدهـة ويسـعُل ويتقيّـأُ منـذ أن عـاد شُـرحبيل، كمـا أنّـه بـدأ يتبرّزَ دمًـا في غضـون ساعتيْن فقـط، وفي تقدير شُرحبيل ومن خلال الكمّية التي وضعها لـه في الطّعـام فسـوف يَنفُـق في حـدود منتصـف اللّيـل، وبالتّـالي سيحرِص على مُضاعفة الكِميّة لكلّ فردٍ من الحضور حتّى يضمُن سيَران مفعول السُّم في دمهم!

* * *

بعد أربعة أيّامٍ من ذلك وبينما كانت راما داخل محلٍّ لبيع التّبغ تشتري عُلبة سجائر، لمحَت على صفحة إحدى صُحف Le Figaro الموضوعة على النّضد صورة شُرحبيل، وفوقها مكتوبٌ بالفرنسيّة

بـالبُنط العـريض <<مجـزرة في بيـت الكاتـب العـالمي يوليـان البعقوبي!>>.

ألقت راما نظرةً سريعة على ذاك الخبر المُريع المكتوب أسفل صورة حبيبها، والذي كان فحواه:

"في صبيحة يوم الثلاثاء الماضي الموافق لـ20 أبريل/نيسان 2022 سقط 57 شخصا قتيلا في منزل الكاتب المعروف يوليان البعقوبي، والذي وضع لهم (ش.ز) السُّم في الطعام والشراب الذي تناولوه في حفلة أُقيمت في بيت الكاتب، ليتمّ بعد ذلك اكتشاف أن الحفلة كانت فخًا نصبه القاتل لضحاياه باسم صاحب البيت والذي عُثر عليه وكل أفراد عائلته مقتولين هم أيضا، وقد أخفى المجرم جثثهم داخل خزانة ملابس في إحدى الغرف، كما أن الشرطة عثرت على جثة (ف.ل) مدفونة في حديقة المنزل، وقد دفن معها كلب العائلة كذلك. ومازالت الشُّرطة إلى الآن تحقق في مُلابسات الجريمة الغامضة التي هزت الشارع التركي...".

لم تصدق راما ما كانت تقرأه، نقدت البائع ثمن عُلبة السّجائر والصّحيفة بيدٍ مُرتعشةٍ وخرجت لتُتابع قراءة بقيّة الخبر المشؤوم وهي جالسة على حافّة رصيف العِمارة.

فهِمت في الأخير أن الشُّرطة التُّركيّة قد قبضت على الجاني وهو يُحاول الفرار من عبر سطح فُندق كيناليكار كوناي في شارع 2. حمام بمدينة بورصة التي تبعد عن مدينة يلوا حوالي 71 كلم، والذي أقامَ فيه شُرحبيل لِليلتيْن قبل أن تعثُر الشُّرطة على مكانه، وذلك عندما دلَّ شهودٌ عيان على مكان إقامته، لمّا تعرّفوا عليه بعد أن نُشرت على مواقع التّواصل صورةٌ تظهِر فيها ملامُحه التي ظهرت في كاميرا السوبرماركت التي اشترى منها الأغراض.

وقد اعترف المُجرم أثناء التّحقيق بجريمته دون أن يُقدّم إلى المُحقّقين السّببَ أو الدّافع لارتكاب جريمته الشّنيعة التي راح ضحيتها 61 شخصًا، و 7 أشخاصٍ آخرين كانت حالتهم حرِجة بعد أن أُدخلوا إلى المستشفى إثر تعرُّضهم للتّسمُّم بسُمّ الرّيسين.

اسودّتْ الدّنيا في عينيْ راما التي لم تستطع استيعاب ما قرأته لتوّها. قامت من مكانها مصدومةً وهي تجرُّ ذيول الخيْبة بعد أن كانت تُمنّي نفسها بالانتقال من حيْ لاريني إلى حيٍّ أنقى وأكثر هدوءً

بمدينة بوردو الجميلة رفقة حبيبها شُرحبيل الذي وعدها بالزّواج منها والسّكن معها في بيت أحلامهما هناك، حيث لن تضطرَّ إلى العمل كخادمة مرّةً ثانية. كلّ ذلك انتهى الآن وعليها تقبُّل الأمر الواقع، عليها أن تستمرّ في عيش حياتها كخادمة والسّكن في بيت مؤجَّر إلى أن يشاء الله. أمّا شُرحبيل فعليها أن تنساهُ لأنّه لن يرى النّور مُجَدّدًا، إلى أن يصدُر في حقّهِ حُكمُ الإعدام شنقًا على ارتكابه سِلسلةً من الجرائم.

الفهرس

الإهداء 5
لعنةُ سِخمتْ 7
صائد الثعابين 30
سفيان الرّهيب 79
قُربان پان 150
شُرحبيل 174